محمود شاكر

التاريخ الإسلامي

التاريخ المعاصر

المسلمون في الأمبراطورية الروسية

المكتب الإسلامي

التاريخ الإسلامي

- ٢١ -

التاريخ المعاصر

المسلمون في الأمبراطورية الروسية

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٨٨٥٧٤

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين فارج الهمّ، وكاشف الغمّ، ومُبدّد الظلمات، والهادي إلى سواء السبيل، والصلاة والسلام على قائدنا وسيدنا محمد بن عبدالله، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، رافع راية القوة والجهاد، والداعي إلى الحق وصراطٍ مستقيم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الجزء، والمسلمون في الامبراطورية الروسية يرسفون في قيود الذلّ، ويحيون حياة القهر، ويعيشون عيشة البؤس وقد طال عليهم عهد الضغط والتمييز والسحق من قبل الأعداء المتسلّطين عليهم، المستبدين بهم، وزادت عليهم العتمة والظلام إذ حيل بينهم وبين إخوانهم، وحُرموا من ممارسة شعائر عقيدتهم، ومن الاطلاع على مصادرها، ومعرفة منابعها حتى نسوا أكثر ما يجب عليهم علمه، وفُرض عليهم مناهج تُخالف مبادئهم، وأجبر أبناؤهم وأحفادهم على الإلحاد واتباع ما يجب الابتعاد عنه، ولم يروا إلا بصيصاً من نورٍ من خلال ثقوبٍ لا يرى منها شيء، وامتدّ عليهم الزمن...، ولكن لم تلبث أن نفدت الطبعة الأولى.

وصدرت الطبعة الثانية وكانت القيود قد كُسّرت، والحدود قد حُطّمت، والسجون قد هُدّمت، وفتحت الأبواب والمنافذ، ودخل النور شديداً فعشيت عيون المسلمين داخل الامبراطورية المفككة فخرجوا يتلمسون الطريق

لا يعرفون أين يسيرون، يريدون من يهديهم، من يرشدهم إلى الطريق، من يأخذ بأيديهم نحو سبيل الرشاد، من يصلهم بالماضي الذي يرتبطون به، وقد أضاعوه، ويعرفون أنه كان سبب عزّهم، وقد حوربوا من أجله، وأبعدوا عنه لينال منهم، ولإمكانية إذلالهم حيث لا يمكن إخضاعهم ما تمسكوا به. وهو الآن أملهم ينظرون إليه بالأفق بعيداً ويريدون الإسراع إليه لالتقاطه، فلكم حلموا به وتمنّوا الوصول إليه.

وأسرعت أقوام إلى تلك الشعوب بكل منها يريد أن يسير بها حسب هواه، سارت بإمكاناتها المتاحة لها لتمسك بيد ذلك الأعشى وتأخذ به إلى ما تريد، وهو لا يمكنه التمنّع حيث لا يعرف دربه، ولا يملك بالأساس المقاومة لأنه صفر اليدين، ويتقبّل كل دعايةٍ ويُصدّق ما يقال له. أسرعت إيران، ومدّت يدها لتلقي العلم وتتلقى طلبته، وحتى البهائيون قدّموا أنفسهم، وعجّلت الدول النصرانية في محاولة منها لإبقاء الأعشى على ضلالته، وخطا خطواتٍ واسعةً بعض من ينتمي إلى الإسلام، ولكن يريده على الطريقة الغربية، ليُعطي الأعشى صورةً غير صحيحةٍ عن الإسلام. أما المسلمون فجهلهم كبير بإخوانهم الذين خرجوا من وراء الستار الحديدي، وإمكاناتهم ضعيفة، لا رعاة لهم، ولا سراة، فإذا تحرّكوا فبالفراغ، وإذا تكلموا فمن غير وضوح في الرؤية، ولكن نرجو من الله أن تتغيّر الحال بسرعة بعد أن أخذ المسلمون في اليقظة حيث رأوا العالم والرعاة عليهم، والسهام كلها موجهة الى صدورهم، وهم هدف الأرض التي تريد أن تُفرغ شحنات حقدها عليهم بعد أن تمكّنت من السيطرة، ونثرت الرعاة من كنانتها فما منهم إلا لها تابع.

وقد أبقيت مادة هذا الجزء من الكتاب كما هي رغم كل ما حدث فما ذلك إلا مرحلة من التاريخ وما أنا إلا مدوّن له.

نرجو من الله التوفيق، وسداد الخطا، والعناية والرعاية منه فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسّلام على سيّد المرسلين، وخاتم النّبيّين، وإمام المتقين مُحمّد بن عبدالله، وعلى بقية أنبياء الله، وصحابة رسول الله، ومن اتّبع هُداه إلى يوم الدّين أمابعد،

فإنّ كلمة «إمبراطورية»، كلمة أجنبيّة وتعني سيطرة شعبٍ على شعوب أخرى، وتسخير هذه الشعوب، وخيرات بلادها كلّها لمصلحة الشّعب المسيطر وأهله، وفي هذه الإمبراطورية يُسيطر الرُّوس على شعوبٍ كثيرةٍ منها التتار، والترك، وشعوب القفقاس، وهذه كلّها شعوب إسلامية إضافةً إلى شعوبٍ ثانيةٍ تخضع مثلها للروس. وقبل الثورة الشيوعية في ١ محرم ١٣٣٦ هـ كان يُطلق على هذه الدولة اسم «الإمبراطورية الروسية»، فلمّا قامت الثورة تغيّر نظام الحكم، وتبدّلت مراكز القوة، وساد نظام اقتصادي غير الذي كان من قبل، أمّا سيطرة الروس على بقية الشعوب فقد استمرّت، واستمرّ معها الروس يستغلّون خيرات أراضي الشعوب لمصلحتهم، فَنَعِمَ الرُّوس بالسيطرة وبالرفاهية على حساب تلك الشعوب المُستضعفة، ولم يكن مع ما حدث ضرورة لتغيير اسم الدولة.

أما الرُّوس فقد رغبوا أن يُخفوا استغلالهم لأنّهم يدّعون تحريم الاستغلال فكيف يُحاربونه ويُمارسونه في الوقت نفسه؟ لهذا غيّروا اسم دولتهم، وأطلقوا

عليها اسم « الاتحاد السوفيتي » إخفاءً لاستغلالهم، وتمويهاً على بقية الشعوب، بأن الاتحاد يضمّ مجموعة شعوبٍ اختارت عن رضىً منها اتحاد بعضها مع بعض، وأصبح بناءً على ذلك الاسم العالمي لهذه الدولة « الاتحاد السوفيتي »، وبناء على اختيار القائمين على رأس هذه الدولة. أمّا الواقع فهو غير ذلك، ولمّا كان الاسم يُخفي تحته معنى كبيراً يُخالف الحقيقة لذا أردت أن أكشف عن هذه الحقيقة وأُعطي التسمية التي تدلّ عليها، وهي « الإمبراطورية الروسية »، وهو الاسم الذي كان سائداً فيما مضى، وهو اسم يصف الواقع ويرمز له، مع اعترافي بأن كلمة « الاتحاد السوفيتي » قد أصبحت علماً تدلّ على منطقةٍ معيّنةٍ من الأراضي الشاسعة، وقد غدا هذا الاسم عالمياً، ومُتعارفاً عليه بين الدول، يُكتب على الخرائط، والمصورات، والأطالس، والكتب، وتتناقله وكالات الأنباء ووسائل الإعلام المختلفة. إنه لم يتغيّر شيء على أوضاع السياسة الداخلية، وأساليب السيطرة، وطرق الاضطهاد، وأعمال القسر والظلم والوحشية بل ربما زاد الأمر مع تطوّر وسائل التعذيب وفنون الإبادة. فالشعب الرّوسي هو المسيطر على شعوبٍ كثيرةٍ، ولا يقبل من هذه الشعوب إلا أن تغيّر عقيدتها، وتصبح نصرانيةً على المذهب الأرثوذكسي فقط، وتذوب في المجتمع الروسي وتفقد شخصيتها حتى تحصل على بعض المساواة مع الروس وتتمّ عندها الوحدة الوطنية ـ حسب رأي الروس ـ وتعيش هذه الشعوب المستعمَرة التابعة للروس بفقرٍ وبؤسٍ لتبقى بحاجةٍ إلى الروس يمنّون عليها بفضلاتهم، ولتعيش ضعيفةً يُمكن للروس أن يضمنوا استمرارية بقائهم مُستعمرين لها، ولتوفّر لسادتها الروس كل ما هم بحاجةٍ إليه من خيرات بلادها وثروات قُطعانها.

والاتحاد هو الاتفاق بين دولتين أو أكثر عن رضىً واختيارٍ وقناعةٍ لانضمام بعضها إلى بعض لتأسيس دولةٍ واحدةٍ، شعوبها مُتكافئة في الأهلية والعمل، مُتساوية في الحقوق والواجبات، لا يستغلّ بعضها بعضًا، وهذا ما لا يوجد في الإمبراطورية الروسية، إذ لاحظنا أن الروس يستعمرون غيرهم من

الشعوب، ويفرضون سيطرتهم عليهم. إذن لا يصحّ أن نقول: الاتحاد السوفيتي، وإنما نقول: الإمبراطورية الروسية، وإن كنّا نستعمل هذا الاصطلاح دولياً وفي وسائل إعلامنا، إذ أنه اسم يدلّ على شيءٍ مُجرّدٍ لا على حقيقةٍ علميةٍ أو سياسةٍ واقعيةٍ. وإذا كان نظام الحكم الشيوعي الواحد هو الذي يجمع بين هذه الشعوب ويجعل منها دولةً واحدةً فإن هذا النظام قد فرضه الروس أيضاً على هذه الشعوب وحملوها عليه بالسيف، وقد ذهب ملايين البشر عند تطبيقه لأنهم رفضوه وأبوا تنفيذه، كما أُتلفت الزروع، وأُبيدت القطعان، ولا يزال السيف مُصلتاً على من يرفع رأسه أو يُعلن أيّ تذمّرٍ أو سُخطٍ. فكما فُرض بالقوة لا تزال القوة هي المُبقية عليه، الحاملة له، المُدافعة عنه، وفي الوقت الذي تتخلّى عنه القوة تتخلّى عنه الشعوب ويسقط إلى الأبد.

ومن هذا المنطلق لا يصحّ أن نستعمل اصطلاح « الامبراطورية العربية الإسلامية »، وهو الذي اعتاد بعض الكُتّاب أن يستعملوه جهلاً أو نقلاً عن المستشرقين الذين يريدون تشبيه الحكم الإسلامي بحكوماتهم المستعمرة ليصلوا من ذلك إلى أن الدولة الإسلامية كانت مستعمرةً استغلّ فيها العرب الإسلام ليُسيطروا على الشعوب الثانية. والواقع أن العرب لم يكونوا شعباً سيطر على بقية الشعوب الإسلامية، وإنما قد حلّ إليها الإسلام، واعتنقته عن قناعةٍ وإيمانٍ، وقد كوّنت مع الشعب العربي أمّةً واحدةً هي الأمّة الإسلامية، وشكّلت لها دولةً واحدةً هي دولة الخلافة التي امتدّ ظلّها الوارف على كل الشعوب الإسلامية والدليل أن هذه الشعوب قد تمسّكت بالإسلام وحافظت عليه وعملت على الدعوة إليه بكل إمكاناتها، وربما شملت شعوباً أخرى غير الإسلامية ولكنها قبلت دفع الجزية لتعيش في نعيمٍ، وعاهدت المسلمين فكان لها الحقّ بأن تنعم بما ينعم به المسلمون من رخاءٍ وطمأنينةٍ وسعادةٍ. وكانت خيرات كل إقليمٍ ينعم به أهله إلا إذا فاضت عنهم فإنها تُنقل حينئذٍ إلى أقاليم ثانيةٍ، وإذا حدثت مجاعة في مكانٍ أسهم أهل بقية الأقاليم في دعمه

أخوة وإحساناً، لا يختلف في ذلك إقليم عربي عن غيره من الأقاليم الإسلامية الثانية، ولم يكن للشعب العربي من فضل سوى حمل رسالة الإسلام، والشعوب الإسلامية كلها في نظر الإسلام واحدة، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1].

ويستعمل المستشرقون اصطلاح «الامبراطورية العربية الإسلامية» خبثاً وتفريقاً بين المسلمين إذ يُريدون أن يقولوا: إن الشعب العربي كان مُسيطراً على الشعوب الإسلامية الأخرى، ويُصرّون على هذا الاصطلاح كي تنقم الشعوب الإسلامية من غير العرب على العرب..... وذلك مكراً وخديعة فيجب أن ننتبه إلى ذلك عند الكتابة والقراءة.

وإذا كانت أعداد الروس كبيرةً حيث تطغى على أعداد الشعوب الأخرى التي يُسيطرون عليها، ويُعدّون ثلاثة أمثالها إلا أن بلادهم الأصلية ضيّقة جداً بالنسبة إلى أعدادهم، وصغيرة جداً بالنسبة إلى الأراضي التي يستعمرونها ويفرضون سيطرتهم عليها حيث لا تُعادل مواطن الروس أكثر من ١٥/١ من مساحة دولة الامبراطورية الروسية.

هذه الأعداد الكبيرة من الرُّوس وانتشارها في الأراضي التي تخضع لسلطانها جعل كثيراً من الناس يُطلقون على البلاد كلها اسم «روسيا» وبالتالي يُسمّون سكانها «روساً» جهلاً وعدم معرفةٍ بالحقيقة وعلى الرغم من أن نسبة الروس خارج مواطنهم لا تصل إلى ٢٥٪ في أحسن الأحوال، إضافةً إلى الهزيمة النفسية التي يعيشها قسم من المسلمين، والتبعية الفكرية والعلمية التي نحياها اليوم إذ نتلقى كل شيءٍ من أعداء الإسلام عامة ومن الغرب خاصةً، نتعلّم، ننقل، نُترجم، نُعجب بما يكتبون وبما يُحرّرون، وبما

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

يبحثون، وهم يُريدون طمس كل أثرٍ إسلاميٍ لهذا فهم لا يعتنون ببلدان المسلمين التي تحت السيطرة الروسية خاصةً وتحت نير الإلحاد الشيوعي عامة، وإن كانوا يختلفون معهم سياسياً، وفكرياً، وفي النظام الاقتصادي، ولكن لا يُريدون التنبيه إليها، ولا إعطاءها الصفة الاستقلالية، فهم أقرب إلى الروس مهما اختلفوا معهم، ومهما تباينت الأنظمة، ومهما باعدت بينهم المذاهب وهي أمور مُفرّقة بين الطرفين ومع ذلك فإنّ بعضهما أقرب إلى بعض من أيٍّ منهما إلى الإسلام الذي يعدّونه العدو المشترك لهما، وتتقارب مصالح الطرفين وتتباعد تبعاً لوجود العنصر الإسلامي في أيّ موضوعٍ من الموضوعات.

وإضافةً إلى ذلك يجب ألّا ننسى جهل الناس للمنطقة الصغيرة التي تقع داخل دولةٍ كبيرةٍ، فالمعرفة العامة والدراسة الإجمالية تضيع معها البقاع الصغيرة، والمعرفة في البلدان الإسلامية لا تتجاوز ذلك عن الامبراطورية الروسية كما لا تتعدّى الدراسة ذلك. كما علينا ألا نغفل حقيقة جهلنا، وواقع تخلّفنا، وعدم اهتمام الباحثين منا في ذلك، لأن التربية في أكثر بلدان العالم الإسلامي لا تُعير الدراسات الواجبة علينا اهتماماً يتّفق وعقيدة السكان التي تجعل منهم إخوةً لنا، ومن هذه الدراسات، التاريخ الإسلامي المُنقّى مما اعتراه من افتراءات المُغرضين وعمل أصحاب الأهواء وفعل المستشرقين، ومن بينها أيضاً دراسة الأقليات المسلمة، والبلدان والمناطق الإسلامية التي تخضع للسيطرة الأجنبية سواء أكانت سيطرةً شيوعيةً أم رأسماليةً فإن ما يقع فيها من أحداثٍ لا يصل إلينا، وإن حصل فلا نُبالي كأنه يحدث على كوكبٍ آخر، كما لا تَنْبَه الدراسات إلى توضيح مُخطّطات أعداء الإسلام كالذي تُخطّطه الإرساليات التنصيرية في أندونيسيا وغيرها.

وربما طُرحت تساؤلات في هذا الميدان، هل بقي المسلمون الذين يخضعون لنير السيطرة الإلحادية كواقعهم في الامبراطورية الروسية وغيرها على شيءٍ من عقيدتهم أم انحرفوا عنها تماماً واتّبعوا ما تمليه عليهمُ الشيوعية

بآرائها وأفكارها وحربها للإسلام خاصة؟ والواقع أن الجواب أمر صعب إذ الحكم على عقيدة أناس يُصلت السيف على رقابهم لترك هذه العقيدة لا يُمكن أن يكون دقيقاً، وإن كانت هناك مؤشرات تنفي ذلك الانحراف عن جماعاتٍ وتؤيده على أخرى، وهذا أمر طبيعي ففي كل مجتمع أناس صالحون وآخرون طالحون، بعضهم متمسك بعقيدته وآخر أهمل شيئاً منها، وثالث انحرف عنها نهائياً. ولكن الحكم يكون صحيحاً عندما يزول عنهمُ الطغيان، وتُعطى لهمُ الحرية الدينية، ومن خلال أحداث التاريخ المعاصر كانت الوقائع كلها إيجابيةً عندما مُنحوا شيئاً من الحرية الدينية في سبيل استغلال الوقت، وكسب المسلمين إلى جانب المتسلّطين، أو ظنّاً من الطغاة أن أثر الدين الإسلامي قد زال من نفوس الذين يتسلّطون عليهم، وما كان من نتائج إيجابيةٍ لمصلحة الإسلام قد أذهلت الطغاة الأمر الذي يجعلهم في كل مرة ينقضون ما أعطوه ويزيدون من شدّة بغيهم، وظلمهم، وضغطهم، والتنكيل بمن يُشمّ منه رائحة التديّن والعمل للإسلام أو الدعوة إلى الترابط على أساس العقيدة.

وقد رأيت من واجبي أن أوضّح كل هذا، وإذا كنت من أوائل الذين نبّهوا إلى دارسة المسلمين الذين قد أغفلهم إخوانهم، وهم الذين يخضعون للسيطرة الروسية، ويعيشون وراء الستار الحديدي، وأصدرت كتابي «تركستان الغربية» عام ١٣٩٠ هـ، ثم اتبعته بكتاب «قفقاسيا» عام ١٣٩١ هـ، وكتاب «المسلمون تحت السيطرة الشيوعية» عام ١٣٩٤ هـ، وكلها قد تكرّرت طبعاتها وتعددت ولم أكتف بهذا بل قدّمت ما هو ضروري في هذا المجال في كتاب «العالم الاسلامي» وكتاب «التاريخ الإسلامي» في جزأيه السابع والثامن، كما تناولت ذلك في الكتاب الذي أصدره المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عُقد في مدينة الرياض عام ١٣٩٩ هـ وهو «البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر» وقد وضع بالاشتراك مع الأخوين الكريمين الدكتور محمد السيد غلاب والدكتور

حسن عبد القادر صالح. وأعطيت فكرةً عن ذلك ليست قليلة في كتاب «تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر» والذي وضع بالاشتراك مع الأخ الكريم الدكتور اسماعيل ياغي، وقامت بنشره مكتبة دار المريخ بالرياض.

ودعت دولة الإمبراطورية الروسية علماء لزيارة بلدها وأرتهم ما تُريد أن يزوروه، وفي أوقاتٍ أعدّت فيها ما يُخفي الحقيقة، فأقامت مؤتمر سمرقند عام ١٣٩٤ هـ بمناسبة مرور ١٢٠٠ عام على ولادة الإمام البخاري، كما حضر بعضهم مؤتمر طاشقند الذي عُقد في شهر شعبان عام ١٣٩٩ هـ بمناسبة مرور عشر سنواتٍ على إصدار مجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي». وعندما عاد هؤلاء، وأولئك كتب بعضهم عما رأى، وما رأى إلا ما أُريد له أن يرى. كما كتب آخرون في الموضوع من خلال ما كُتب، وما نُشر، وما صدر عن وسائل الإعلام الروسية، ولعلّه من المفيد أن نذكر أشهر ما كُتب.

صدر عن دار الفكر الجديد في بيروت عام ١٤٠٠ هـ كتاب «صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات» بقلم الشيخ طه الولي.

وصدر عن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٣٩٥ كتاب «المسلمون في المعسكر الشيوعي» للدكتور علي المنتصر الكتاني. كما صدر عن رابطة العالم الإسلامي أيضاً «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» عام ١٤٠٠ بقلم محمد صفوت السقا الذي حضر مؤتمر سمرقند عام ١٣٩٤ مندوباً عن الرابطة.

وترجم إحسان حقي كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» لمؤلفيه «شانتال لمرسيه كلكجي» و «الكسندر بينيغسن» الفرنسيين، ونشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام ١٣٩٧ هـ.

وصدر عن دار الشروق بجدة عام ١٤٠٣ «المسلمون في الاتحاد السوفياتي» للدكتور محمد علي البار».

وترجمت مجلة الأسبوع العربي في عددٍ من أعدادها « المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي » عن الفرنسية والذي وضعه (بينيغسن) و (لومرسييه).

وقد رأيت أن أسجّل بشكلٍ موجزٍ شيئاً عن المسلمين في الإمبراطورية الروسية مُوضحاً حقيقة الأجزاء التي تخصّ الروس وقبائلهم، ثم حربهم للمسلمين، وسيطرتهم على أمصارٍ إسلاميةٍ واسعةٍ واستعمارهم لها، وبقاء هذا الاستعمار حتى اليوم مع حربٍ دائمةٍ للإسلام وأهله، وما يُعانيه المسلمون اليوم هناك، وما هي بلدانهم وحالتهم فيها في الوقت الحاضر؟ وذلك كي يتبيّن القارىء حقيقة الأمر، ويُقارن بين الواقع وبين ما كتبه الناس دعايةً أو خداعاً أو جهلاً.

ونسأل الله التوفيق، وسداد الخطا، والعون في هذه المُهمة، وأن يجعل أعمالنا خالصةً لله، وأن يتقبّلها منا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرة شهر ربيع الأول من عام ١٤٠٧ هـ.

محمود شاكر

الباب الأول

قبل الاستعمار الروسي

الفصل الأول

مواطن الروس وعاداتهم

أول ما عُرف الروس في القرون الإسلامية الأولى، وكانوا يعيشون في شرقي أوربا على شكل قبائل تتنقل في أراضٍ تزيد مساحتها على مليون كيلومتر مربع، وأشهر فروعها: الروس الكبار وهم الذي يعيشون حول موسكو في أحواض المجاري العليا لأنهار الفولغا، والدون، والدوينا، والدينيبّر، ويعدّون أصحاب السلطة الرسمية على بقية الروس، وربما من هنا جاءت تسميتهم بالكبار. والروس الصغار، وهم الأوكرانيون، ويقطنون حول مدينة «كييف» حول المجرى الأوسط لنهر الدينيبّر. والروس البيض ويُقيمون حول مدينة «منسك» عند المجرى الأعلى لنهر الدينيبّر وفروعه. ويُجاور هذه القبائل الروسية من الغرب قبائل بولونية. ومن الجنوب الغربي قبائل رومانية، ومن الجنوب قبائل من القوزاق قليلة الأعداد، وتُشكّل ديارهم السابقة الأجزاء الجنوبية من أوكرانيا اليوم، وأما الشرق والجنوب الشرقي فكانت تمتدّ أراض جرداء مُخلخلة السكان، وإن كانت تظهر تجمّعات البُلغار في الشرق عند المجرى الأعلى لنهر «الفولغا» وفروعه حول مدينة قازان، والتي كانت تُعرف باسم «بُلغار» أو تقع على مقربةٍ منها. وفي الجنوب الشرقي حول المجرى الأدنى لنهر «الفولغا»، وإلى الشرق منه توجد قبائل «الخزر». وأما الشمال فتكاد تكون المنطقة خاليةً من السكان لبرودتها وجفافها النسبي.

وعُرفت القبائل الروسية بكثرة أعدادها وتزايدها السريع، وكثيراً ما كان تجار الرقيق يُغيرون عليها ويختطفون الأبناء، وينقلونهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم هناك، وأحياناً أخرى ليست قليلة تعمد الأسر لبيع أولادٍ من أسر ثانيةٍ اغتصاباً أو اختطافاً، كما أن القتال بين القبائل الروسية الكبيرة كثيراً ما ينتج عنه بيع الأسرى من كلا الطرفين، وهؤلاء الأرقاء هم الذين عُرفوا في أسواق الرقيق أو في التاريخ باسم «الصقالبة» بل إنّ هذا الاسم قد أطلق على القبائل الروسية، وإن الرقيق الذي هو من أصل روسي لم يُطلق عليه صقلبي إلا لأنّه يعود إلى الصقالبة الذين هُمُ الروس، وإن كان هذا يُطلق أحيانًا على من يُشبههم في اللون وهو الأبيض المائل إلى الحمرة[1]. ونتيجةً لهذا كان يُقال أحياناً: الصقالبة الروس، والصقالبة البُلغار وهكذا فالروس جزء من الصقالبة، إذ كانوا يعدّون الروس الكبار الذين حول موسكو وحدهم هم الروس، وقد جاء في معجم البلدان: الروس: أمّة من الأمم، بلادهم متاخمة للصقالبة والترك، ولهم لغة برأسها ودين وشريعة لا يُشاركهم فيها أحد، قال المقدسي: هم في جزيرة وبئة يُحيط بها بحيرة[2] وهي حصن لهم ممّن أرادهم، وجملتهم على التقدير مائة ألف إنسان[3]، وليس لهم زرع ولا ضرع[4]، والصقالبة[5] يُغيرون عليهم ويأخذون أموالهم، وإذا وُلد لأحدهم مولود ألقى إليه سيفاً وقال له: ليس لك إلا ما تكسبه بسيفك، وإذا حكم

---

(١) صَقْلَب: بالفتح ثم السكون، وفتح اللام، وآخره باء موحدة. قال ابن الأعرابي: الصقلاب: الرجل الأبيض، وقال أبو عمرو: الصقلاب: الرجل الأحمر. قال أبو منصور: الصقالبة: جيل حُمْرُ الألوان، صُهْبُ الشعور يُتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم. وقيل للرجل الأحمر صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة. وقال غيره: الصقالبة: بلاد بين بُلغار وقسطنطينية. «معجم البلدان».

(٢) محاطة منطقتهم بالأنهار وروافدها من كل جهة تقريباً، فكأنها جزيرة وسط بحيرة.

(٣) هذا التقدير لا يستند على شيء، والعدد أكبر من هذا بكثير ـ والله أعلم ـ.

(٤) هكذا كانوا يتصورون أنه لا زراعة ولا مرعى في تلك الجهات لشدة البرد.

(٥) الصقالبة: يشبهون الروس في شكلهم، فسُمّوا باسمهم نتيجة صفتهم، وهم جيرانهم.

ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به قال لهم: تحاكما بسيفيكما، فأيّ السيفين كان أحدّ كانت الغلبة له.

كما وصفهم ابن فضلان في رسالته وصفاً مطولاً يُعطي صورةً عن طباعهم وسلوكهم وبعض عقيدتهم قال: ورأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل[1] فلم أر أتمّ أبداناً منهم كأنّهم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق[2] ولا الخفاتين[3]، ولكن يلبس الرجل منهم كساءً يشتمل به على أحد شقّيه ويُخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحدٍ منهم سيف وسكين وفأس لا تُفارقه، وسيوفهم صفائح مُشطّبة أفرنجية، ومن حدّ ظُفُر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجرٍ وصور وغير ذلك، وكل امرأةٍ منهم على ثديها حُقّة مشدودة إمّا من حديدٍ وإمّا من نُحاسٍ وإمّا من فِضةٍ وإمّا من ذهبٍ على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حُقّةٍ حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً، وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً وإن ملك عشرين ألفاً صاغ طوقين وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر، فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجلّ الحليّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السُفن يُبالغون فيه ويشترون الخرزة منه بدرهم وينظمونه عقداً لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائطٍ ولا يغتسلون من جنابةٍ كأنهم الحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيُرسون سفنهم بـ (إتل)، وهو نهر كبير، ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحدٍ منهم سرير يجلس عليه ومعه

---

(١) نهر إتل: نهر الفولغا.

(٢) القراطق: جمع قُرطق: قميص او معطف قصير يصل الى منتصف الجسم.

(٣) الخفاتين: جمع خفتان: وهو صدرية تحت الثياب.

جواريه الرّوقة للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما
اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل
التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيُصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى
يقضي أربه. ولا بدّ لهم في كل يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة
كبيرة فيها ماء فتُقدّمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه،
فيغسله ويسرّحه بالمشط في القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها ولا يدع شيئاً من
القذر إلّا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى
الذي يليه فيفعل مثل ما فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحدٍ إلى واحدٍ
حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحدٍ يمتخط ويبصق فيها ويغسل
وجهه وشعره فيها. وساعة موافاة سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحدٍ
منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ حتى يوافي خشبةً طويلةً منصوبةً لها
وجه يُشبه وجه الإنسان وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال
قد نُصبت في الأرض فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: يا رب
قد جئت من بُعْدٍ ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً ومن السمّور كذا
وكذا جلداً، حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول: وقد جئتك
بهذه الهدية، ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول: أريد أن ترزقني تاجراً
معه دنانير ودراهم فيشتري مني كل ما أريد ولا يُخالفني في جميع ما أقول، ثم
ينصرف، فإن تعسّر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهديةٍ أخرى ثانيةً وثالثةً،
فإن تعذّر عليه ما يُريد حمل إلى صورةٍ من تلك الصور الصغار هديةً وسألها
الشفاعة وقال: هؤلاء نساء ربنا وبناته، ولا يزال من صورةٍ إلى صورةٍ يسألها
ويستشفع بها ويتضرّع بين يديها فربما تسهّل له البيع فباع فيقول: قد قضى ربي
حاجتي واحتاج أن أكافئه، فيعمد إلى عدّةٍ من البقر والغنم على ذلك ويقتلها
ويتصدّق ببعض اللحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة
والصغار التي حولها ويعلّق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في
الأرض، فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك فيقول الذي فعله: قد

رضي عني ربي وأكل هديتي. وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمةً ناحيةً
عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يُكلّمونه
بل لا يتعاهدونه في كل أيامه لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً، فإن برئ
وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله
تأكله الكلاب وجوارح الطير، وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاؤوا به إلى
شجرةٍ طويلةٍ غليظةٍ وشدّوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلّقوه فيها ويبقى مُعلّقاً
حتى ينقطع من المكث إما بالرياح أو الأمطار، وكان يُقال لي، إنهم كانوا
يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلّها الحرق، فكنت أحبّ أن أقف على
ذلك حتى بلغني موت رجلٍ منهم جليل فجعلوه في قبره وسقّفوا عليه عشرة
أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها، وذلك أن الرجل الفقير منهم
يعملون له سفينةً صغيرةً ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله
ويجعلونه ثلاثة أثلاثٍ: فثلثٌ لأهله، وثلث يقطعون له به ثياباً، وثلث
يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تَقتُلُ جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها، وهم
مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في
يده، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟
فيقول بعضهم: أنا، فإذا قال ذلك وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبداً،
ولو أراد ذلك ما تُرك، وأكثر ما يفعل هذا الجواري. فلما مات ذلك الرجل
الذي قدمت ذكره، قالوا لجواريه: من يموت معه؟ قالت إحداهنّ: أنا،
فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت حتى إنهما ربما
غسلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج
إليه، والجارية في كل يوم تشرب وتُغني فارحةً مُستبشرةً، فلما كان اليوم
الذي يُحرق فيه هو والجارية حضر إلى النهر الذي فيه سفينته فإذا هي قد
أُخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخلنج وغيره وجعل حولها أيضاً
مثل الأناس الكبار من الخشب ثم مُدّت حتى جُعلت على ذلك الخشب وأقبلوا
يذهبون ويجيئون ويتكلّمون بكلامٍ لا أفهمه وهو بعد في قبره لم يخرجوه ثم

جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشّوه بالمضرّبات[١] الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه، وهي وَلِيَت خياطته وإصلاحه، وهي تقتل الجواري، ورأيتها حواء نَبِرة ضخمة مُكفهرّة، فلما وافوا قبره نحّوا التراب عن الخشب ونحّوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه فرأيته قد اسودّ لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطنبوراً فأخرجوا جميع ذلك وإذا هو لم يتغيّر منه شيء غير لونه، فألبسوه سراويل ورانًا وخفًا وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة من ديباج سمور، وحملوه حتى أدخلوه القُبّة التي على السفينة، وأجلسوه على المضرّبة، وأسندوه بالمساند وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه، وجاؤوا بخبزٍ ولحمٍ وبصلٍ فطرحوه بين يديه، وجاؤوا بكلبٍ فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطّعوهما بالسيوف، وألقوا لحمهما في السفينة، ثم جاؤوا ببقرتين فقطّعوهما أيضاً، وألقوهما في السفينة، ثم أحضروا ديكاً ودجاجةً فقتلوهما وطرحوهما فيها، والجارية التي ستُقتل ذاهبةً وجائيةً تدخل قُبّة قُبّة من قبابهم فيُجامعها واحد واحد، وكل واحد يقول لها: قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجلها على أكفّ الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانيةً ففعلت كفعلها في المرة الأولى ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثةً ففعلت فعلها في المرتين ثم دفعوا لها دجاجةً فقطعت رأسها ورمت به فأخذوا الدجاجة وألقوا بها في السفينة، فسألت الترجمان عن فعلها فقال: قالت في المرة الأولى: هوذا أرى أبي وأمي، وقالت في المرة الثانية: هوذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً،

(١) المضرّبات: نوع من المساند.

وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى مولاي قاعداً في الجنّة والجنّة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه، فمرّوا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا معها فدفعتهما إلى المرأة العجوز التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يُدخلوها إلى القُبّة، وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً من نبيذٍ فغنّت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: إنها تُودّع صواحباتها بذلك، ثم دُفع إليها قدح آخر فأخذته وطوّلت الغناء، والعجوز تستحثّها على شربه والدخول إلى القُبّة التي فيها مولاها، فرأيتها وقد تبلّدت وأرادت الدخول إلى القبة فأدخلت رأسها بين القبّة والسفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القُبّة ودخلت معها العجوز وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت، وأمسك اثنان رجليها، واثنان يديها، وجعلت العجوز التي تُسمّى ملك الموت في عنقها حبلاً مُخالفاً، ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل فأقبلت تُدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتُخرجه، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت، ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبةً فأشعلها بالنار، ثم مشى القهقري نحو قفاه إلى السفينة، والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على استه، وهو عريان، حتى أحرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها، ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحدٍ خشبة وقد ألهب رأسها فيُلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب، ثم في السفينة، ثم في القبة، والرجل والجارية وجميع ما فيها، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتدّ لهب النار واضطرم تسعُّرها، وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يُكلّم الترجمان الذي معي، فسألته عما قال له، فقال: إنه يقول أنتم معشر العرب

حتى لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته، ثم ضحك ضحكاً مُفرطاً وقال: من محبة ربّه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً رِمْدِداً، ثم بنوا على موضع السفينة، وكانوا أخرجوها من النهر، شبيهاً بالتل المدوّر ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا.

قال: ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويُقتلون دونه، ومع كل واحدٍ منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مُرصّع بنفيس الجواهر، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطىء الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا، ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدّموا دابته إلى سريره فركبها منه، وإذا أراد النزول قدّم دابته حتى يكون نزوله عليه، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته[1].

هذه العادات السيئة والخرافات التي كانت سائدةً يومذاك عند الروس، وربما لا يزال أثرها عند بعضهم حتى الآن إذ لا يخجل أحدهم من وطء المرأة أمام أقرانه.

(١) رسالة ابن فضلان.

الفصل الثاني

اعتناق الروس للنصرانية

كانت القبائل الروسية كلها على الوثنية في بداية أمرها، وقد انتشرت الديانات الأخرى في المناطق المجاورة لها. فقد كان الروم في القسطنطينية نصارى أرثوذكس، واعتنق الخزر الديانة اليهودية عند المجرى الأسفل لنهر الفولغا، كما انتشر الإسلام في بلاد البُلغار من جهة الشرق، وكان الإسلام قد وصل إلى تلك الجهات عن طريق تُجّار الفراء الذين كانوا يرحلون إلى تلك الأصقاع الشمالية.

وليس كل سكان منطقة الخزر من اليهود بل هم أقلهم والمسلمون والنصارى بين السكان أكثر من الخزر اليهود، وكذلك الوثنيون، كما أن البُلغار ليسوا جميعهم من المسلمين، وإنّما هم أقلية، والحاكم منهم، والأكثرية لا يزالون على الوثنية، وقد مرّ ابن فضلان برحلته إلى كلتا الدارين، فذكر شيئاً عن أوضاعها، وفي الأصل هو مبتعث من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البُلغار. ولما كانت المنطقتان اليوم من الأجزاء التي يُسيطر عليها الروس فأرى من الفائدة ذكر بعض وصفه لتلك الجهات.

قال ابن فضلان عن بلاد الخزر، الخزر اسم إقليم من قصبة تُسمّى «إتل» و«إتل» اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبُلغار، وإتل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والإتل قطعتان: قطعة على غربي هذا النهر المسمى

إتل وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيه، والملك يسكن الغربي منهما، ويُسمّى الملك بلسانهم «يَلك»، ويُسمّى أيضاً «باك»، وهذه القطعة الغربية مقدارها في الطول نحو فرسخ، ويُحيط بها سور إلّا أنه مُفترش البناء، وأبنيتهم خركاهات لبود إلّا شيء يسير بني من طين، ولهم أسواق وحمّامات، وفيها خلق كثير من المسلمين يقال: إنهم يزيدون على عشرة آلاف مُسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجداً، وقصر الملك بعيد من شطّ النهر، وقصره من آجُرّ وليس لأحدٍ بناء من آجُرّ غيره، ولا يُمكّن الملك أن يبني بالآجر غيره، ولهذا السور أربعة أبواب: أحدها يلي النهر وآخرها يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة، وملكهم يهوديّ، ويُقال: إنّ له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل، والخزر[1] مسلمون، ونصارى، وفيهم عبدة الأوثان، وأقلّ الفرق هناك اليهود على أن الملك منهم، وأكثرهم المسلمون والنصارى إلّا أن الملك وخاصته يهود، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وأحكام مصرهم على رسوم مخالفةٍ للمسلمين واليهود والنصارى، وجريدة جيش الملك اثنا عشر ألف رجل، فإذا مات منهم رجل أقيم غيره مقامه، فلا تنقص هذه العدّة أبداً، وليست لهم جراية دائرة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة البعيدة إذا كان لهم حرب أو حزَبَهم أمر عظيم يجمعون له. وأما أبواب أموال صلات الخزر فمن الأرصاد وعشور التجارات على رسومٍ لهم من كل طريقٍ وبحرٍ ونهرٍ، ولهم وظائف على أهل المحالّ والنواحي من كل صنفٍ مما يُحتاج إليه من طعامٍ وشرابٍ وغيرِ ذلك، وللملك تسعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنّما يصل إليه هؤلاء الحكّام، وبين هؤلاء الحكّام وبين الملك يوم القضاء سفير يُراسلونه فيما يجري من الأمور يُنهون إليه ويردّ عليهم أمره ويمضونه.

(١) يقصد سكان منطقة الخزر.

وليس لهذه المدينة قرى إلّا أن مزارعهم مفترشة، يخرجون في الصيف إلى المزارع نحواً من عشرين فرسخاً فيزرعون ويجمعون إذا أدرك بعضه إلى النهر وبعضه إلى الصحاري فيحملونه على العجل والنهر، والغالب على قوتهم الأرُزّ والسمك وعدا ذلك مما يوجد عندهم يحمل إليهم من الروس وبُلغار وكويابه، والنصف الشرقي من مدينة الخزر فيه معظم التّجار، والمسلمون، والمتاجر، ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ولا يُشاركه لسان فريق من الأمم، والخزر لا يُشبهون الأتراك، وهم سود الشعور، وهم صنفان: صنف يسمى قراخوز، وهم سمر يضربون لشدّة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الجمال والحسن، والذي يقع من رقيق الخزر وهم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض، فأمّا اليهود والنصارى فإنهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم لبعض مثل المسلمين.

وبلد الخزر لا يُجلب منه إلى البلاد شيء، وكل ما يرتفع منه إنما هو مجلوب إليه مثل الدقيق والعسل والشمع والخزّ والأوبار[1]. وأما ملك الخزر فاسمه خاقان، وإنه لا يظهر إلّا في كلّ أربعة أشهرٍ مُتنزهاً، ويُقال له خاقان الكبير ويُقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويُدبّر أمر المملكة ويقوم بها، ويظهر ويغزو وتُذعن له الملوك الذين يُصاقبونه، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة، ولا يدخل عليه إلّا حافياً وبيده حطب، فإذا سلّم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يُقال له «كندرخاقان» ويخلف هذا أيضاً رجل يُقال له «جاويشغر»، ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يُكلّمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا. والولايات في الحلّ والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به،

(١) معجم البلدان: ويبدو أن ياقوت قد أخذ هذا من الاصطخري ٢٢٠ - ٢٢٤ ومن ابن حوقل ٣٨٩/٢ ولم يرد هذا في رسالة ابن فضلان التي بين أيدينا.

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يُبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً ، ويُحفر له في كل بيت منها قبر وتُكسّر الحجارة حتى تصير مثل الكُحل وتُفرش فيه وتُطرح النورة [1] فوق ذلك ، وتحت الدار نهر والنهر نهر كبير يجري ، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ، ولا إنسان ، ولا دود ولا هوام ، وإذا دُفن ضُربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يُدرى أين قبره من تلك البيوت ، ويُسمّى قبره الجنّة ، ويقولون : قد دخل الجنّة ، وتُفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأةٍ منهن ابنة ملكٍ من الملوك الذين يُحاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً ، وله من الجواري السراري لفراشه ستون ، ما منهن إلّا فائقة الجمال ، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصرٍ مُفردٍ لها قُبّة مُغشّاة بالساج ، وحول كل قُبّةٍ مضرب ، ولكل واحدةٍ منهن خادم يحجبها ، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ويقف الخادم على باب قُبّة الملك ، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظةً واحدةً . وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب معه سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل ، فلا يراه أحد من رعيته إلّا خرّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسه حتى يجوزه ، ومدة ملكهم أربعون سنةً ، إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته وقالوا : هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه . وإذا بعث سرية لم تولّ الدُبُرَ بوجهٍ ولا بسببٍ ، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها ، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم ، وهم ينظرون ، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودُورهم ، وربما قطّع كل واحدٍ منهم قطعتين

(١) النورة: حجر الكلس.

وصلبهم ، وربما علّقهم بأعناقهم في الشجر ، وربما جعلهم - إذا أحسن إليهم - ساسة .

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر « إتل » ، وهي جانبان : في أحد الجانبين المسلمون ، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يُقال له خزّ ، وهو مسلم ، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم ، ولا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره ، وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يُصلّون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع ، وفيه منارة عالية وعدة مُؤذنين ، فلما اتصل بملك الخزر في سنة ٣١٠ أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج أمر بالمنارة فهُدمت وقتل المؤذنين وقال : لولا أني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلّا هُدّمت لهدمت المسجد . والخزر وملكهم كلهم يهود ، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته ، ويُخاطبهم بالعبودية ، ويدينون له بالطاعة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج ومأجوج هم الخزر [1] .

وقد انتشر الإسلام في منطقة الخزر عن طريق إمارة طارقي الشامية في شمال بلاد داغستان والتي أسسها القوموق أشهر القبائل الداغستانية في القرن الأول الهجري . وبشكل طبيعي أن ينتشر الإسلام بسرعةٍ نتيجة موافقته للفطرة البشرية ونتيجة انتشار هذه الخرافات والأساطير والظلم التي رأينا جانباً منها عند تلك الأمم من غير المسلمين .

أما البُلغار فهم مجموعة قبائل تعرف مدينتهم باسمهم ويُشبهون الصقالبة من حيث اللون ، وقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي ما يلي : بُلغار [2] : بالضمّ ، والغين معجمة : مدينة الصقالبة ، ضاربة في الشمال ، شديدة البرد لا

(١) رسالة ابن فضلان ومعجم البلدان.
(٢) بلغار : موقع مدينة قازان اليوم.

يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفاً ولا شتاءً وقلّ ما يرى أهلها أرضاً ناشفةً، وبناؤهم بالخشب وحده، وهو أن يركبوا عوداً فوق عودٍ ويُسمّروها بأوتادٍ من خشبٍ أيضاً محكمة، والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب، بين مدينة الخزر وبُلغار عن طريق المفاوز نحو شهر، ويُصعد إليها في نهر إتل نحو شهرين وفي الحدور نحو عشرين يوماً، ومن بُلغار إلى أول حدّ الروم نحو عشر مراحل، ومنها إلى كُويابة[1] مدينة الروس عشرون يوماً، ومن بُلغار إلى بَشْجِرد[2] خمس وعشرون مرحلة، وكان ملك بُلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله وأرسلوا إلى بغداد رسولاً يُعرّفون المقتدر[3] ذلك ويسألونه إنفاذ من يُعلّمهم الصلوات والشرائع، لكن لم أقف على السبب في إسلامهم[4].

ويقول ابن فضلان: لما وصل كتاب (ألمس بن شلكي بلطوار) ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيه أن يبعث إليه من يُفقّهه في الدين ويُعرّفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب لـه منبراً ليُقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ويسأله بناء حصنٍ يتحصّن فيه من الملوك المُخالفين له، فأجيب إلى ذلك، وكان السفير له نذير الحزمي[5]، فبدأت

(١) كويابة: يبدو أنها موقع موسكو اليوم.

(٢) بشجرد: الباشغرد قبيلة تقع شرق بلغار، ومدينتهم اليوم (أوفا).

(٣) المقتدر: المقتدر بالله الخليفة العباسي جعفر بن أحمد المعتضد تولّى الخلافة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ.

(٤) يبدو أن سبب إسلام بُلغار التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجهات للتجارة بالفرو، وأثناء دخولهم على الملك عرّفوه دياناتهم فأعجب بها، ووجد الفرق كبيراً بينها وبين الخرافات التي تسود مجتمعه، وكيف لا يكون فرق والإسلام من عندالله خالق البشر، وما يسود المجتمع البُلغاري خرافات صاغتها أهواء البشر؟.

(٥) نذير الحزمي: يبدو أنه كان أحد كبار التجار المسلمين الذين وفدوا على ملك البلغار وحدثوه في شأن الإسلام، وكان الملك قد سُرّ بحديثه وأعجب ببيانه فأرسله إلى الخليفة العباسي كسفير له رغم أنه من المسلمين ومن رعايا العباسيين.

أنا بقراءة الكتاب عليه وتسلم ما أهدي إليه والأشراف من الفقهاء والمعلّمين، وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي[1] مولى نذير الحزمي، قال: فرحلنا من مدينة السلام[2] لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩، ثم ذكر ما مرّ له في الطريق إلى خُوارزم ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه، ثم قال: فلما كنّا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يديه وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاوَرْس، وساروا معنا، فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه فلما رآنا نزل فخرّ ساجداً شكراً لله، وكان في كُمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قباباً فنزلناها، وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٠. وكانت المسافة من الجرجانية، وهي مدينة خُوارزم، سبعين يوماً، فأقمنا إلى يوم الأربعاء بالقباب التي ضربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصه ليسمعوا قراءة الكتاب، فلمّا كان يوم الخميس نشرنا المِطرَدين[3] اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجّه إليه، وألبسناه السواد وعمّمناه وأخرجت كتاب الخليفة فقرأته وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائم أيضاً، وكان بديناً، فنثر أصحابه علينا الدراهم، وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه، ثم خلعنا على امرأته وكانت جالسةً إلى جانبه، وهذه سنتهم ودأبهم، ثم وجّه إلينا فحضرنا قبّته وعنده الملوك عن يمينه وأمرنا أن نجلس على يساره، وأولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مُغشّى بالديباج الرومي،

(١) سوسن الرسي: يبدو أنه كان رئيس الوفد العباسي إلى ملك البلغار على الرغم من أن المصادر تُشير كلها إلى ابن فضلان، ويبدو أن ذلك كان بسبب رسالة ابن فضلان التي خلّفها لنا وبسبب مكانة ابن فضلان، فهو القائد العباسي المشهور الذي أعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية وقضى على الطولونيين فيها.

(٢) مدينة السلام: بغداد.

(٣) المطردين: مثنى مطرد وهو اللواء.

فدعا بالمائدة فقُدِّمت إليه وعليها لحم مشوي، فابتدأ الملك وأخذ سكيناً وقطع لقمةً فأكلها وثانيةً وثالثةً ثم قطع قطعةً فدفعها إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجُعلت بين يديه، وكذلك رسمهم لا يمُدُّ أحد يده إلى أكلٍ حتى يُناوله الملك فإذا تناولها جاءته مائدة، ثم قطع قطعةً وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قَدَّم إلى كل واحدٍ من الذين بين يديه مائدة، وأكل كل واحدٍ منا من مائدةٍ لا يُشاركه أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الأكل حمل كل واحدٍ منا ما بقي من مائدته إلى منزله. فلمّا فرغنا دعا بشراب العسل، وهم يُسمّونه «السجو» فشرب وشربنا. وقد كان يُخطب له قبل قدومنا: اللهم أصلح الملك بلطوار ملك بُلغار، فقلت له: إن الله هو الملك ولا يجوز أن يُخطب بهذا لأحد سيما على المنابر، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد وصّى لنفسه أن يُقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، فقال: كيف يجوز أن يُقال؟ فقلت: يُذكر اسمك واسم أبيك، فقال: إن أبي كان كافراً وأنا أيضاً ما أحبّ أن يذكر اسمي إذ كان الذي سمّاني به كافراً، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت: جعفر، قال: فيجوز أن أتسمّى باسمه؟ قلت: نعم، فقال: قد جعلت اسمي جعفراً واسم أبي عبدالله، وتقدّم إلى الخطيب بذلك. فكان يخطب: اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير بُلغار مولى أمير المؤمنين، قال: ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرةً، من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلدة رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقد احمرّ احمراراً شديداً وسمعت في الجو أصواتاً عاليةً وهمهمة فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه وإذا فيه أمثال الناس والدواب وإذا في أيدي الأشباح التي فيه قِسيّ ورماح وسيوف، وأتبيّنها وأتخيّلها وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها رجالاً أيضاً وسلاحاً ودواب، فأقبلت هذه القطعة على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة،

ففزعنا من هذه وأقبلنا على التضرُّع والدعاء، وأهل البلد يضحكون منا ويتعجّبون من فعلنا، قال: وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعاً ساعة ثم تفترقان، فما زال الأمر كذلك إلى قطعةٍ من الليل ثم غابتا، فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمني الجنّ وكفّارهم يقتتلون كل عشيةٍ، وأنهم ما عدموا هذا منذ كانوا في كل ليلة[1]. ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتي لنتحدّث، فتحدّثنا بمقدار ما يقرّ الإنسان نصف ساعةٍ ونحن ننتظر أذان العشاء، فإذا بالأذان فخرجنا بالقبة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن: أي شيءٍ أذّنت؟ قال: الفجر، قلت: فعشاء الأخيرة؟ قال نُصلّيها مع المغرب، قلت: فالليل؟ قال: كما ترى وقد كان أقصر من هذا وقد أخذ الآن في الطول، وذكر أنه منذ شهر ما نام الليل خوفاً من أن تفوته صلاة الصبح، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار ثم يصلّي الغداة وما آن لها أن تنضج، ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً، وإذا أنه يطول عندهم مرّةً من السنة، ويقصُر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، فلما كانت الليلة الثانية جلست فلم أر فيها من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنها فوق الخمسة عشر كوكباً متفرقةً، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتةً، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم، والقمر إنما يطلع في أرجاء السماء ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر. وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوماً يقال لهم: (ويسو) الليل عندهم أقل من ساعة. ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال، وكل شيءٍ ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبّد

(١) هذه ظلال الغيوم المختلفة الكثافة لاختلاف كمية بخار الماء فيها، وتظهر بين الأشعة كأنها تتحرك بسرعة وتتموج، وتلتقي بغيوم أخرى مختلفة الشحنة الكهربائية فتحدث الأصوات التي هي نوع من الرعد، وهذا لا يوجد مثله في المناطق ذات العروض الدنيا، لذا فقد وجدوا فيها عجباً وبسبب الشفق تبدو حمراء.

السماء[1]. وعرّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى نهر يُقال له « إتل » بيننا وبينه أقل من مسافة فرسخ وقت الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء، ورأيتهم يتبركون بعواء الكلب جداً ويقولون: تأتي عليهم سنة خصبٍ وبركةٍ وسلامةٍ[2].

كانت توجد إذن ثلاث مناطق في تلك الجهات وهي:

١ - منطقة الخزر ويحكمها اليهود، ويعيش بينهم مسلمون، ونصارى، ووثنيون، وكل فرقةٍ أكثر من اليهود عدداً ولكنهم جميعاً يدينون لليهود الخزر بالطاعة.

٢ - منطقة بُلغار ويحكمها مسلمون اعتنقوا الإسلام حديثاً، وبقي عدد منهم على الديانة الوثنية.

٣ - منطقة الروس وسكانها من الروس ولا يزالون جميعهم على الوثنية.

كان الروس الوثنيون مجالاً للصراع لكسبهم إلى إحدى الديانتين اللتين يدين بهما حكام الخزر وهم اليهود وحكام بلغار وهم المسلمون، وكما فشل البلغار في كسب الروس إلى الإسلام كذلك فشل اليهود في إدخالهم في دينهم، كما أن النصرانية من جهات الرومان قد أدلت بدلوها مع ملك الروس (فلاديمير)، وأمام هذا الصراع جمع فلاديمير وجهاء قومه،

---

(١) تقع بلغار على خط عرض ٥٦ شمالاً، أي في العروض العليا. ومن المعلوم أنه كلما ابتعدنا عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً يزداد الاختلاف بين طول النهار والليل، بينما يكادان يتساويان في المنطقة الاستوائية. وفي نصف الكرة الشمالي يزداد طول النهار صيفاً ويقصر طول الليل حتى لا يزيد الليل على ساعة واحدة في الدائرة القطبية وبعدها في القطب يصبح النهار ستة أشهر والليل مثله. أما في خط عرض بلغار فيكاد الليل لا يزيد طوله على ست ساعات ولكن يبقى النور واضحاً والشفق دائماً، كما ذكر ابن فضلان تقريباً.

(٢) هذا اختصار لما جاء في رسالة ابن فضلان ويكاد يتفق مع ما أخذه ياقوت عنه.

واستنصحهم في هذه التيارات الدينية، فأجابوه: أيها الأمير إن كل امرىءٍ يمدح ديانته فإذا أردت أن تختار أحسنها فابعث برجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمةٍ من الأمم تُعظّم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى.

اختار (فلاديمير) لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالرأي والحكمة، فوجدوا أن بلاد البُلغار لا تزال فيها أماكن حقيرة المظهر حيث لا يزال الإسلام فيهم حديث العهد، ولم يُطبَّق النظام الإسلامي بعد بصورةٍ كاملةٍ (والإسلام ليس مجرد عبادةٍ وشعائر تُؤدّى وإنما هو نظام يشمل جوانب الحياة كلها يبدأ بالنظافة ويصل إلى الحكم) وكذلك لم يُسرّ رجال الروس في بلاد الخزر فالمستنقعات والبيئة القذرة وروائح بقايا الأسماك و... ولكنهم سُرّوا بالقسطنطينية، وما بها من فخامة البناء وعظمة الإشادة في كنيسة (أيا صوفيا) وملابس رجال الدين الجميلة المتميزة، وروائح البخور المنبعثة من داخل الكنيسة، ولم يعرفواهم هذا من قبل إذ لم يرتقوا بعد في سلم الحضارة، ولم يفهموا معنى العبادة والإخلاص فيها والتوحيد، فنقلوا انطباعاتهم إلى ملكهم (فلاديمير)، فتحول إلى النصرانية وجهر بها عام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ديانةً له، وتبعه قومه، وهكذا أصبحت النصرانية على المذهب الأرثوذكسي عقيدة الروس، وبدأت تترسّخ في النفوس، على حين بقيت القبائل غير الروسية وثنية تتنقّل في شرق مواطن الروس وتخضع للقبائل التي أصبحت نصرانية أرثوذكسية.

وبعد مدةٍ ضعُفت دولة الخزر وقلّ شأن سكانها.. كما أن دولة البُلغار قد هاجر كثير من قبائلها، واتجهوا نحو الجنوب الغربي ويمّموا شطرهم نحو جنوب شرقي أوربا، فاستقرّ البلغار في الموضع الذي تقوم فيه دولة بلغاريا اليوم، واستوطن البوشناق في غربي يوغوسلافيا، في بلاد البوسنة. وأقامت قبائل الكومان في ترانسلفانيا (جهات رومانيا) حيث أقام البوشناق أول



أمرهم قبل أن يرتحلوا إلى البوسنة، وأقامت بعض قبائل (الباشغرد) في المجر. وقد بقيت قبائل من الباشغرد في مواطنها في حوض نهر الفولغا، وهي التي تعرف اليوم باسم (الباشكير) أو الباشغرد وعاصمتهم مدينة (أوفا) المعروفة، وبصورة عامة ضعُفت دولة بُلغار، وإن كان هذا الانتقال قد بدأ منذ السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م).

وهكذا أصبح شرقي أوربا منطقة قليلة السكان أو شبه فارغة على حين تزدحم المواطن الروسية بأهلها، وأصبح شرقي أوربا مجالاً للاستيطان، حيث يأتي التتار ويستقرّون فيه، بعد انتصارهم على أهله ودُوَلهم الضعيفة.

الفصل الثالث

التتار في شرقي أوروبا

قوي أمر قبائل التتار في شرق ديار الإسلام في مطلع القرن السابع الهجري، إذ بدأت هذه القبائل تجمع نفسها وتتحرك يميناً ويساراً، وبدت إمكاناتها القتالية الكبيرة، إذ كانت قدرتها على الحركة عظيمةً، وأفرادها من البدو الذين لا يعرفون الخوف، ويندفعون وراء معيشتهم. في هذا الوقت كانت آخر فلول الصليبيين ترحل عن بلاد الشام من ديار الإسلام، وقد خشي الصليبيون أن يُسلم التتار باحتكاكهم مع المسلمين كما سبق أن أسلم بعض أبناء أرومتهم من الترك، من تركمانٍ وغزٍ وسلاجقةٍ. وإذا حدث هذا فإن الحيوية ستعود إلى القوة الإسلامية ولن تؤول في النهاية إلا على النصارى، كما حدث عندما أسلم السلاجقة واصطدموا مع النصارى البيزنطيين عام ٤٦٣ فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملاذكرت والتي كان الجيش النصراني يزيد على مائتي ألف مُقاتل على حين كان الجيش المسلم لا يزيد على عشرين ألف مُحارب، وقد أسر الأمبراطور البيزنطي نفسه وأكثر قواده وبطارقته، وقد فدى السلطان أسيره الامبراطور (ديوجنيس رومانوس) واطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه وقواده بشرط أن يُطلق سراح كل أسيرٍ مسلم بيد الروم، وأن يُرسل إليه عساكر الروم وقت طلبها. ويخشى الصليبيون على أوربا نفسها إذا ما أسلم التتار، لذا كان على الصليبيين أن يعملوا دون إسلام التتار بالدرجة الأولى، وبعدئذ يعملون لدى التتار ليشنوا

حرباً على المسلمين، فيقع المسلمون آنئذٍ بين نارين نار التتار في الشرق ونار الصليبيين التي تُسعر من جديد من الغرب. ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل للتتار، وأغروهم بديار الإسلام وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها، كما أُدخلت النساء النصرانيات إلى بيوت التتار لتُؤدّي دورها في هذه المهمة، فكانت على شكل حليلاتٍ أو خليلاتٍ، وتقوم بما يقوم به الرسل النصارى بشكلٍ مُستمرٍ. وكان للصليبيين ما أرادوا فقد اقتنع التتار بالفكرة، ولم يبق إلا وجود المبرر للقيام بهذا العمل أو مُحرّض له دوافعه المباشرة. وقد وُجد المبرر عندما وقع الخلاف بين جنكيزخان قائد التتار المغول وبين خوارزمشاه محمد تكش.

انطلق التتار نحو الغرب واجتاحوا ما اجتاحوه بوحشيةٍ لا تكاد تُوصف، وفي عام ٦٢٠ دخلوا بقيادة جوجي بن جنكيزخان باب الأبواب (دربند) وانطلقوا إلى بلاد القفقاس، فقاتلوا قبائل اللان والجراكسة وانتصروا عليهم، ثم اقتحموا شرقي أوربا فدخلوها ونهبوها، وقاتلهم البُلغار فانتصروا عليهم، وقُتل كثير من التتار ومن بقي منهم عاد إلى جنكيزخان وخلت أراضي شرقي أوربا وبلاد القفقاس من التتار.

توفي جوجي بن جنكيزخان قبل أبيه بمدةٍ قصيرةٍ. وقبل أن يموت الأب قسّم ما أخضع من بلدانٍ بين أولاده الأربعة. فأعطى ابنه الكبير «جوجي» بلاد القفجاق، وداغستان، وخُوارزم، وبُلغار، وروسيا، ولما كان جوجي قد مات قبل أبيه فإن نصيبه كان لابنه باتو بن جوجي.

وأعطى ابنه الثاني «جغطاي» بلاد الأويغور، وتركستان وما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر إخوته مُحافظةً على تعاليم أبيه المصورة فيما عُرف باسم «الياساق».

وأعطى ابنه الثالث «تولوي» بلاد خراسان، وفارس، وما يُؤمّل أخذه من ديار بكر والعراقين، وما يتبع تلك الجهات.

وأما ابنه الرابع «أوغطاي» فقد أعطاه بلاد المغول، والصين، والخطا، إلى منتهى المعمورة من ناحية المشرق، وجعله الخان الأعظم من بعده، ويرجع إليه المغول جميعاً وأولاده البقية في أمورهم كافة، ويقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من مغانم وأسلاب.

توفي جنكيزخان عام ٦٢٤ وذهب كل من أبنائه الأربعة إلى ما حصل عليه. ولم تنقد هذه الأسرة لحكم الخان الأعظم «أوغطاي» أي منذ بداية الأمر وبعد وفاة جنكيزخان مباشرة. فلم يكن «باتو بن جوجي» راضياً عن تسلّم عمه «أوغطاي» مركز الخان الأعظم، وفي الوقت نفسه كان باتو مُميزاً بين أبناء عمومته إذ كان على المغول أن يُرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم، وذلك بسبب أن منصب الخان الأعظم كان يجب أن يكون حسب تعاليم المغول من حقّ أبيه «جوجي» وهو من بعد أبيه أيضاً، وكذلك كان لباتو مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلافٍ مع الخان الأعظم ويُنافسه.

وجّه الخان الأعظم «أوغطاي» عام ٦٣٣ جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً ووجهته إلى شرقي أوربا بقيادة باتو بن جوجي ويعمل تحت إمرته أبناء عمومته الثلاثة كيوك بن أوغطاي، ومانغو بن تولوي، وبايدار بن جغطاي، فقضى باتو على دولة الخزر، ودخل بُلغار، ثم احتلّ موسكو، واتجه بعدها إلى «كييف» وكانت آنذاك أكبر مدن الروس فأبادها التتار. وانقسم جيش باتو بعد ذلك إلى قسمين: قسم سار بإمرته إلى بلاد المجر فانتصر على المجر وذبح كامل أفراد جيشها، وسار الثاني بإمرة «بايدار» نحو بولندا، وقد أحرق ما استطاع عليه من المدن.

توفي الخان الأعظم «أوغطاي» عام ٦٤٤، فاستدعى ابن أخيه باتو للرجوع إلى بلاد المغول، وعيّن «كيوك» بن «أوغطاي» خاناً أعظم، وقد توفي عام ٦٤٦، وخلفه ابن عمه «مانغو بن تولوي» بعد اضطرابات حول

الملك في عاصمة المغول «قره قورم»[١] فوجّه أخاه الأول «كوبيلاي» إلى الصين فاتخذ بكين عاصمة له. ووجّه أخاه الآخر «هولاكو» إلى جهة الغرب نحو بغداد. وتوفي «مانغو» عام ٦٥٥، فخلفه أخوه «كوبيلاي» الذي أخضع الصين، وأصبحت عاصمته بكين حاضرة المغول بدلاً من «قره قورم». كل هذا زاد من عدم رضا باتو عن عمومه وأبنائهم وأسّس أسرة خاصةً عُرفت باسم «مغول الشمال» أو «القبيلة الذهبية» وحكمت المنطقة التي كانت من نصيب والده في تركة جده جنكيزخان. واستقرّ التتار الذين مع باتو في تلك المنطقة من شرقي أوربا القليلة السكان، واتخذوا من مدينة «سراي»[٢] على نهر الفولغا قاعدةً لهم على مجرى النهر الأوسط، وقد أكمل بناءها بركة خان عام ٦٥٣ عندما تسلّم أمر الخانية، وهو الخان الثالث لمغول الشمال، وكان قد بُدئ في بنائها عام ٦٤٠.

وتعَد قبيلة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية أول قبائل المغول في اعتناق الإسلام، وقد كان باتو يعطف على المسلمين، ويكره ابن عمه «كيوك» الخان الأعظم الذي تنصّر. وعندما توفي باتو عام ٦٥٠ خلفه ابنه (حرتق) ولكنه لم يلبث أن توفي فشغل منصب الخانية عمه بركة خان[٣] الذي كان قد أسلم منذ حوالي عام ٦٥٠، وعندما تسلّم خانية مغول الشمال أظهر تضامنه مع المسلمين، فراسل السلطان ظاهر بيبرس حاكم الدولة المملوكية في مصر والشام، وتحالف معه ضدّ ابن عمه هولاكو الذي يقود التتار المغول في قتال المسلمين ويتجه نحو بغداد، وقد تمكّن من الانتصار على هولاكو في بعض المعارك التي جرت بينهما. واستمرّت الصلة بين مغول الشمال ودولة المماليك كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في فارس

(١) يقوم مكانها اليوم مدينة أولان باتور عاصمة منغوليا الخارجية.
(٢) تقوم مكانها اليوم مدينة ساراتوف.
(٣) أبو المعالي ناصر الدين بركة خان.

وما حولها من بلاد الجبل والعراق، وإن كان هذا الخلاف يضعف أحياناً عندما يُسلم أحد حكام الدولة الإيلخانية ويتفهم موضوع الإسلام وبالتالي تقلّ الصلة بين مغول الشمال والمماليك إذ لم تعد هناك ضرورة للاتصال الدائم والتفاهم المستمر، وبقي ذلك حتى اكتسح تيمورلنك المنطقة، كما أن دولة مغول الشمال كانت قد ضعُفت.

توفي بركة خان عام ٦٦٥ واستمرّ الصراع مع الدولة المغولية الإيلخانية، وكان يدخل هذا الصراع البيزنطيون أحياناً ويقفون بجانب الدولة الإيلخانية على حين يقف المماليك ومغول الشمال في الصف الآخر، وممن اشتهر بين خانات مغول الشمال محمد أوزبك (٧١٢ - ٧٤٢) الذي زار المنطقة في أيامه ابن بطوطه الرحالة المعروف، وتوقتاميش (٧٦٢ - ٧٩٨) الذي اشتهر في حروبه ضدّ تيمورلنك.

كانت دولة مغول الشمال واسعة تمتدّ من أواسط بولندا في الغرب حتى وسط سيبيريا في الشرق، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتى أذربيجان وجنوب خُوارزم، ويتميز بين سكانها عنصران رئيسيان هما: التتار في شرقي أوربا وغربي سيبيريا والروس في الأجزاء الغربية من الدولة هذا بالإضافة إلى عناصر ثانية من الأتراك في خُوارزم، والأذربيجانيون في أذربيجان، وشعوب بلاد القفقاس وغيرهم، وكل هذه الجهات تتبع مدينة سراي.

بدأ الضعف يدبّ في الدولة بعد عصر القوة الذي زاد على ١٢٠ سنة، فعندما توفي محمودجاني ابن محمد اوزبك عام ٧٥٨ خلفه ابنه محمد بردي بك وكان ظالماً، قتل الكثير من أقربائه ليصفو له الحكم، وليُرهب الناس، وبالغ في فرض الضرائب فكرهه الشعب وتوفي عام ٧٦٢، وخلفه ابنه توقتاميش وكان صغيراً فاستقلّت بعض نواحي دولته إذ قامت خانية خاصته في سيبيريا الغربية قاعدتها مدينة «سيبير»، وقد أسسها الحاج محمدخان. واستقل الحاج شركس في استراخان، كما استقلّ «ماماي» صهر محمدجاني بك في القرم،

كما استقلّت منطقة خُوارزم إذ كان تيمورلنك قد استولى عليها. وهكذا أصبحت الدولة الواحدة خمس دول.

وزاد الضعف إذ جاء تيمورلنك واكتسح المنطقة، واحتلّ مدينة سراي في مطلع القرن التاسع، ولم يُوحّد بين التتار، وإنما زاد في فرقتهم، وعاد فانسحب من المنطقة ليُتابع أعماله العسكرية في جهاتٍ أخرى، وكان لدخول تيمورلنك مدينة (سراي) أثره الكبير إذ بدأ الروس يظهرون على الساحة فقد هاجموا مدينة قازان وخرّبوها، ومن ناحيةٍ ثانية أضعف تيمورلنك قبضة خانات سراي على أطراف دولتهم فاستقلت قازان عام ٨٤١، وأصبحت خانيةً خاصة، وهذا ما شجّع الروس للوقوف في وجه التتار الذين ظهر ضعفهم واضحاً للعيان.

ومن المفيد أن نعلم أن الإمارات التتارية التي انفصلت عن مدينة «سراي» وهي: القرم، واستراخان، وخُوارزم، وسيبيريا الغربية، وقازان لم تكن يداً واحدةً تقف في وجه الروس، وإنما كان بعضها يدعم الروس ضدّ خانيات التتار الأخرى التي ذكرناها، أو يقف أحياناً بجانبهم ضدّ إخوانه المسلمين وأشقائه التتار.

الفصل الرابع

الصراع بين التتار والروس

تحرك الروس ضد التتار منذ أن شعروا بضعف الدولة غير أن (توقتاميش) عندما رجع إلى قاعدة ملكه (سراي)، ودان له التتار بمساعدة تيمورلنك، تمكّن أن يُعيد الروس إلى الطاعة وأن يدخل موسكو عام ٧٨٣.

عاد الخلاف بين توقتاميش وتيمورلنك، ووقع القتال بينهما عام ٧٨٨، واستمرّ حتى عام ٧٩٧ حيث هُزم توقتاميش في الحرب، وفرّ من البلاد، واختفى، ولم يُعلم له مكان، ودخل تيمورلنك مدينة سراي، وعيّن عليها أميراً من قبله، وانسحب من البلاد، ووقعت الحرب بين التتار والليتوانيين، وانتصر التتار.

وعاد الروس الى حركتهم بعد أن رأوا ضعف التتار، وقام القتال بين الطرفين عام ٨١١، ثم اتفق الطرفان على قتال الليتوانيين، وانتصر بعض أمراء التتار لليتوانيين. وأصبح أمراء التتار في خانياتهم المتعددة بعضهم يُحالف الروس وبعضهم يتعاون مع ليتوانيا، كما يُقاتل بعضهم بعضاً الأمر الذي أضعف من قوتهم، وشجّع الروس عليهم.

وظهرت الدولة العثمانية كقوةٍ مُسلمةٍ في الجنوب، وتمكّن محمد الفاتح عام ٨٥٧ من فتح مدينة القسطنطينية، وتغيير اسمها إلى استانبول (دار الإسلام)، وجعلها قاعدة الدولة العثمانية، وبهذا الإجراء انتهى دور

القسطنطينية في قيادة مذهب الأرثوذكس الذي يدين به البيزنطيون ويعتنقه الروس، وانتقلت قاعدته إلى موسكو. فغدت موسكو خليفة القسطنطينية ويجب أن تؤدي الدور الذي كانت تؤدّيه القسطنطينية من قبل، كما على الروس أن يقوموا بالمهمة التي كان يقوم بها البيزنطيون بصفة أن كلاهما حام للمذهب الأرثوذكسي، البيزنطيون من قبل، والروس من بعد، ومن هذا المنطلق فقد أثار المسؤولون الروس الروح الصليبية لدى مواطنيهم، وعدّوا التتار والعثمانيين شيئاً واحداً، فالتتار مسلمون يحكمون الروس، والعثمانيون مسلمون قضوا على النصارى الأرثوذكس المُتمثلين في الدولة البيزنطية، كما أن التتار والعثمانيين يعودون إلى أرومةٍ واحدةٍ هي التترية وإلى عرقٍ واحدٍ هو العرق الأصفر، وهذا ما وحّد الروس فالتفّوا حول أمير موسكو عام ٨٨٦، وعدّوا أنفسهم دولةً منفصلةً عن الدولة المغولية، ولها استقلاليتها وشخصيتها.

وفي الوقت الذي وحّد فيه الروس جهودهم وقواتهم وإماراتهم لم يُبال التتار بهذا كله وإنما بقوا على تفرقتهم وخصوماتهم فيما بينهم بل يستعين بعضهم بالروس ضد بعض، وهذا ما زاد الأمر خطورةً وفداحةً، وكذلك لم يكن شأن العثمانيين بأفضل من ذلك بل كانت هذه المرحلة مرحلة خلافاتٍ داخلية نشأت بعد انحسار موجة المدّ التتاري بقيادة هولاكو، وعندما عادت للعثمانيين الوحدة والقوة أيام السلطان سليم توجّه الاهتمام نحو قتال الفرس الشيعة والخصام مع المماليك حكام الشام ومصر، وإذا كان لهذا ما يُبرره وهو ظهور الصليبيين مُتمثّلين بالبرتغاليين في جنوبي بلاد العرب وشرقي إفريقية وعلى سواحل الخليج العربي، ولم يستطع المماليك أن يُدافعوا عن ديار الإسلام وفي الوقت نفسه لم يسمحوا للعثمانيين بمنازلة الصليبيين مروراً بأرضهم لذا فقد قرّر العثمانيون القضاء على دولة المماليك بعد التخلّص من الصفويين الشيعة الذين كانوا على شبه صلةٍ مع الصليبيين نتيجة الكراهية بينهم وبين العثمانيين والمماليك أو لخلافهم مع المسلمين (أهل السنة). وقد قام العثمانيون بهذا الدور المحمود لهم والمسجّل لصالحهم فقد دوّخوا دولة الصفويين،

وأزالوا دولة المماليك وتسلّموا خلافة المسلمين. وعندما قام سليمان القانوني بالأمر بعد أبيه السلطان سليم تعرّض لحركات ضدّه في بداية الأمر ثم انشغل بأمرٍ آخر هو التقدّم العسكري في أوربا (التقدّم العسكري أقصد أنه لم يكن الهدف من الحرب العثمانية في أوربا والفتوحات التي تمت يومذاك نشر الإسلام ـ على ما يبدو ـ إذ لم يتبع السبيل الصحيح إلى ذلك، وإنما كان الهدف عسكرياً بالدرجة الأولى ولا علاقة بخلافات الدول النصرانية الأوربية بعضها مع بعض) كما اهتمّ في موضوع إعادة الملاحة والحيوية إلى البحر المتوسط بعد أن أصبحت السفن الأوربية تلتفّ حول إفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الشرق مباشرةً، لذا فقد عقد المعاهدات مع بعض الدول الأوربية ذات العلاقة مثل الإمارات الإيطالية، وفرنسا، وانكلترا، ولكن لم يصل إلى نتيجة لأن هذه الدول كانت تحرّكها الصليبية أكثر مما تحرّكها المنافع الاقتصادية إذ كانت تعقد المعاهدات مع السلطان سليمان القانوني ولكنها تتحرّك وراء صليبيتها وتُساعد البرتغال وتنتقل سفنها عن طريق الرجاء الصالح، ومن المنطلق نفسه فقد أعطى السلطان سليمان القانوني صلاحياتٍ واسعةً لقنصليات الدول النصرانية الأوربية وجعل لها حقّ محاكمة رعاياها في داخلها بل لا يحقّ للدولة العثمانية النظر في خصومات رعايا دول أوربا في بلادها ثم تجاوز ذلك أحياناً فوصل إلى رعايا الدولة العثمانية من النصارى الذين نالوا حقاً لم ينله غيرهم من سكان الدولة جميعاً من المسلمين. وإذا كانت هذه أمور جديرة بالاهتمام ودواعيها تقتضي أن يلتفت السلطان إليها ويُعطيها الكثير من وقته غير أن معالجتها جاءت في غير صالح العثمانيين وهي مُسجلة عليهم، ولم يكن السلطان ليشعر بخطرها ما دامت القوة بيده يُحرّكها على الوجهة التي يُريدها، ويُوقفها في مكانها في الوقت الذي يشاء، ولكن عندما فقدت الدولة قوتها غدت تلك القوانين التي عُرف بها السلطان سليمان فسُمّي بالقانوني ذات مفعول للأوربيين، كما أصبحت تلك الامتيازات التي مُنحت للنصارى سواء أكانوا من رعايا الدولة

أم من رعايا الدول النصرانية والمقيمين في أرض الدولة من أكبر الخطر على الدولة والذي يُهدّدها ومن أكبر المشكلات التي تحدث في الدولة وتُسبّب لها أخطر المزالق.

ويبدو أن العثمانيين لم يكونوا ليهتمّوا بالروس إما ازدراءً بقوتهم واحتقاراً وإما لانشغالهم بما هو أكبر من ذلك ـ حسب رأيهم ـ وظهر بعدئذ خطأ السياسة العثمانية فإن الاهتمام الذي أولته للروس والذي لم يكد يذكر في بداية الأمر، قد جعلهم يتقوّون لدرجةٍ كبيرةٍ، وتتّسع دولتهم، ويُنازلون العثمانيين بعد ذاك، ولمّا أحسّت الدولة العثمانية بقوّة الروس فجأةً أرادت أن تتدارك الماضي ولكن الأمر قد فات فعانت من الروس أمرّ المصائب، وتلقّت على أيديهم ضربات كادت تُودي بها، ولولا اختلاف المصالح بين الدول النصرانية لكانت نهاية الدولة العثمانية على أيدي الروس. ولو أنها انتبهت إليهم وأولتهم قليلاً من الاهتمام في بداية الأمر بدعم التتار، والعمل على وحدتهم، والضغط على الروس لبقوا على حجمهم الطبيعي تحت سيطرة التتار، ولكان الوضع غير ما أضحى عليه ـ والله أعلم وهو المُقدّر لكل شيء ـ.

ويظهر أن الروس كانوا أكثر إدراكاً لمُهمّتهم، وأكثر وعياً لما يُحيط بهم، وأكثر تخطيطاً لما هم قادمون عليه، فقد حرصوا على أن يكون ابتلاعهم لإمارةٍ بعد أخرى مع مُحاولة إيقاع الخلاف بين الإمارات التتارية ومُحاولة عدم التفاهم فيما بينها الذي ربما يقع بسبب وحدة العقيدة وقرابة خانات أكثر من إمارةٍ بعضهم مع بعض وقد تصل أحياناً هذه القرابة إلى درجة الأخوة. كما عملوا على الاتجاه نحو الشرق حيث إمارة قازان وعدم التوجه نحو الجنوب حيث إمارة القرم لأن التحرك ناحية الجنوب ربما جعل العثمانيين يُحسّون بالخطر المرتقب الأمر الذي يُلزمهم بالنزول إلى الميدان ومُقارعة الروس بثقلهم كاملاً، وهذا أمر لا يُمكن للروس أن يطيقوه في تلك المرحلة. لذا نُلاحظ

أن الخصومة كانت على أشدّها مع إمارة قازان أو أن اهتمام الروس بإمارة قازان كان كبيراً حيث يبدو للمتتبّع للأحداث أنهم يُريدون ابتلاعها من غير مُواربة. وفي الوقت نفسه فإن التفاهم مع إمارة القرم كان يمتدّ على مدةٍ من الزمن ليست قصيرةً، وعندما يقع الخلاف بسبب اتفاق القرم مع قازان لقرابة بين خاقي الإمارتين أو لحدوث شيء من الوعي الذي لا يُمكن أن نحذفه أبداً يضبط الروس أعصابهم لدرجةٍ كبيرةٍ وإذا وقع القتال الذي لا يُمكن أن يتحاشاه المرء مهما عمل لأنه ليس مُرتبطاً به فقط فإن القرم تكون هي الإمارة المعتدية أو هي البادئة في هجومها على الروس، وذلك لمنع إمكانية تدخُّل العثمانيين، وإبقائهم على تفكيرهم السابق بضعف الروس، وإمكانية قيام التتار وحدهم بالوقوف في وجههم. وربما شعر العثمانيون في بعض الأوقات بخطر الروس غير أن ما هم فيه كان يُشغلهم عن ذلك أو كانوا يعدّون أمر الروس ثانوياً بالنسبة إلى المشكلات التي تُواجههم باستمرار. وعندما كانت رسل التتار ووفودهم تنطلق إلى السلطان سليمان القانوني كان يحرص على إلقاء النصح عليهم ودعوتهم إلى الوحدة والوقوف صفّاً واحداً في وجه الروس.

وعندما ابتلع الروس إمارات قازان، واستراخان، وسيبيريا الغربية، واتّجهوا بعدها نحو إمارة القرم أحسّ العثمانيون بخطورة الموقف ونزلوا عندها إلى الميدان ولكن الأوان قد فات، فالروس قد زادت قوتهم، واتّسعت دولتهم، وكثُرت إمكاناتهم في الوقت الذي ضعُفت فيه الدولة العثمانية، وبدأت تتراجع، وتكالبت عليها أمم الأرض، وعمّت المشكلات الداخلية، لذا فقد كان الصراع بين العثمانيين والروس في غالب الأحيان لصالح الروس، وإن كنّا لا نعدم رؤية أيام تتجلّى فيها الروح المعنوية العالية لدى العثمانيين فيحرزون النصر ويُحقّقون التقدّم، ويبرز بينهم قادة وأبطال يصلون إلى مصاف أعلى القادة.

الباب الثاني

الاستعمار الروسي

الفصل الأول

استعمار بلاد التتار

أثار الروس الروح الصليبية بين مواطنيهم، فادّعوا أن المسلمين، وهم التتار قد احتلّوا أراضيهم في شرقي أوربا، ثم إن العثمانيين قد قضوا على الدولة البيزنطية حامية المذهب الأرثوذكسي والنصرانية، ودخلوا القسطنطينية قاعدة ذلك المذهب وجعلوها مدينةً إسلاميةً وحاضرة الدولة العثمانية المسلمة، وبذلك فقد دنّسوا عقيدة الروس، والروس خلفاء البيزنطيين وورثتهم الشرعيين، فعليهم مهمة كبيرة وشاقّة هي قتال المسلمين، ولنبدأ حسب إمكاناتنا الحالية بالتتار ويجب ألا نعتمد على أحدٍ وإنما علينا أن نستغلّ الظروف ونهتبل الفرص. وفي الوقت نفسه فقد أعلنوا للملأ أن أراضيهم التي يُقيمون عليها قد غصّت بهم، وازدحمت بأهلها على حين أن المناطق الشرقية تكاد تكون فارغةً فعليهم أن يتوجهوا إليها يُحيونها ويُعمرونها فإنه أفضل من بقائها مُهملةً لا خير منها يُجبى، ولا إنتاج يُؤخذ.

وتوجّه الروس باهتمامهم نحو الشرق، وركّزوا جهودهم نحو إمارة قازان.

١ - **إمارة قازان:** كانت قازان مقرّ البُلغار، وخضعت للتتار، تعدّ على أطراف بلاد المسلمين بعد إسلام التتار، وقد هدّمها الروس عام ٨٠٢ هـ، ثم عادت إلى الظهور ثانيةً عندما اختلف محمد أولوغ مع أخيه ففرّ إليها، وطلب من البلغار، والجوفاش، والتتار المقيمين حولها السكن فيها فأطاعوه،

وبدأت الحياة تدبّ فيها من جديد ، فأسس فيها إمارة عام ٨٤٢ لم تلبث أن قويت .

هاجم محمد أولوغ موسكو لأن أهلها قد رفضوا حمايته ، وطلبوا منه مغادرة بلدهم عندما التجأ إليهم فاراً من أخيه ، وانتصر عليهم ، واكتفى بجمع الغنائم ، ثم كرّر الهجوم ، وانتصر ، وعاود الغزو عام ٨٥٠ فأسر بطريق موسكو ، ثم أطلق سراحه .

اختلف محمد أولوغ مع ابنه محمود ، وقُتل الأب ، وسيطر الولد ، ففرّ إخوته إلى موسكو خوفاً من أخيهم ، واستمرّ محمود في خلاف مع موسكو حتى عام ٨٧٢ حيث خلفه ابنه إبراهيم الذي تعرّض لهجمات عمه قاسم من موسكو ويجندٍ من الروس .

وتوفي إبراهيم خان عام ٨٨٣ وخلفه ابنه إلهام خان غير أن الابن الثاني وهو محمد أمين قد فرّ إلى موسكو مغاضباً لأخيه ومُنازعاً له ، ودعمه الروس بجيشٍ كثيف تمكّن به من احتلال قازان واستلام خانيتها ، وأسر أخيه إلهام خان وحمله إلى موسكو ليُسجن هناك ، وبقي في مُعتقله حتى تُوفي .

وكره أهل قازان محمد أمين وطلبوا أحد أبناء التتار ليولّوه عليهم ، ولكنهم فشلوا في خطتهم إذ دعم الروس محمد أمين بجيش انتصر به على خصومه عام ٩٠٢ ، ولكن جاء بعد مدة ماموق خان ودخل قازان وفرّ محمد أمين مع أهله إلى موسكو .

كره أهل قازان ماموق خان فكتبوا إلى الأمير الروسي ايفان الثالث يُعلمونه برغبتهم وهي عدم رضاهم عن محمد أمين وعن ماموق خان وإنما يرغبون في تولية عبد اللطيف أخي محمد أمين خاناً عليهم ، وقد نصّبوه عليهم فعلاً وسار ماموق خان إلى بلاد النوغاي .

ورجع محمد أمين خاناً على قازان عام ٩٠٨ بعد أن انتصر على أخيه

عبد اللطيف الذي حُمل أسيراً إلى موسكو ، ووقع الخلاف بين قازان وموسكو واستمرّ حتى عام ٩٢٥ حيث تُوفي محمد أمين ، كما تُوفي قبله أخوه عبد اللطيف ، ولم يكن لهما عقبٌ فعيّن الروس أحد أمراء التتار خاناً على قازان وهو شيخ علي ، ولكن لم يحبه أهل قازان فاتفقوا مع خان القرم على إرسال أخيه صاحب كراي ليكون خاناً عليهم ، فسار إليهم والتجأ شيخ علي إلى موسكو ، وصفا الجو بين القرم وقازان . فأرسل الروس جيشاً بقيادة شيخ علي عام ٩٣٠ و ٩٣١ فارتكب أبشع الجرائم في المرتين .

عرض صاحب كراي على السلطان العثماني سليمان القانوني أن تتبع قازان الدولة العثمانية فرفض الروس ذلك ، وسيّروا جيشاً إلى قازان بإمرة شيخ علي ، ولم يحدث قتال ، ولكن فرّ صاحب كراي من المدينة بحجة الذهاب إلى السلطان ، وخلّف ابن أخيه صفا كراي نائباً عنه .

أنهكت الحرب أهل قازان فسار بعض الأمراء إلى موسكو وعرضوا الصلح وطلبوا تعيين خان من قبل موسكو عليهم فعيّنت عام ٩٣٩ جان علي في الوقت الذي سار فيه صفا كراي إلى القرم ، وبقي العداء بين القرم وموسكو وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠ .

قتل أمراء قازان جان علي عام ٩٤٢ بعد خلعه من الخانية ، ورجع صفا كراي إلى قازان وهاجم بلاد الروس عام ٩٤٣ ، ثم وقع صلح بين الطرفين ، وتجدّد القتال عام ٩٤٦ ، وهاجم الروس مدينة قازان عام ٩٥٣ ، وفرّ صفا كراي منها وتسلم أمر الخانية شيخ علي ولم تمضِ سوى مدة وجيزةٍ حتى غادرها ورجع صفا كراي الذي تُوفي عام ٩٥٦ ، وبقيت قازان دون خان ، فاستغلّ الفرصة أمير موسكو وهاجمها بجيشٍ كثيفٍ ومعه شيخ علي وذلك عام ٩٥٧ ولكن لم يتمكّن من احتلال المدينة ، ونصّب الروس عليها شيخ علي للمرة الثالثة .

رفض أمراء قازان خانية شيخ علي فخرج من مدينتهم عام ٩٥٨ ، وجاء محمد خان مع خمسمائة فارس من النوغاي إلى قازان وأصبح خاناً عليها ، وسار الروس مع شيخ علي إلى قازان واحتلّوها بعد قتالٍ مريرٍ ، ودخلوها يوم ٢٤ شوال عام ٩٥٩ ، فأزالوا هذه الإمارة التي بقيت مدة مائة وثماني عشرة سنة (٨٤١ ـ ٩٥٩). ثم اتجهوا إلى المناطق المحيطة بها ، والتي تقوم فيها بعض الإمارات ، وحاول العثمانيون توحيد صفوف التتار للوقوف في وجه الروس فأطاعهم خان القرم ، وخان استرخان ، وأمير النوغاي ، غير أن سقوط قازان أطاح بالاتفاق ونشأت أحداث جديدة بدّلت كل شيء.

٢ ـ الباشغرد: بعد أن سقطت قازان أعلن بعض الباشغرد في (أوفا) الطاعة للروس على خوفٍ منهم ، فأقبل الروس ودخلوا بلاد الباشغرد ، وضمّوها إليهم.

٣ ـ بلاد النوغاي: بعد أن سقطت قازان قام المرزا إسماعيل في بلاد النوغاي على أخيه الأمير المرزا يوسف وقتله ، وتسلّم الإمرة مكانه ، وراسل أمير الروس ايفان الرهيب ، وأعلن الخضوع له ، وساعده في دخول استراخان.

٤ ـ استراخان: كان يحكم استراخان منذ عام ٩٤٨ الخان (آق بـاك) ، وأحس بخطر الروس ، فوافق على تفاهم التتار بعضهم مع بعض ، ولكن لم يقو على مواجهة الروس عندما تقدّموا إلى بلاده بعد أن احتلّوا قازان وخاصة أن المرزا إسماعيل أمير بلاد النوغاي الجديد قد قدم مع الروس فاستسلمت استراخان ودانت للروس عام ٩٦١ م.

٥ ـ سيبيريا الغربية: أعطى باتو بن جوجي بن جنكيزخان أخاه شوبان شرق جبال الأورال ، وذلك حوالي عام ٦٤٠ ، فأسّس شوبان قلعةً ومدينةً على نهر صغير يُسمّى سيبيركا ، وحكم المنطقة ، وبقيت أسرته من بعده يتوالى أفرادها في إمرة المنطقة ، وتُعرف بالأسرة « الشيبانية » ، وتتبع في أمورها مدينة

سراي قاعدة حكم مغول الشمال. وبعد مُدّةٍ أسلم أبناء هذه الأسرة كبقية أفراد القبيلة الذهبية ، وتمكّن الحاج محمد خان أحد حكّام هذه الإمارة أن يمتلك نواحي نهر أوبي وروافده أرتيش وأقام خانيةً خاصة انفصلت عن مدينة سراي في الوقت الذي بدأت تنفصل عنها الخانيات الأخرى مثل قازان، واستراخان.

وتوالى خانات هذه المنطقة حتى أيام كوتشم خان حيث رفض الاتفاق الذي يقضي بأن تكون سيبيريا خاضعةً للروس ، وبدأ حوالي عام ٩٧٧ يُقوّي أمر دولته ، وصاهر النوغاي ، وغدا يُغير على مواقع الروس القائمة على نهر (كاما) ، وشجّع قبائل القوزاق في جنوبي أوكرانيا بعصيان الروس ، وكان هجومه على الروس قوياً عام ٩٨١ .

شجّع الروس أحد أشقياء القوزاق الذين يُقيمون على ضفاف نهر الدون والذي يلتفّ حوله عدد من قطاع الطرق، ويُدعى « يرمق » ، وأمدّوه بقوةٍ من الروس ، وأغروه بكوتشم خان ، فسار نحو التتار الذين يعيشون في مدينة (سرايجق) التي أسسوها عام ٩٠٧ على نهر أورال بعد أن فرّوا من مدينة سراي يوم خرابها في ذلك العام ، فسار « يرمق » عام ٨٩٥ نحو « سرايجق » فانتصر على التتار ، وهدّم مدينتهم ، واتجه بعدها نحو مدينة (سيبير) ، ودخلها عام ٩٨٩ ، وفي عام ١٠٠٣ باعها إلى الروس ، أما خانها فقد فرّ إلى بلاد الباشغرد ، واختفى فيها ، وبقي حتى تُوفي.

وقام علي بن كوتشم خان في مدينة سيبير ثانيةً ، وبايعه أهلها خاناً عليهم ، ولكنه عجز من إنقاذ بلاده ، وتبعه أخوه ايشم خان عام ١٠١٧ ، وفشل أيضاً ، كما فشل ابنه كراي خان في حركته عام ١٠٧٨ هـ. وهكذا تبع التتار في سيبيريا الغربية إلى الروس.

غدت بلاد التتار كلها تحت استعمار الروس باستثناء بلاد القرم التي أجلّها



الروس خوفاً من الصدام مع العثمانيين ، وريثما يقوى أمرهم وليتمكّنوا بعدها من منازلة القرميين والذين يُحاولون أن يقفوا وراءهم.

وأعلن الروس أن كل الجهات التي تقع إلى الشرق من (سيبير) حتى مياه المحيط الهادي تتبعها ، وبهذا فقد أصبحت في حوزتهم وتحت تصرّفهم، وأطلقوا عليها اسم (سيبيريا) نسبةً إلى (سيبير) عاصمة التتار في شرق الأورال.

الفصل الثاني

استعمار القرم والصدام مع العثمانيين

كانت القرم قد استقلّت عن سراي منذ عام ٨٣٩، وحكمها حاجي كراي حتى عام ٨٧١ فخلفه ابنه منكلي كراي فاختلف مع أخيه حيدر فانتصر الثاني، وفرّ منكلي كراي إلى مدينة (أكفا) حيث التجأ إلى الجنويّين الذين كانت (أكفا) إحدى مراكزهم. وعندما انتصر السلطان محمد الفاتح العثماني على الجنويّين ودخل مدينة (أكفا)، حمل معه منكلي كراي إلى استانبول أسيراً، ثم أعاده خاناً على القرم.

قام أحمد خان حاكم سراي بهجوم على القرم وانتصر على منكلي كراي، واحتلّ القرم عام ٨٩٢، فعيّن جاني بك خاناً على القرم، بينما اختفى منكلي كراي قرب مدينة (باغجه سراي)، وبعد مدةٍ خرج من مخبئه وانتصر على جاني بك الذي فرّ إلى روسيا.

تحالف أحمد خان مع الليتوانيين ضدّ تحالف منكلي كراي مع الروس، ووقعت الحرب، وانتصر منكلي كراي على مرتضى خان خليفة أحمد خان، وأخذه أسيراً عام ٨٩٠، وفي العام التالي هاجم أهل سراي القرم فجأة وأحرزوا النصر، وتمكّنوا من فكّ أسر خانهم أحمد خان، كما حملوا عدداً من القرم أسرى. وهاجم في السنة التالية منكلي كراي مدينة سراي بمساعدة الروس، وانتصر وفكّ أسرى القرم.

وهاجم منكلي كراي ليتوانيا بتحريضٍ من الروس وكاد يقضي عليها لولا تدخّل حاكم سراي. وبناءً على ذلك فقد هاجم منكلي كراي عام ٩٠٧ مدينة سراي وهدّمها. واستمرت العلاقة طيبةً بين القرم والروس حتى عام ٩١٨ عندما هاجم ولدا منكلي كراي بلاد الروس بالتفاهم مع الليتوانيين.

توفي منكلي كراي عام ٩١٩ وخلفه ابنه محمد كراي الذي أرسل أخاه صاحب كراي إلى قازان ونصّبه خاناً عليها، كما استولى على استراخان، وهكذا توحّد التتار تقريباً فخاف الروس من ذلك، وهاجموا قازان فاضطرّ خانها صاحب كراي أن يُغادرها بعد أن خلّف عليها ابن أخيه صفا كراي لكن لم يلبث أن غادر قازان بعد أن تصالح أهلها مع الروس عام ٩٣٩، غير أن أوضاع قازان كانت تتغيّر باستمرار، وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وعاد صفا كراي مرتين إلى قازان حتى توفي عام ٩٥٦.

تولى حكم القرم سعادة كراي بعد أبيه محمد كراي واستمرّت مدة خانيته (٩٣٠-٩٥٢) وخلفه عمه صاحب كراي حتى ٩٥٨ عندما جاء ابن أخيه دولت كراي من استانبول وقتله وتسلّم الخانية مكانه.

في هذا الوقت بدأ الروس يُسيطرون على بلاد التتار إمارةً بعد أخرى، ولم يتركوا إلا خانية القرم خوفاً من الصدام مع العثمانيين الذين يحسّون أن إمارة القرم تجاورهم، وما انتهى الروس من بلاد التتار إلا واتّجهوا نحو القرم، ويومها شعر العثمانيون بخطورة الموقف غير أن هذا الشعور قد جاء متأخراً، فالدولة العثمانية قد ضعف أمرها ولم يعد بإمكانها القتال على عدة جبهات في آنٍ واحدٍ، والروس قد اشتدّ ساعدهم ولم يعد بالإمكان مقاومتهم بسهولةٍ، والتتار الذين يمكن الإفادة منهم قد خضعوا للروس، وفي الوقت نفسه فقدت القرم أعوانها من التتار الذين يمكن أن ينصروها إذا حَزَبَ الأمر.

وحدث أمر خطير يجب الانتباه إليه وهو أن الشاه الصفوي طهماسب قد كاتب الأمير الروسي إيفان الرهيب عام ٩٧٨ وعرض عليه الاتفاق معه لمحاربة الخلافة العثمانية ففتحت هذه المراسلة أعيُن حكّام الروس إلى المنطقة التي بينهم وبين الدولة الصفوية، وهي بلاد القفقاس، فرأوا أن تكون تحت حوزتهم، وأنها ستكون ساحة الصدام بينهم وبين العثمانيين هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ شعر الأمير الروسي أن هناك خلافاً مُستحكماً بين الصفويين الشيعة وبين العثمانيين المسلمين (السنة) فيجب الإفادة منه على نطاقٍ واسعٍ، ومن هذه الإفادة يجب السيطرة على منطقة القفقاس، وهذه السيطرة هي التي ستُمكّن من الانتصار على العثمانيين، ودون ذلك لا يُمكنه إحراز النصر، لأنها هي المنطقة البرية التي سيحدث على أرضها الصراع، وهي المنطقة المنيعة، وسكانها أهل قوةٍ يُرجّحون كفّة الذين يكونون بجانبه، فمن ضمّهم إليه تمكن من تحقيق الهزيمة لخصمه. أمّا إذا التقى العثمانيون بالروس بحراً على مياه البحر الأسود فسيكون النصر بجانب العثمانيين - والله أعلم - لأن الروس لا يملكون بعد قوةً بحريةً تُعادل وتُكافىء قوة العثمانيين الذين مضى عليهم مدةً طويلةً يخوضون معارك بحرية، لذا يجب أن يكون القتال برياً في بداية الأمر، ولكن لا يصحّ الانسياح في أرض القفقاس قبل الانتهاء مما بقي للتتار من إمارات، وهي خانية القرم. ومن المعلوم أن الروس لم ينتصروا بقوّتهم وشجاعتهم وإنما انتصروا بضعفنا وتفرقنا وإغفالنا لديننا الذي يدعو إلى الوحدة ويرفع معنوياتنا عالياً، ويحثّ على الجهاد.

لمّا أحسّ العثمانيون بمخطط الروس حاولوا أن يتداركوا شيئاً من الخطأ الذي وقعوا فيه، أو يتلافوا ما حدث من تقصيرٍ وإن كان الأمر قد فات، فبدأوا يعملون بتخطيطٍ في هذه الجبهة أكثر من غيرها، فتأخر تنفيذ المخطط الروسي بعض الوقت، وأطال من عمر إمارة القرم بعض الزمن، وأبعد سقوط بلاد القفقاس بيد الروس مدةً وجيزةً.

دعم العثمانيون التتار، ووضعوا بولونيا تحت حمايتهم عام ٩٨٣، واعترفت

لهما بذلك، وأغار التتار على بولونيا عام ٩٨٤، فاستنجدت بالخليفة العثماني مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٣) فأعلن حمايتها بمعاهدةٍ رسميةٍ.

وتوفي الشاه الصفوي طهماسب عام ٩٨٤، وخلفه ابنه حيدر فقُتل بعد عدة ساعاتٍ، ودُفن مع أبيه، وتولّى أخوه محمد خدابنده، واختلف الناس عليه، فاستغلّ العثمانيون هذه الفرصة، وأرسلوا جيشاً احتلّ بلاد الكرج، ودخل عاصمتها تفليس عام ٩٨٥، وفي العام التالي وبعد انقضاء فصل الشتاء، دخل العثمانيون شروان (أذربيجان الشمالية)، وفي عام ٩٩١ استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا على بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد بجنده إلى بلاد القرم عبر جبال القفقاس لتأديب خان القرم محمد كراي الثاني الذي رفض إرسال مددٍ للعثمانيين لمحاربة الصفويين، ولكنه أنهكه التعب وغارات الروس غير أنه قد وصل إلى القرم ودخل بمساعدة إسلام كراي أخي خان القرم الذي قتل أخاه، وانضمّ إلى العثمانيين عام ٩٩٢، وأصبح بعدها خانات القرم ولاةً عثمانيين.

وجد الروس أن العثمانيين قد انتبهوا إلى أمرهم، وأن أملهم بالتوسّع قد ضعُف إذ أن العثمانيين قد عدّوا إمارة القرم جزءاً من بلادهم، وان بولونيا قد أصبحت محميةً لهم، ومكّنوا لأنفسهم في بلاد القفقاس، وأكبر من هذا أن التتار يتحرّكون بأمرهم ويُغيرون على الروس، وعندما قام القوزاق باحتلال مدينة آزاق (آزوف) التي تعدّ من بلاد القرم أرسل لهم الخليفة العثماني إبراهيم الأول (١٠٤٩ - ١٠٥٨) جيشاً استردّها عام ١٠٥٢ هـ. وأمام هذه الأحداث، وانتعاش الدولة العثمانية نسبياً أخّر الروس ما كانوا يفكرون القيام به من ضمّ القرم، ومحاولة السيطرة على بلاد القفقاس، ولم تحدث بين العثمانيين والروس حروب عنيفة في هذه الآونة، ولكن وقعت بعض المعارك القليلة الأهمية كما حدث عام ١٠٨٨ عندما استنجد القوزاق بالروس ضد العثمانيين فوقع قتال استمرّ حتى عام ١٠٩٢. وكان الروس ينتظرون زيادة ضعف الدولة العثمانية، وزيادة حروب الدول الأخرى لها كي يبدأوا بالهجوم.

شعر الروس أن الدولة العثمانية قد ضعفت، وأنه يمكن العودة إلى طريق الهجوم واقتطاع جزء بعد آخر منها، وتسلّم السلطة بطرس الأكبر (١١٠١ - ١١٣٨) وهو صاحب أطماعٍ واسعة، وصليبيةٍ واضحةٍ، وتهوّرٍ كبيرٍ، وكان ذلك إيذاناً ببدء العداء السافر، والحروب التي لا تكاد تنقطع بين الطرفين.

سار بطرس الأكبر قيصر روسيا نحو مدينة آزاق (آزوف) وضرب عليها الحصار، ولكنه أُجبر على فكه عام ١١٠٧ أمام هجمات الخليفة مصطفى الثاني (١١٠٦ - ١١١٥) الذي يقود العثمانيين بنفسه. غير أنّ الروس قد عادوا في العام التالي ١١٠٨ ودخلوا مدينة آزوف إذ استغلّ قيصرهم اشتباك العثمانيين مع النمسا والبندقية في معارك عنيفةٍ. وأعلن بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم أيام الخليفة أحمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٩) الحرب على روسيا، وحاصر قيصر روسيا بطرس وخليلته كاترين الأولى، ونجا الجيش الروسي من الإبادة، والقيصر وعشيقته من الأسر بإغراء كاترين الأولى للصدر الأعظم بلطجي محمد باشا غير أن الروس قد تنازلوا عن ميناء آزوف، وتعهّدوا بعدم التدخّل بشؤون القوزاق، وبعد عزل الصدر الأعظم الخائن، عقدت معاهدة مع الروس لمدة خمس وعشرين سنةً، غير أن الروس لم يلتزموا بالعهود، وتجدّد القتال، ولكن تدخّلت الدول، وعقدت معاهدة أدرنة من جديد عام ١١٢٥، تنازلت فيها روسيا عن كل ما سبق أن احتلته على سواحل البحر الأسود، وكما تخلّت عن كل ما كانت تدفعه لخانات القرم من جزيةٍ، وهذه أوّل مرّةٍ ينتهي أثر حكم التتار للروس نهائياً.

وضعُفت الدولة الصفوية فرأى قيصر روسيا أن يُعدّل خطّه حيث يجب أن يكون العمل في بلاد القفقاس والقرم معاً. وعندما احتلّ العثمانيون أرمينيا وبلاد الكرج احتلّ الروس بلاد الداغستان وأصبح الطرفان وجهاً لوجه، وكاد الاشتباك يحدث لولا تدخّل فرنسا بطلبٍ من روسيا التي خشيت من مغبّة الصدام.

احتلّت روسيا بولونيا وأصبحت على جبهةٍ ثانيةٍ مع العثمانيين من جهة الغرب، كما احتلّت آزوف، ولكنها تعهّدت في معاهدة بلغراد عام ١١٥٢ بعدم بناء سفن في البحر الأسود، وهدم ما بنته من قلاعٍ في مدينة آزوف. وأخطأ العثمانيون بتسليم حكم الأفلاق والبغدان (رومانيا) إلى نصارى من الروم الأرثوذكس، فعملوا ضمن مخطّطٍ رهيبٍ إذ بدأوا بالإساءة إلى السكان ومحاولة إذلالهم واستعبادهم فكَرِهَ السكان العثمانيين نتيجة ذلك وبدأوا يميلون إلى الروس.

حرّضت الدولة العثمانية خان القرم (كريم خان) عام ١١٨٢ فقام بغارةٍ على الروس فخرّب بعض القُرى، وحمل عدداً من الأسرى، وفشل العثمانيون في حروبهم مع الروس الذين احتلّوا اقليمي الأفلاق والبغدان (رومانيا) عام ١١٨٣. وبدأ الروس يُحرّضون النصارى الأرثوذكس الذين يعيشون في أراضي الدولة العثمانية للقيام بحركاتٍ ضدّ دولتهم، فقاموا بحركةٍ في جزيرة القرم.

بدأ مخطط الروس الهجومي، إذ هاجموا الميناء العثماني على البحر الأسود (طرابزون) واقتحموا القرم، ودخلوها عام ١١٨٥، وفصلوها عن الدولة العثمانية وجعلوها تحت الحماية الروسية، وعيّنوا عليها (جاهين كراي) خاناً لها من قبل الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١). وحرّضوا الثوّار على الدولة العثمانية مثل علي بك والي مصر وغيره، وكانوا يطلبون من أجل عقد معاهدةٍ للصلح: استقلال القرم، وحرّية ملاحة الروس في البحر الأسود، وحماية روسيا للنصارى الأرثوذكس في الدولة العثمانية، فلم يحدث الاتفاق. ثم انتصر العثمانيون نصراً جانبياً. وثأر الروس بحصار الصدر الأعظم وجيشه في بلغاريا فاضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قينارجة عام ١١٨٧ اعترفت فيها بـ:

١ - استقلال القرم، وإقليم قوبان (شمال غربي بلاد القفقاس)،

وبسارابيا (جزء من رومانيا على ساحل البحر الأسود).

٢ ـ حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود.

٣ ـ حماية الروس للنصارى الأرثوذكس في الدولة العثمانية.

٤ ـ دفع غرامةٍ حربيةٍ قدرها خمسة عشر ألف كيس تُدفع على أقساط على مدة ثلاث سنواتٍ.

وأصبح على الروس أن يشنّوا الحرب إثر الحرب على العثمانيين ليقتطعوا بعد كل حربٍ جزءاً من أراضي الدولة العثمانية، وقد بدأوا بإشعال الفتن داخل بلاد القرم فثار السكان على الخان (دولت كراي) وعزلوه ونصبوا مكانه (جاهين كراي) المُؤيَّد من قبل روسيا، وانقسم الناس فريقين، وكادت تشتعل نار الفتنة الأهلية فأسرع الروس واحتلّوا القرم وقامت الإمبراطورة كاترين الثانية بزيارة ذلك الإقليم بعد استعداداتٍ واسعةٍ لتلك الزيارة. وكانت روسيا تُريد الحرب من جديدٍ لتحصل على أراضٍ من جديد. وعلمت الدولة العثمانية تلك الرغبة فأرادت أن تبدأ هي بالقتال قبل استعداد الروس. وطلبت من حكومة القيصرة:

١ ـ تسليم حاكم الأفلاق والبغدان الذي أعلن العصيان، وفرّ إلى روسيا.

٢ ـ التنازل عن حماية الكرج لأنها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣ ـ عزل القناصل الذين يُثيرون السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانئ البحر الأسود.

٤ ـ أن يكون للدولة العثمانية الحق في تفتيش المراكب التجارية الروسية خوفاً من نقل الأسلحة.

رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠، وخاف القائد الروسي من القتال فطلب من القيصرة الأمر

بالانسحاب من بلاد القرم فرفضت وأمرته بالتقدم، فامتثل، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية تضامناً مع الروس بدافع صليبي، وهُزم العثمانيون. وانسحبت النمسا من الحرب وتابعت روسيا القتال، وارتكبت أبشع الجرائم لإلقاء الذعر بين السكان الآمنين، وتدخلت الدول وتمّ الصلح، وعُقدت معاهدة «ياسي» عام ١٢٠٦ أخذت روسيا بموجبها القرم، وجزءاً من بلاد الشراكسة، وبسارابيا، ومناطق أخرى، وهكذا انتهى أمر التتار، وزالت خانية القرم، وضمّتها روسيا إليها مُبتلعةً لها ومستعمرةً، وكان الصدام بين العثمانيين والروس، وسيستمر مرحلة طويلة.

الفصل الثالث

استعمار بلاد القفقاس

بلاد القفقاس هي البلاد الواقعة بين بحر الخزر في الشرق والبحر الأسود في الغرب، وبين نهر (ترك) ونهر (قوبان) في الشمال، ونهري (كورا) و (ريفون) في الجنوب، وتشكل جبال القوقاز العمود الفقري وتتجه من الجنوب الشرقي عند مدينة (باكو) أو شبه جزيرة (أبشيرون) إلى الشمال الغربي عند مضيق (كرش) بين بحري الأسود وآزوف، وتمتدّ هذه الجبال على طول ١٢٠٠ كم. وتكون صعبة الاجتياز، قليلة الممرات، كثيرة الارتفاع إذ يصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٠ في قمة (البروز)، وتُغطّي الثلوج الدائمة مواقع منها مثل ثلاجة (ماروخ). وتُعرف الأجزاء التي في شمالها باسم (دشت القفجاق) أي صحراء القفقاس، أما الأجزاء التي تقع في جنوبها بينها وبين أذربيجان وأرمينيا فتُعرف باسم ما وراء القوقاز. واسم (قبج) و (قفج) و (قبجاق) و (قفجاق) و (قفقاس) و (قوقاز) تدلّ كلها على مُسمّىً واحدٍ.

تبلغ مساحة المنطقة ما يقرب من نصف مليون كيلومتر مربع، وإن كانت صحراء القفقاس الشمالية تشغل أكثر من ثلث هذه المساحة، وهي مرتبطة سياسياً الآن بالأجزاء الشمالية من المنطقة والتي لا تُعدّ من بلاد القفقاس، أما التقسيمات الإدارية فيها فلا تزيد مساحتها على ٣٢٤,٢٠٠ كيلو متر مربع، وتُشكّل الأجزاء الواقعة إلى شمال خط ذرا جبال القوقاز ما يقرب من ثلث

هذه المساحة (١١١,٨٠٠ كم٢) بينما تشغل الأجزاء الجنوبية ما يقرب من الثلثين (٢١٢,٤٠٠ كم٢)، الأجزاء الشمالية يدين معظم أهلها بالإسلام، أما الأجزاء الجنوبية فالأقسام الشرقية منها (أذربيجان) والأقسام الغربية (آجاريا وأبخازيا) مسلمة، أما الجهات الوسطى فأكثرية سكانها من النصارى (الكرج والأرمن). يُعدّ الإسلام في الأجزاء الشمالية منها حديث العهد إذ انتشر أيام العثمانيين باستثناء المناطق الشرقية (داغستان) التي عمّها الإسلام منذ أيام الراشدين. وأما الأجزاء الجنوبية فالمناطق الشرقية منها (أذربيجان) انتشر فيها الإسلام منذ أيام الراشدين، وكذا حالة المسلمين الذين يعيشون بين النصارى في المناطق الوسطى على حين أن الجهات الغربية تعدّ تابعةً للأجزاء الشمالية انتشر فيها الإسلام أيام العثمانيين.

إن طبيعة البلاد الجبلية قد جعلتها موطناً لكثيرٍ من الشعوب المختلفة، إذ أقام بعضها بقصد الغلبة على المنطقة وما حولها، واستقرّت فيها جماعات رغبةً في التجارة لأنها إحدى الطرق الرئيسية بين الشمال والجنوب، وممراتها مُحدّدة تضطر القوافل إلى أن تسلكها، والتجأت إليها أقوام فراراً من جيرانها وتحصّنت في مواقعها المنيعة، وكثيراً ما كانت شعوبها تمتنع عن غيرها من الدول القوية التي تقوم بالقرب منها، أما في أرضها فلم تنشأ حكومات كبيرة لطبيعة أرضها المُجزّأة وشعوبها المُفرّقة. وهذا ما أطمع فيها، فقد غزاها الآشوريون، والكلدان، والمصريون القدماء، وخضعت لبيزنطة فانتشرت النصرانية في جنوبها. وأكثر مناطقها تعرّضاً للغزو ما كان في الجنوب لأن أكثر المناطق المعمورة يومذاك كانت في الجنوب والجنوب الغربي، وفيها قامت الدول القوية والإمبراطوريات، فقد امتلكت الصين أقسامها الجنوبية، وهي نفسها كانت موضع النزاع بين الفرس والرومان.

ولما كانت مناطقها منعزلةً بعضها عن بعض بسبب الجبال المنفصلة بعضها عن بعض بالأودية لذا فقد كثرت شعوبها وتعدّدت قبائلها إذ استقلّت كل

جماعة في بقعةٍ جبليةٍ، وانعزلت عن غيرها، ولهذا فقد احتفظت كل مجموعةٍ بلغتها وعاداتها وبقيت محافظةً عليها ولا تزال إلى الآن، وتعود هذه الجماعات إلى أصولٍ مختلفةٍ وترجع اللغات إلى أروماتٍ متباينة.

أضحت الأجزاء الجنوبية والشرقية جزءاً من ديار الإسلام منذ عهد الفتوحات الأولى، إذ فتح سراقة بن عمرو أذربيجان، واتجه نحو الشمال، وكان على مقدمة جيشه عبد الرحمن بن ربيعة الذي سار نحو باب الأبواب، أما على ميسرته فقد كان حبيب بن مسلمة فدخل بلاد الكرج وأرمينيا حوالي عام ٢٢ هـ، في أواخر أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأوائل أيام الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وإذا كانت الأجزاء الشرقية قد تمكّن فيها الإسلام ودخلته قبائل منها، مثل القوموق، وداغستان إلا أن المناطق الجنوبية قد كان انتشاره فيها بطيئاً، لتمكّن النصرانية، وطبيعة البلاد الجبلية إذ اعتصم عدد من السكان في مواقع منيعة، ولأن الروم كان يُحرّضونهم باستمرارٍ ضدّ المسلمين، ويدعونهم إلى المقاومة، ويمدّونهم بكل مُتطلباتها من سلاحٍ وغذاءٍ، ومُقاتلين أحياناً، وفي الوقت نفسه يجب ألّا ننسى ما كانت تُعاني الدولة الإسلامية يومذاك من خلافاتٍ وفتنٍ أقضّت مضاجع أبنائها، وحدّت من انتشار عقيدتها، فكان سكان جنوب بلاد القفقاس (الكرج والأرمن) كلما أُشعِرت نار الخلافات في الدولة الإسلامية خلعوا الطاعة، وأعلنوا العصيان، وأظهروا التبعية للروم، وكلّما هدأت حدّة الخلافات اتجه المسلمون نحو الفتح، وبدت قوتهم خنع سكان جنوبي القفقاس وأبدوا الطاعة، وطلبوا العفو - ومع الأسف - كثيراً ما عاد هذا العفو على المسلمين بالضرر والوبال! تغلب عليهم الرحمة ويُصدّقون خصمهم ويعطون الأمان، ثم يتكرّر العصيان وطلب العفو وهذا كله جعل انتشار الإسلام في المناطق الجنوبية قليلاً. أما الأجزاء الشمالية فقد بقيت بعيدةً عن أيدي الفاتحين مدةً طويلةً من الزمن لتوقف الفتوحات وضعف الدولة الإسلامية وانقسامها، ولذا بقي السكان على وثنيتهم.

حكم بنو ساج الأجزاء الجنوبية الشرقية منذ عام ٢٧٧ بعد أن انقسمت الدولة الإسلامية وذهب ريحها. ثم تقدّم البيزنطيون إليها عام ٣٢٩. وبعدها أعلن الكرج الانفصال ودخلوا مدينة «تفليس» عام ٤١٧، وهم من أتباع الديانة النصرانية، واستمر ذلك حتى جاء السلاجقة عام ٤٥٧ وفتحوا المنطقة، ودخل ألب أرسلان بلاد الكرج عام ٤٦٥.

جاء جنكيزخان قائد المغول فسيطر على المنطقة كلها، وعندما قسّم دولته، كانت بلاد القفقاس من نصيب أسرة ولده الكبير جوجي، وكانوا على الوثنية فلم يتبدّل شيء، فلما أسلم مغول الشمال دخلوا في صراعٍ مع أبناء عمومتهم مغول الدولة الإيلخانية الوثنية فلم يكن هناك مجال لانتشار الإسلام وخاصةً لأن مغول الشمال لا يزالون في بداية إسلامهم، ولا يملكون الحماسة اللازمة للدعوة كما ليس لديهم الفقه المطلوب للعمل. ثم لم يلبث أمرهم أن ضعُف، وتجزّأت دولتهم، ثم احتلّ تيمورلنك المنطقة، وإن كان ينتمي إلى الإسلام إلّا أنه لا يعرف منه سوى التبعية، وكان طاغيةً جبّاراً لا يروي ظمأه سوى رؤية الجثث المُبعثرة في العراء أو كومات الجماجم المُلقاة أمام فسطاطه ولا يمكن لمثل هذا أن يكون فيه أيّ خير لدينه، بل يعدّ مُنفّراً، ويكفي سلوكه وسلوك قادته أن يكون وسيلة كرهٍ للإسلام وأهله، وتُبعد أكثر مما تُقرّب، وتجعل الوثنيين في منأى عن الإسلام.

وعاد الضعف إلى دولة مغول الشمال، وزاد انقسامها وتفرّقها، وقام الروس يُحاربونها حتى إذا سيطروا على بلاد التتار الشرقية وجّهوا جهودهم نحو القرم فأحسّ عندها العثمانيون بخطورة الموقف فنزلوا إلى بلاد القرم وعدّوها جزءاً من دولتهم، ثم بدؤوا العمل في بلاد القفقاس، فاحتلّوا بلاد الكرج عام ٩٨٥، وبلاد شروان، ومنها انتقلوا إلى بلاد داغستان فاحتلّوها عام ٩٩١، واستمرّ توسّعهم حتى عام ١٠٤٩ حتى شمل بلاد القفقاس كلها، وإن كان هذا التوسّع بين مدٍّ وجزرٍ بين العثمانيين والصفويين، ومع نزول

العثمانيين في تلك الجهات بدأ الإسلام ينتشر بين السكان وكان لهذا أثره الواسع لصالح العثمانيين إذ وقف السكان المسلمون بجانبهم ضدّ الصفويين الشيعة وضدّ الروس النصارى. وفي الوقت نفسه فقد استفاد الروس من الصراع بين العثمانيين والصفويين فتدخّلوا بين السكان، وساعدهم على ذلك الكرج الذين كانوا على ديانتهم.

ابتدأ نفوذ الروس يدخل إلى المنطقة منذ التوجّه إلى القرم والانتهاء من بلاد التتار الشرقية، ومراسلة الشاه الصفوي طهماسب للقيصر الروسي إيفان الرهيب ومحاولة التفاهم معه حيث شعر القيصر بأهمية بلاد القفقاس له، إذ بعد دخول استراخان عام ٩٦١ تقدّم الروس في صحراء شمال القفقاس (دشت القفجاق)، وأصبحوا على حدود بلاد القوموق، والشاشان، والبلكار، والأديغة.

وعندما ضَعُف أمر الصفويين، وكان العثمانيون قد ضعفوا أيضاً وكلاهما يدخل في صراعٍ مع الآخر عندها تقدّم بطرس الأكبر قيصر روسيا، واحتلّ بلاد داغستان، وسواحل بحر الخزر الغربية، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدّم العثمانيون ودخلوا أرمينيا، وبلاد الكرج، غير أن حاكم منطقة «رشت» الصفوي استنجد بالقيصر الروسي بطرس الأكبر ضدّ العثمانيين فأسرع لنجدته وتنازل الشاه الصفوي طهماسب الثاني للروس عن داغستان، وشروان بل وعن «جيلان» و«مازندران».

استقلّت بلاد «قبرطاي» عام ١١٥٢ إثر معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين، وبهذا الاستقلال عن العثمانيين بدأ الوهن يتسرّب إلى النفوس والضعف يدخل المنطقة، وبعد مدةٍ سيطر الروس على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس. ثم إن القيصر الروسي الجديد بول الذي خلف القيصرة كاترين الثانية رأى أن يخرج من بلاد الكرج إذ لا فائدة من مساعدتهم، ثم عدل عن رأيه، وهاجم المنطقة وضمّها إليه، وهذا ما أجبر القائد الداغستاني عمر خان

على مُهاجمة الروس في بلاد الكرج، ودعمه العثمانيون، كما ساعده الشاشان، ولكنه فشل في هذا الهجوم، فابتلع الروس بلاد الكرج عام ١٢١٥ وعدّوها جزءاً من أراضيهم. ولم يلبثوا أن تقدّموا في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨، وكانوا إثر كل انتصارٍ يُحققونه على العثمانيين أو على الفرس يضمّون جزءاً من بلاد القفقاس فهم في توسّعٍ دائمٍ وزيادةٍ مستمرةٍ في قوتهم، والمسلمون في تأخُّرٍ وضعفٍ.

وجد مسلمو بلاد القفقاس أنفسهم وحيدين في هذا الميدان لأن العثمانيين والفرس يتراجعون باستمرارٍ، ولهذا فإنه يجب الاعتماد على النفس، ومن هذا المنطلق بدؤوا يُهيّئون أوضاعهم الداخلية حتى إذا تمّ ما أرادوا ألّفوا حكومة عام ١٢٤١ في بلاد الداغستان على رأسها العلماء، وبرز بينهم الشيخ شامل الذي أرسل العلماء إلى المناطق الأخرى لاستنهاض الهمم. وبدأ القتال عام ١٢٥٦ بين الشيخ شامل وبين الروس، بدأ الشيخ شامل خطته بالهجوم على الروس واستمرّ عشر سنوات في هجومه مستفيداً من انشغال الروس بحرب القرم، فاضطروا أن ينسحبوا من عدة مناطق، فلما انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ حشدت روسيا جيشاً لا قبل له به إذ يزيد على ثلاثمائة ألف مقاتلٍ، وبدأت الهجوم على بلاد الشراكسة واكتسحت البلاد جزءاً بعد آخر وقامت بأبشع الأعمال الوحشية لتخيف السكان فيتركوا ديارهم، ويصل الرعب إلى المناطق الأخرى فيدبّ الذعر وتضعف المعنويات وبدأت أفواج الشركس، والشاشان، والداغستان تُغادر ديارها نتيجة الوحشية الروسية، وتتجه نحو البلاد العثمانية. فنقلتهم الدولة إلى أوربا إلى خطّ النار ليؤدّوا دورهم لما عُرف عنهم من شجاعةٍ وتضحيةٍ، غير أن الدول الأوربية النصرانية قد أدركت دور هؤلاء القفقاسيين فألزمت الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ على نقلهم ثانيةً من جبهات القتال، فأخذتهم الدولة من ميدان المعارك ووزّعتهم على هامش الصحارى والبوادي ليردّوا غارات البدو عن المدن والحضر في بلاد الشام والعراق.

وأُسر الشيخ شامل عام ١٢٨١، وتفرّقت الجيوش القفقاسية، ودخلت روسيا المنطقة وابتلعتها وبدأت تُمارس أنواع الاضطهاد والانتقام من كل الجماعات التي نالت على أيديها من الهزائم ما نالت، لذا تكرّرت هجرات السكان إثر هذه السياسة الروسية الحاقدة.

وصل الروس بعد السيطرة على هذه المناطق إلى جهاتٍ جبليةٍ تصعب فيها العمليات العسكرية، ويصعب فيها التقدّم، وخاصةً أن سكانها من المسلمين الذين يُمكنهم أن يُدافعوا عن بلادهم بشكلٍ عنيفٍ، إضافةً إلى اقتراب الروس من قلب العالم الإسلامي، وهذا لا يُهمّهم الآن أو لا يُريدون الدخول مع أهله في حربٍ صليبيةٍ طويلة الأمد ربما تكون في غير صالحهم أو على الأقل لا يدرون نتائجها. وإنما يُريدون قبل هذا تقوية دولتهم في التوسّع، واحتلال المراكز الحسّاسة، وإيجاد المواقع التي يُمكنهم الدفاع عنها، لذا كان عليهم أن يتوجهوا إلى ناحيتين اثنتين أولاهما نحو تركستان والشرق، والثانية العمل للسيطرة على المضائق العثمانية (البوسفور والدردنيل) ما داموا قد وصلوا إلى بقاعٍ جبليةٍ حصينةٍ يُمكنهم أن يثبتوا فيها أمام خصومهم إذا ما داهموهم (العثمانيون أو الفرس).

كان يُمكن للروس أن يتوقفوا عند ذرا جبال القوقاز فهي أقوى الموانع الطبيعية بالنسبة لهم، ويُمكنهم أن يُقيموا عليها القلاع التي تقيهم شرّ الجوار، وربما كان هذا تفكير بعض قياصرتهم وقادتهم فقد وصلوا إليها، واحتلّوا البقاع المفتوحة قبلها والتي لم تكن صالحةً لإقامة حدودٍ دفاعيةٍ فيها تذود عن الروس خطر الخصوم صحراء القفجاق، وسهول القوموق، وسهول بلاد الأنغوش، وبلاد الأديغة إذ هي على اتصالٍ مباشرٍ بسهول بلاد التتار (حوض نهر الفولغا)، والسهول الروسية، وسهول أوكرانيا، وسهول القوزاق. غير أن الذي جعلهم يتقدمون خُطوةً أخرى أو يُغيّرون مُخطّطاتهم، في خط الدفاع إنما وجود النصارى الكرج والأرمن فهم من

رعاياهم حسب اعتقادهم وخوفاً من أن ينتقم منهم الذين يحكمونهم سواء أكانوا عثمانيين أم فُرساً فيما إذا اضطهد الروس المسلمين الذين يعيشون تحت سيطرتهم وهذا ما هو مقرّر لديهم مُسبقاً إذ أنّ الحقد يغلي في نفوسهم بشكلٍ عنيفٍ.

وإضافةً إلى ذلك فإن الروس قد رغبوا في أن يكون الكرج والأرمن ضمن حدود دولتهم لأنهم مُقاتلون أشداء لطبيعة بلادهم الجبلية فهم يُشبهون السكان الذين يُجاورونهم، فهم من ناحيةٍ يسكنون مناطق الحدود التي يُمكن أن تتعرّض لغارات أو غزو سكان المناطق الجبلية الذين يعيشون بالقرب منهم، ومن ناحيةٍ أخرى يخشى مسلمو شمال القفقاس على هذه الحالة من القيام بحركاتٍ لأنهم بين نارين نصرانيين نار الروس من الشمال ونار الأرمن والكرج من الجنوب. وكذلك لو كان مسلمو شمال القفقاس هم سكان الحدود لأمكنهم أن يكونوا على صلةٍ قويةٍ ومتينةٍ بالمسلمين في البلدان المجاورة (الدولة العثمانية والدولة الفارسية)، وربما اتّخذت حكومات تلك البلدان من مسلمي شمال القفقاس عيوناً لها، ولهذا السبب نتوقع أن يكون القيصر الروسي بول الأول (١٢١١ ـ ١٢١٥) قد غيّر خطته في دعم الكرج ومساندتهم.

الفصل الرابع

استعمار تركستان

بعد أن تمكّن الاستعمار الروسي في بلاد القفقاس بدأ يُفكّر في الجبهة التي يفتحها من جديدٍ على المسلمين إذ لم ير المتابعة من حيث وصل فليس من مصلحته كما خطّط سدنته أن يدخلوا قلب بلاد المسلمين قبل أن يُخضعوا أطرافه، ويُقوّوا أنفسهم لدرجةٍ يُمكنهم بعدها أن يخترقوا الحواجز التي بينهم وبين وسط بلاد المسلمين، ووجدوا أن منطقة تركستان هي الجبهة الجديدة التي عليهم أن يفتحوها فهي منطقة ضعفٍ بسبب الخلاف القائم بين دولها المتفرّقة، ولا يخضع لهذه الدول سوى مساحاتٍ ضيّقةٍ من الأرض، كما لا تضمّ سوى أعدادٍ قليلةٍ من السكان لا يُمكن مُقارنتها مع جموع الروس الهائلة. وربّما كان دخولهم لمنطقة تركستان خطةً يتقدّمون منها بعدئذٍ نحو الجنوب لتهشيم الجناح الشرقي من بلدان المسلمين ثمّ تطويق المسلمين بعدها، إذ يكون نصارى أوربا قد أحاطوا بالمسلمين من الغرب وكسروا ذلك الجناح أيضاً. وهذا لا يمنع من دخول الروس مياه المحيط الهندي من تلك الجهات ومنازلة الاستعمار الغربي هناك إن لم يخضع لمطالب الروس ومقاسمتهم المغانم في المستعمرات.

وتعني كلمة «تركستان» بلاد الترك، وهي وسط آسيا حيث تتنقل قبائل كثيرة يعود معظمها في أرومته إلى العنصر التركي، وتشمل اليوم بلاد التركمان، وخُوارزم، وبلاد ما وراء النهر، وسهوب قبائل القازاق الممتدة إلى



الشمال من المناطق السابقة. وإذا كانت منطقة تركستان اليوم جزأين يُسيطر الروس على الجزء الغربي منها على حين يخضع الجزء الشرقي منها للسيطرة الصينية، وإن بحثنا في هذا الكتاب يقتصر على الجزء الأول الذي يقع ضمن البلاد التي تشملها الإمبراطورية الروسية، إذ هو الموضوع الأساسي له.

وصل المسلمون إلى المنطقة في أيام الفتوحات الأولى، ودخل الأحنف بن قيس مدينة مرو، وفي أيام الفتوحات الثانية تمكّن قتيبة بن مسلم الباهلي من عبور نهر جيحون، ودخول مدينة بخارى، وبقية المدن، واستقرّ الإسلام في تلك الجهات بعد أن شقّ أهلها عصا الطاعة عدة مراتٍ، عاش بعدها السكان آمنين في ظلّ دولة الإسلام، وإذا كانت المنطقة قد أنجبت عدداً من القادة لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية فإنها كذلك قد أخرجت عدداً من العلماء كان لهم دور كبير في العلم، وخلّدهم المجد على مدى التاريخ، وربّما لا يذكر المسلم المنطقة إلّا ويتداعى إلى ذهنه البخاري المتوفّى (٢٥٦)، والترمذي المتوفّى سنة (٢٧٩)، والنسائي المتوفّى سنة (٣٠٣)، والطبري المتوفّى سنة (٣١٠) والنسفي المتوفّى سنة (٧١٠)، والخُوارزمي المتوفّى سنة (٢٣٢).

كانت القبائل التركية القاطنة في شرق المنطقة لا تزال على الوثنية، وما أن تدخل المنطقة في تحرّكها وراء الماء والكلأ حتى تعتنق الإسلام، وقد لعب بعضها دوراً كبيراً في الحياة السياسية كالسلاجقة الذين كان لهم الدور الأول في الدولة من ٤٤٧ حتى ٦٥٦، وكانت حروبهم الواسعة ضد أعداء الإسلام من الروم والصليبيين.

وضعفت الدولة العباسية، وقامت الإمارات والدول المنفصلة في شرقي بلاد الخلافة، ومنها هذه المنطقة، وكان آخر هذه الدول «الخُوارزمية»، التي قضى عليها جنكيزخان عام ٦٢٢ هـ. وحكم المغول بعدها المنطقة، وكانت من نصيب أسرة جغطاي. ووقع الخلاف بين أبناء المغول، واعتنق الإسلام

خان أسرة جغطاي «طرماشيرين» (٧٢٢ ـ ٧٣٥) وأسلم معه أكثر أفراد أسرته، وانقسمت المنطقة إلى عددٍ من الإمارات الصغيرة في النصف الثاني من القرن الثامن، وهذا ما مهّد لقيام تيمورلنك الذي سيطر على المنطقة، والذي قام بحروبه المشهورة في غربي آسيا وشرقي أوربا، وفي الصين، واستمرّت قبضته على المنطقة حتى توفي عام ٨٠٨، ولكن ما أن وافته المنية قد تجزّأت دولته بين أحفاده.

وجاء الشيبانيون من سيبيريا ويعودون في أصلهم إلى مغول الشمال (شوبان بن جوجي بن جنكيزخان) وهم الذين يعرفون بالأوزبك وحكموا بلاد ما وراء النهر من ٩٠٦ حتى عام ١٠٠٧، وتبعهم (الجانيون)، وهم أنسباء الشيبانيين، ويعودون في أصولهم إلى خانات استراخان قبل أن يحتلّها الروس، واستمرّوا حتى عام ١٢٠٠.

وقامت على أنقاض دولة الجانيين عدة خانيات منها:

١ ـ **خانية بُخارى** التي تعرّضت للهجوم الروسي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩ حيث اقتطعوا أجزاء منها، واستمرّت حتى عام ١٣٢٨ حيث تولّى أمرها سيدمير عالم، وقد أعلن استقلال خانيته عن حماية الروس عندما قامت الثورة الشيوعية، ولكن لم تلبث أن داهمته جيوش الشيوعيين عام ١٣٣٨ ففرّ من البلاد، وخضعت بلاده للاستعمار الشيوعي.

٢ ـ **خانية خُوارزم**: كانت تتبع مغول الشمال ثم استقلّ فيها الشيبانيون أو الأوزبك عام ٩٢١، وأسّسوا خانية مستقلّة، واصطدموا مع خانات بُخارى، واستمرّ حكمهم حتى عام ١٢١٩، ثم تسلّم وزراؤهم منهم الحكم حتى عام ١٢٨٩ حيث ألحقت بالإمبراطورية الروسية، ودخل محمد سيد محمد رحيم في طاعة الروس عام ١٢٩٠، ومع هذا فقد كان الحكّام يعدّون أنفسهم مُستقلّين، وانسحب الروس عندما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، ولكن

رجعوا إليها وأخضعوها لاستعمارهم في رمضان عام ١٣٣٧ ، وسقط حكم آخرخان. وأقام الروس فيها حكومة عُرفت باسم « جمهورية خراسان السوفيتية ».

٣ ـ **خانية خوقند أو فرغانة:** تشكّلت عام ١١١٢ ، واستولى عالم خان على طاشقند عام ١٢١٥ ، وتسمّى باسم « خان » لأول مرة، ووقعت الحروب بينها وبين خانية بخارى ، واستمرّت حتى عام ١٢٩٣ عندما جاءها الاستعمار الروسي ، وكان آخر خاناتها ناصر الدين خان.

كما قامت بعض الإمارات المستقلة في طاشقند وبعض المدن الأخرى.

بعد أن سيطر الروس على منطقة سيبيريا الغربية نهائياً عام ١٠٧٨ بدؤوا بالتوسع شرقاً، وعدّوا الأقسام الشرقية كلها تابعةً لها، وأطلقوا عليها اسم « سيبيريا » نسبةً إلى عاصمة التتار في تلك المنطقة « سيبير »، ولما كانت المنطقة قليلة السكان تتنقل في أجزائها الشمالية قبائل بدائية تعود إلى أصول مغولية أيضاً، أو على الأقل إلى العرق الأصفر، وتلك الجهات باردة جداً تُعدّ جزءاً من البقاع الصحراوية الباردة الأمر الذي يجعل قاطنيها لا يتزايدون بكثرة نتيجة الظروف الطبيعية القاسية. أما الأقسام الجنوبية فإن الغابة الصنوبرية أو المخروطية تغطيها بشكلٍ عامٍ وأحياناً الغابة المختلطة وخاصةً في الجهات الشرقية، وهذه البقاع تكاد تخلو من السكان لهذا كان تقدّم الروس فيها سريعاً ولم يحتاجوا إلى أيّة مشقةٍ بل لم يصطدموا بأيّة قوةٍ تُعرقل سيرهم، وبذا أصبحت سيبيريا كلها تابعةً للاستعمار الروسي، وتزيد مساحتها على ١٣ مليون كيلو متر مربع أي أكبر من مساحة أوربا كلها وتُعادل مرةً وثلث المرة من مساحتها، ووصلت الإمبراطورية الروسية من ناحية الشرق إلى المحيط الهادي، وحدود الصين.

بعد أن سيطر الروس على منطقة سيبيريا الغربية نهائياً عام ١٠٧٨ أصبحت تركستان تحدّهم من جهة الجنوب حيث تمتدّ سهوب القازاق

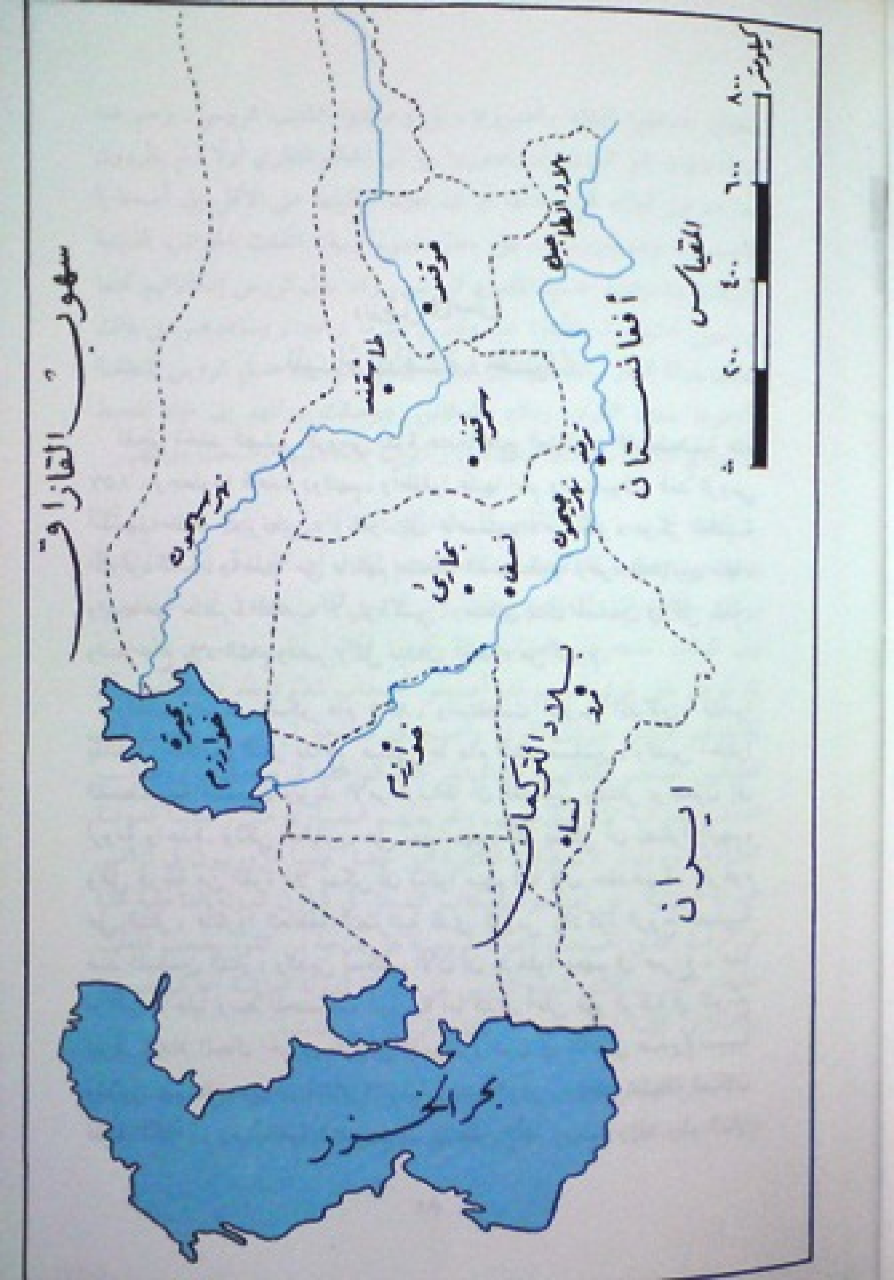
الواسعة والتي تُعدّ قليلة السكان الأمر الذي أغراهم بها، وما أن انتهوا من بلاد القفقاس حتى توجّهوا إلى تركستان فسيطروا على سواحل بحر الخزر الشمالية الشرقية عام ١٢٤٩ ، وتقدّموا نحو نهر سيحون، واحتلوا طاشقند، وسمرقند ووصلوا حتى نهر جيحون (أي فصلوا بين الأراضي التابعة لخانية خوقند والأراضي التابعة لخانية بُخارى) وتوقّفوا عند نهر جيحون ولا يزال الحدّ الفاصل بين الإمبراطورية الروسية وبلاد أفغانستان وذلك في المدة (١٢٧٠ ـ ١٢٨٦)، ثم توسّعوا نحو الجنوب على سواحل بحر الخزر الشرقية ليحيطوا بخانية خوارزم من جهة الغرب.

لم يبق أمام الاستعمار الروسي إلّا هذه الخانيات الثلاث خوقند، وبُخارى، وخُوارزم إضافةً إلى بلاد الطاجيك، وبلاد التركمان. لقد بدؤوا بخانية خوقند التي أصبحت منعزلةً عن الخانيتين الأخريين ففرضوا سيطرتهم عليها عام ١٢٩٣ .

اتّجه الروس بعد خوقند إلى خانية بُخارى ففرضوا سيطرتهم عليها عام ١٣٠٢ وتابعوا سيرهم إلى بلاد التركمان فدخلوها بعد مقاومة عنيفة في العام نفسه وبعد أن صمد التركمان في وجه الاستعمار ودافعوا عن عاصمتهم « مرو » دفاعاً مجيداً، ووصل الروس إلى سواحل بحر الخزر الشرقية عام ١٣٠٤ ، وأصبحوا على تماسٍ مباشرٍ مع إيران.

انعزلت خانية خُوارزم وبقيت وسط البلاد الخاضعة أو المحمية للروس فدخلوها عام ١٣٠٦ ، وتوجّهوا بعدها إلى بلاد الطاجيك فأخضعوها عام ١٣١١ ، وهي أساساً لا يُمكنها أن تُقاوم لضعف إمكاناتها، وقلة أبنائها، وعدم إمكانية دعمها إذ بقيت منطقةً منعزلةً، هذا رغم طبيعتها الجبلية المساعدة للمقاومة.

لم يقنع الروس بما حصلوا عليه، بل لا يمكن أن يقنعوا فإن حقدهم الصليبي ورغبتهم في التشفّي من المسلمين يجعلهم يطلبون المزيد، وأرادوا



التوجه نحو الجنوب ومُتابعة ضمّ الأراضي حبّاً في الاستعمار، ورغبةً في الوصول إلى مياه المحيط الهندي الحرّة (الدافئة)، وطلباً لزيادة القوة، وهدفاً في زيادة إذلال المسلمين، وإجباراً للدولة الأوروبية الغربية لمقاسمة الروس نصيبهم في المستعمرات غير أن الاستعمار الإنكليزي كان هو الآخر يتوسّع من جهة الجنوب من الهند نحو الشمال فاصطدم الاستعماران (الروسي والإنكليزي) فتارةً كانا يتفقان على تقاسم مغانم الاستعمار وتارةً كانا يختلفان، وهذا ما أوقف كل منهما في الحدود التي وصل إليها، وهو في الوقت نفسه الذي حفظ لأفغانستان وإيران استقلالها. وقد كان كلا الطرفين (الروس والانكليز) لا يتركان فرصة لزحزحة حدودهما ومحاولة بسط نفوذهما، حتى مرّت مرحلة كان الاتفاق بينهما على أن يكون نفوذ روسيا في شمالي إيران ونفوذ انكلترا في الجزء الجنوبي.

قامت قبائل الاوزبك بحركةٍ ضدّ الروس عام ١٣٢٢ عُرفت بحركة الجهاد، ولكنها فشلت، ولما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦ قام الأوزبك أيضاً بحركةٍ واسعةٍ ضدّ الاستعمار الروسي، وأعلنوا استقلال بلادهم، وشكّلوا حكومة تركستان التي كان مقرّها مدينة خوقند، فلما قوي أمر الشيوعيين داهموا حكومة تركستان بوحشيةٍ كبيرةٍ ذُعر منها كل إنسانٍ حتى ظنّ المراقبون جميعاً أنه لا يمكن أن تقوم بعدها حركة، ومع كل هذا فإن الظلم قد أدّى لقيام حركاتٍ أخرى كانت دون سابقتها. وهكذا رزحت تركستان تحت الاستعمار الروسي.

الفصل الخامس

المياه الدافئة (الحرة)

تفجّر الحقد الصليبي الروسي بقوةٍ عندما فتح العثمانيون القسطنطينية عام ٨٥٧ ، وجعلوها قاعدة دولتهم، وأطلقوا عليها اسم « استانبول » فعدّ الروس أنفسهم خلفاء البيزنطيين، ونقلوا إلى عاصمتهم « موسكو » مركز الكنيسة الأرثوذكسية، وأخذوا على عاتقهم استعادة القسطنطينية وطرد العثمانيين منها، وإرجاعها حاضرة المذهب الأرثوذكسي، ومنطلق قتال المسلمين في كل بقعةٍ، واسترجاع بلاد الشام ومصر وكل ميدانٍ أخذوه من الروم.

ونشأت إمارة موسكو عام ٨٨٥ ، واستقطبت الروس المفرّقين، فقاموا يُقاتلون حُكّامهم التتار بدافعٍ صليبيٍ ما دام التتار مُسلمين، والذين احتلّوا القسطنطينية مسلمون ويزيد الأمر ارتباطاً أن العثمانيين والتتار يرجعون إلى أرومةٍ واحدةٍ. ولكن العثمانيين على بُعدٍ منهم، فلا يُمكن أن يصلوا إليهم، وعلى درجةٍ من القوّة فلا يُمكن أن ينالوا منهم لذا فإن حقدهم قد أفرغوه على التتار، فأثاروا العاطفة النصرانية لدى الروس وأذكوا الروح الصليبية ضدّ المسلمين التتار، والذين يُمكنهم الآن أن يدخلوا معهم في صراعٍ، هذا ما أُثير داخلياً وسط المجتمعات الروسية أما الذي أُعلن فهو الرغبة في التوسّع شرقاً لإيجاد المجال الحيوي للروس الذين يزدحمون في مناطق صغيرةٍ نسبياً وتضيق بهم على حين أن البلاد الشرقية « بلاد التتار » مناطق مخلخلة السكان قليلة الكثافة، ولم يُخفوا التصريح أن المنطقة كلّها روسية وإنما جاء التتار

مُحتلّين فدخلوا البلاد وأعمروها، بل وحكموا الشعب الروسي، وهم عنه غرباء، وأن على الروس أن يتحرّروا من نير الحكم التتاري أولاً، ثم يطردون عدوّهم من البلاد التي احتلّها أو أن تعود ملكيتها على الأقل إلى أصحابها الأصليين، وهم الروس - على حدّ زعمهم- وبهذا اتّفقت الجوانب الدينية والوطنية والسياسية حسب المفهوم الروسي، وقد بذل الروس إمكاناتهم كلّها في سبيل تحقيق ما خطّطوا له، وقد تمّ لهم ما أرادوا، وساعدهم على ذلك ضعف دولة التتار وانقسامها إلى عدة خانياتٍ، فاحتلّ الروس المنطقة وأتبعوها ببلاد القرم، وبلاد القفقاس، ووصلت دولتهم إلى مياه المحيط الهادي في الشرق، واشتدّ ساعدهم، وكثُرت إمكاناتهم، واتّسعت دولتهم.

التفت الروس بكل ثقلهم إلى العثمانيين، وكانوا من قبل يحرصون ألا يصطدموا معهم وإنما يُحاربون أنصارهم القرم أو القوازق أو الشراكسة وسائر سكان بلاد القفقاس وذلك لأن الروس كانوا يخشون قوة العثمانيين، وفي الوقت نفسه فإن العثمانيين لم يكونوا ليُبالوا بالروس -مع الأسف- فتركوهم حتى قوي أمرهم فلما أصبحوا أصحاب شدةٍ لم يعُد باستطاعتهم أن يُقاتلوهم فاختلّ ميزان القوى وأصبح في مصلحة الروس إذ ضعُف شأن العثمانيين لضعف خُلفائهم، وقيام الحركات الداخلية في وجههم، وتكالب الدول النصرانية الأوربية عليهم، وتحريضهم النصارى من رعايا الدولة العثمانية، ووجود الامتيازات الكثيرة التي حصل عليها الأوربيون في أراضي الدولة العثمانية حتى أصبحوا بإمكانهم التدخُّل في شؤون الدولة الداخلية هذا في الوقت الذي أصبحت الدولة الروسية على درجةٍ من القوّة يصعبُ التغلُّب عليها، إذن إن الذي شجّع الروس على منازلة الدولة العثمانية إنما هو ضعفها واختلاف كلمة أبنائها قبل أن تكون قوة الروس الذاتية.

لم يُعلن الروس أنهم يُريدون احتلال استانبول وإعادة اسمها القسطنطينية، وإرجاعها قاعدة المذهب الأرثوذكسي، ومنطلق قتال المسلمين، وإنما أخفوا

ذلك، كما أخفى المستعمرون الآخرون حقيقة صليبيتهم، وكتموا واقع حقدهم الدفين، وأظهروا أنهم يُريدون إعمار الأرض، واستثمار خيراتها، والأخذ بأيدي أبنائها، ونشر الحضارة التي هي حضارة عالمية لمصلحة البشر جميعاً، وكذلك أعلن الروس أنهم يُريدون الوصول إلى الدافئة الحرّة، فإن بلادهم محصورة في الداخل لا يستطيع شعبهم التحرّك والمتاجرة، ولا تتمكّن حكومتهم من المساهمة في نشر الحضارة فإن البحار التي تُشرف عليها إنما هي متجمّدة لا تصلح للملاحة أكثر أيام العام، فالمحيط المتجمد الشمالي لا يتحرّر من الجليد إلا أياماً قليلة، وخليج (بوتني) الذي هو الجزء الشمالي من بحر البلطيق لا يقلّ تجمّده عن ثمانية أشهر، وهو بالأصل لا تُشرف عليه، ولا يُعدّ من بحارها، أما خليج فنلندة الذي تُشرف عليه، وهو فرع من بحر البلطيق أيضاً، فإنه يتجمّد ما لا يقلّ عن نصف العام، وفي الوقت نفسه فإن مفاتيح بحر البلطيق ليس بيدها وإنما هي بيد الدول الاسكندنافية (السويد، والنرويج، والدانمارك)، وإذا ذهبنا شرقاً فإن بحر بهرنغ، وبحر أو خليج أخوتسك يتجمّدان أكثر من نصف العام أيضاً، أما بحر اليابان الذي يكون حرّاً من الجليد فإن لها ميناء عليه هو ميناء (فلاديفستوك) غير أنه لا يُستفاد منه إلّا قليلاً وذلك لأن البحر لا تملك مفاتيحه أيضاً، والناحية الثانية وهي الأكثر أهمية أن المناطق الشرقية قليلة السكان، غير منتجةٍ فليس هناك ما يُجلب إليها ولا ما يُصدّر منها، والميناء بعيد كل البعد عن المناطق ذات الإمكانات الضخمة، وذات الأعداد الكبيرة من السكان، وإن هذه المسافة لتزيد على ستة آلاف كيلومتر. والبحر الوحيد الحرّ والقريب من مناطق الإنتاج، والكثافة السكانية، هو البحر الأسود، فالموانىء يجب أن تقوم عليه، والصادرات يجب أن تنطلق منه، والواردات يجب ان تتجه إليه، ولا تقلّ الجوانب العسكرية فيه عن الجوانب التجارية ومع كل هذا فإن مفاتحه بيد الدولة العثمانية ولا يمكن أن تكون منه أيّة فائدةٍ عسكريةٍ أو اقتصاديةٍ إن لم تسمح بذلك الدولة العثمانية، وهي العدو الأول للروس، وهي الدولة التي

تُسيطر على المضائق (البوسفور والدردنيل) وتملك حركة هذا البحر، وبهذا يُعدّ بحراً مغلقاً لا فائدة منه، والميناء الذي يُشرف على المضيق الرئيسي وهو (البوسفور) هي ميناء استانبول (القسطنطينية)، وهو ما تُريد أن تملكه روسيا، وإذا سيطرت عليه فإنما تكون قد حققت أهدافها الصليبية والعسكرية والتجارية ووصلت إلى المياه الدافئة (الحرة)، ولذا فإن كلمة المياه الدافئة إنما تعني استانبول أو (البوسفور والدردنيل) ومعنى الوصول إلى المياه الدافئة السيطرة على استانبول، لذا كانت دعوة روسيا العلنية إنما هو الوصول إلى المياه الدافئة دون أن تُفسّر ما تعني هذه العبارة، وإذا كان هذا الاصطلاح معروفاً لدى الساسة إلا أنه يبقى مُضمراً لدى الآخرين.

كان ساسة الدول الأوروبية الغربية يعرفون ما تعني كلمة الوصول إلى المياه الدافئة، ويخشون أطماع روسيا ويعرفون أنها إذا سيطرت على استانبول، ووضعت المضائق تحت قبضتها، فإنها ستتفوق عليهم، وستنافسهم في المستعمرات، وربّما حلّت محلّهم، ورجعوا إلى حجمهم الطبيعي، بل ربّما أصبحوا تحت رحتها أو على الأقل لا يريدون مُنافساً لهم قوياً فهم في غنى عن الصراعات، وما هم فيه من الاختلاف فيما بينهم يزيد عنهم. لذا لم يكونوا ليُوافقوا أبداً على سيطرتها على استانبول وتسلّم المضائق العثمانية خوفاً منها، لا حبّاً في العثمانيين، ولا حرصاً على المسلمين، ولو لم يكن الخوف قائماً من الروس، لا نتهى العهد العثماني قبل عدة قرون ـ والله أعلم ـ ولتقاسم الصليبيون أجزاء الدولة، وفرضوا سيطرتهم على المسلمين وأذلّوهم، وهذه أهداف الدول النصرانية كلها. فالخلاف بين الدول النصرانية الأوروبية، والحرص على مصالحها، والطمع في مزيدٍ من المستعمرات هو الذي أطال أمد العثمانيين. لذا كانت روسيا أحياناً تُلوّح لشعوب الدول الأوروبية الغربية بالجانب النصراني، فتضطر الحكومات مسايرة شعوبها، والاتفاق مع الروس لمرحلةٍ وجيزةٍ تُحقق فيه بعض المصالح، وتُحرز فيه بعض الانتصارات لكن ضمن حدودٍ لا تسمح فيها للروس بتجاوز بعض الأطراف أو لدرجةٍ تجعلها

تفرض سيطرتها على المضائق وتنزل إلى المياه الدافئة.

إنّ السياسة الروسية لا تزال كما هي من عدة قرون أو منذ نشأتها تُخطط للسيطرة على استانبول، وإعادة مدينة القسطنطينية، ونقل مقرّ المذهب الأرثوذكسي إليها من موسكو، وجعلها منطلق قتال المسلمين كما كانت أيام البيزنطيين، وجعل المضائق (البوسفور والدردنيل) في قبضتها، وتحصينها في وجه دول أوربا الغربية، والنزول إلى المياه الدافئة، وفرض نفوذها، وفكرها، وهيمنتها على العالم عن هذه الطريق. وسيبقى هذا محور السياسة الروسية ما دامت توجد دولة روسية سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية أم أي نظام آخر، فالعقلية الروسية هكذا، ونشأ الروس على هذا، وتربّوا عليه، حتى طُبعوا عليه، وغدا من جبلتهم، وجزءاً من تفكيرهم وحياتهم. وإن الصراع بين المعسكرين اليوم هو الذي يُبقي لتركيا كيانها وفي الوقت الذي يُمكن لروسيا أن تتفوق على خصومها ستُنفّذ سياستها مباشرة. والواقع أن الأمم تكون لها أهدافها ووسائلها وغاياتها ولن تتغيّر هذه أبداً ما دامت الأمة قائمة. وتنبع هذه الأهداف من عقيدة الأمة. وليست الأمة المسلمة في منأى عن هذا بل لها مُهمّتها في الحياة لا تتخلى عنها أبداً وهي الدعوة إلى الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، والقضاء على الشرك والظلم، وعبادة العبيد، وتمكين منهج الله في الأرض. وإذا كنّا نرى تغيير السياسات في بعض الأمكنة بتغيّر الرجال أو الأنظمة فهذا أمر شاذ لا يُمثّل المُهمة المُلقاة على عاتق الأمة، أو في أجزاء من الأرض لا تُمثّل الأمة وحقيقة أهدافها، وإنما هي أهداف أنظمة ورجال وأوضاع تنطلق من مصالح ذاتية وأهواء نفسية تتعلّق بحبّ السيطرة أو الشهرة وإرواء رغبات النفس في الزعامة وقد تصل أحياناً إلى الشهوات وغرائز النفس.

الباب الثالث

المُسلمُون تحتَ نيرِ الاستعمَار الرّوسيّ

الفصل الأول

تباين أوضاع المسلمين

أخضع قسم من المسلمين لنير الاستعمار الروسي خلال مرحلة طويلة تزيد على ثلاثة قرونٍ ونصف القرن (٩٥٩-١٣٣٨)، وقد ذاقوا من ويلات هذا الاستعمار ما لم يحدث في التاريخ إلا في أوقاتٍ قصيرةٍ جداً وقليلةٍ جداً، حيث طُبِّقَتْ عليهم أعمال الوحشية كلُّها، وأنواع الظلم والطغيان والبغي جميعها، وأهينت كرامتهم، وهُدِّمَت مساجدهم ودور علمهم، ومُنِعوا من تأدية عبادتهم، وحُرِموا من حريتهم الدينية، وشُرِّدَ قسم منهم من بلادهم، ونُفي آخرون، ولا يزال جزء منهم في منفاهم إلى الآن، كما لا يزالون جميعاً يخضعون لضغطٍ ثقيلٍ يسحقهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى أقلّ مستوى من الحياة الكريمة وأول فكرة الحرية.

ويتباين هؤلاء المسلمون في عقيدتهم إذ أن أكثرهم ينتمي إلى الإسلام، وبعضهم يدّعيه وليس منه، وبعضهم يُحسب عليه وهو منه براء، كما أن الذين ينتمون إلى الإسلام يختلفون في فهمه له، وتطبيق أوامره واجتناب نواهيه، ولما كان الحقد الصليبي هو المحرّك الأول للروس لذا فإنّ إفراغ الحقد إنما ينصبُّ على المسلمين، وعلى قدر تمسّكهم بعقيدتهم ينالهم الأذى الذي كثيراً ما يصل إلى مرحلة التصفية الجسدية بصورةٍ من الصور.

ويختلف المسلمون في أصولهم وإن كان أكثر الذين يعيشون في جحيم الحكم الروسي إنما يعودون إلى أصولٍ تركيةٍ وتتاريةٍ وهم أساساً يرجعون إلى أرومةٍ

واحدة، وينصبّ عليهم لظى من الحقد الروسي لا نظير له. فالترك العثمانيون قد فتحوا القسطنطينية، وحولوها من مدينة نصرانية أرثوذكسية إلى مدينة إسلامية (استانبول)، وكانت بعد ذلك موسكو وريثة القسطنطينية ومُكلّفة بالانتقام لها والأخذ بثأرها - على رأيهم - وكان التتار يحكمون الروس، ووقف الروس على أقدامهم، وكان حقدهم منبعثاً من الأعماق ومريراً، وما أشدّ ظلمَ الذليل إذا عزّ، وأشدُّ من ذلك وطأةً على العزيز إذ ذلّ يوماً وتحكّم فيه الذليل.

ويفترق المسلمون الذين يكتوون بنار الحكم الروسي حسب طبيعة الأرض التي يسكنون عليها، فهناك سكان السهول، وهناك أهل الجبال. وقد انتقلت أفواج من الروس نحو سهول البلدان الإسلامية التي استعمروها واستولوا عليها، واغتصبوها من أهلها، واستثمروها لمصلحتهم واستقرّوا فيها، حتى غدا المسلمون قلّةً وقد كاثرهم الروس، فنشأ كره شديد نتيجة ذلك من المسلمين على الروس، وقابل الروس المسلمين بكرهٍ مماثلٍ أدّى إلى الرغبة في قتلهم والتنكيل بهم وتحريض السلطة عليهم باستمرار للضغط عليهم، وادعاء ما لم يكن، والقول بما لم يحدث. أمّا سكان الجبال فلم يخضعوا لمكاثرة الروس لهم إذ ليس في أماكنهم ما يُشجّع أهل الريف الروسي للتحرّك نحوها، فبقي سكان الجبال في معزلٍ عن جموع الروس المستعمرة فلم يحسّوا بوطأة الاستعمار كما أحسّ سكان السهول. وبقي أهل الجبال يشعرون بشيء من العزّة والأنفة، وأنهم أصحاب الحل والعقد في بلادهم، فالروس ليسوا إلّا في قلاعهم، وحصونهم، ونقاط أمنهم، وثكناتهم يُشرفون إشرافاً عاماً. ولذا كان الكره الروسي لسكان الجبال كبيراً والحقد عليهم عنيفاً لما بقي عندهم من عزةٍ وقوةٍ. ويجب ألّا ننسى أن سكان السهول ألينُ عريكةً وأقلُّ شجاعةً، وبلادُهم سهلة الاجتياز يسهُلُ اقتحامها ويصعُبُ الدفاعُ عنها لذلك كانت مقاومتهم أقلّ. أما سكان الجبال فأعنف طبعاً وأكثر شجاعة، وأكثر صبراً على منازلة الأعداء، ومناطقهم وعرة، صعبة الاقتحام يسهُلُ الدفاعُ عنها والتحصّنُ فيها

لذلك كانت مقاومتهم عنيفةً، وإخضاعهم شاقاً، وقد لقي الروس على أيديهم الهزائم، واندحروا أمامهم في عددٍ من الوقائع ولهذا أيضاً كان الحقد عليهم شديداً. وفي نقطة الافتراق بين سكان الجبال وسكان السهول جانبان: جانب اختلاف الأرض، وجانب اختلاف الطباع.

ويتمايز المسلمون حسب نمط حياتهم الاجتماعية فهناك أهل المدن حيث يكثر السكان، وينتشر العلم، ويزداد الوعي فيعرف الناس ما يحيط بهم، وما ينالهم من الاستعمار، لذا فهم أكثر مقاومة، وأكثر تحرّكاً ضدّ الأعداء، ومن هنا كان نصيبهم من بلاد الاستعمار يفوق نصيب إخوانهم أهل الريف، وقبائل البادية، غير أن الريف قد اشتدّ غيظ الروس عليهم لأخذ أراضيهم، كما سبق أن بيّنا، أما البداة فهم لبعدهم عن الحياة العامة وحركة المجتمع لم يصبهم في بداية الأمر إلا القليل من الضغط بل على العكس فقد حاول الروس تثقيف بعضهم والإفادة منهم بالوقوف في وجه التتار والترك، وسكان المدن وأهل الريف، وأبناء الجبال ومن يحلّ في السهول.

ويفترق المسلمون الذين يعيشون تحت السيطرة الروسية في العذاب الذي صُبّ عليهم من قبل المُتسلّطين عليهم حسب المراحل التي تمّ استعمارهم فيها، ففي الأيام الأولى للاستعمار الروسي كان الحقد على المسلمين على أشدّه والكره لهم في عنفوانه والرغبة في الانتقام منهم في أوجها لذى فقد صبّ الروس جام غضبهم كله على أول المدن التي دخلوها وهي مدينة قازان، وتلاها في ذلك بقية مدن التتار في حوض نهر الفولغا ثم بلاد القرم فشمالي القفقاس، وإن كان يجب أن نلاحظ أحداث الظلم والبغي والاضطهاد التي تقع إثر الحركات والانتفاضات ضدّ الروس إذ تتجاوز في وحشيتها كل ما سواها لذا يجب أن نضعها خارج الإطار العام الذي نتحدّث عنه. ولعلّ أكثر المراحل ظلماً للمسلمين في التاريخ الروسي الحكام الأوائل من أمراء موسكو أو قياصرة روسيا، ثم خفّ الظلم قليلاً في عهد القياصرة الثلاثة الأول من

أسرة رومانوف، ثم اشتدّ أيام بطرس الأكبر ومن تلاه من القياصرة حتى عهد كاترين الثانية، وأخيراً وصل السيل إلى أعلى مستوى له في العهد الشيوعي عامة وفي مبتداه خاصة.

ويختلف الظلم الذي وقع على المسلمين من المستعمرين الروس حسب قرب المناطق الإسلامية من بلاد الروس وبُعدها عنها، أو يمكن أن تلحق هذه النقطة بالتي سبقتها فالمناطق القريبة هي التي كان استعمارها قبل غيرها، فقد ابتدأ الاستعمار ببلاد التتار فالقرم فبلاد القفقاس فتركستان.

وهكذا فالظلم لم يستثن أحداً من المسلمين بل لحق الجميع إما لعقيدةٍ، أو لجنسيةٍ، أو لسكنٍ، أو لشجاعةٍ، أو للحياة في الجبل، أو لامتلاك السهل، أو للقرب، أو لتفريغ الحقد في البدء. وربما إذا أردنا البحث والتفتيش نجد أن بعض الذين تجاوز عنهم الظلم وهم المتحلّون الذين لا يهتمّون بعقيدة ولا بسواها، أو الذين يتزلّفون سعياً وراء مصالحهم، أو البداة في أول عهد الاستعمار، وهؤلاء قلّة بالنسبة إلى السكان عامة.

وربما كان من المفيد أن نرى توزيع المسلمين حسب النقاط التي اختلف وقوع الظلم والبغي على المسلمين بموجبها وهي:

١ ـ **السكان:** لا يمكن الركونُ إلى الإحصاءات الروسية فيما يتعلّق بالمسلمين أبداً وذلك لأن الروس عملوا منذ سيطرتهم على بلاد المسلمين على الإقلال من عددهم لإضعاف شأنهم، وقد كانت إحصاءاتهم الرسمية تذكر أن تزايد نسبة المسلمين أكبر من غيرهم بكثير بسبب زيادة عدد الولادات، وفي الوقت نفسه هي ذاتها تُعطي أرقاماً متناقصة لأعدادهم خلال سنوات من الزمن متتالية، فهذا التناقص يُؤكِّد ويُبيِّن بوضوح أهداف الروس وتلاعبهم بالإحصاءات التي تتعلّق بالمسلمين.

وإن عدداً من المسلمين يرفض أن يُسجل نفسه ضمن أعدادهم خوفاً من

السيف المصلّت فوق رقابهم فخشيةً من أن يناله شيء يُسجل نفسه بين أعداد مجموعاتٍ أخرى، وأكثر ما يكون ضمن مجموعات الوثنيين، هذا عند التتار في المناطق الشمالية حيث يجاورهم وثنيون.

وكذلك فإن أعداداً أخرى تُريد أن تُبعد عن نفسها الرقابة كي تستطيع أن تقوم بتأدية عبادتها سراً دون أن يطّلع عليها أحد وبعيدةً عن أعين المراقبين، وترى أفضل طريقٍ لذلك إنما هو تسجيل نفسها خارج قوائمهم. وبصورةٍ عامةٍ نستطيع أن نقول: إن الذين يُسجّلون أنفسهم هم الذين يتحدّون السلطة وحدهم، ويُصرّون على الاعتراف بإسلامهم والتمسّك بعقيدتهم، ولذا كانت أعداد المسلمين في الإحصاءات الروسية تتناقص باستمرار.

ويجب ألا ننسى الأوقات التي كان فيها تحرم اعتناق الإسلام والدعوة له، وتصل العقوبة في كثيرٍ من الأحيان إلى الموت، ثم إن الذين يتنصّرون من المسلمين يُعفون من الضرائب ومن الخدمة العسكرية وكان على المسلمين الذين حافظوا على عقيدتهم أن يُؤدّوا ذلك عنهم، فأكثر المسلمين قد تحمّل هذا وصبر على ذلك في سبيل دينه، أما من يأتي ليرمي نفسه من جديدٍ في هذا الأذى والظلم ودفع المال وهو الفقير الضعيف، لذا لم يُعلن أحد عن إسلامه خوفاً إذ لو نجا من الموت وتخطّته عُقوبة الإعدام، لن ينجو غالباً من دفع الضرائب والقيام بالخدمة العسكرية المضاعفة أو أكثر من المضاعفة، ومن هذا المنطلق فلن يعتنق الإسلام أحد من جديد علناً، وإنما يُضمر ذلك خوفاً مما قد يُصيبه، وهذا ما لوحظ عندما أُعطيت الحرية الدينية لأسبابٍ اضطراريةٍ مرتين أو ثلاث مراتٍ فصدّق بعض الذين يُضمرون إسلامهم ويُخفون إيمانهم فأعلنوا ذلك وجاهروا به، وللسبب نفسه يعتقد المراقبون أنه لم يبق وثنيون في المناطق الشمالية وإنما قد دانوا جميعاً بالإسلام تحت تأثير التتار والمنفيين من بلادهم، ولكن يكتمون ذلك خوفاً من أن تنالهم المطرقة الروسية أو يحصدهم المنجل.

كما يجب ألا ننسى الحرب المعلنة باستمرار من قبل نظام الحكم على الدين عامةً حسب تصريحات وسائل الإعلام الروسية المختلفة، وعلى الإسلام خاصةً، وما يختلف أحد مع الآخرين أن القصد من هذه الحرب إنما هو الإسلام، فمن هو الذي يُريد أن يُعرِّض نفسه لحرب الدولة، أو يرمي بشخصه ليكون هدفاً لسهام نظام الحكم المسمومة.

ونُلاحظ أن الجماعات السكانية الكبيرة كالتتار والأتراك أو العنيدة كسكان شمالي القفقاس كثير ما يصرُّ أبناء هذه الجماعات على تسجيل أنفسهم مسلمين مع عدم طلب ذلك منهم تحدياً وتمسكاً بما يعتقدون، وربما كان بعضهم لا يعرف من أمور دينه سوى انتمائه للإسلام. ونُلاحظ أحياناً أخرى أن تسجيل كلمة القوم تكفي للدلالة على الإسلام ومنها: التتار، الترك، داغستان، شركس، شاشان، وترى أنَّ بعضهم يُصرّ عليها بفخرٍ واعتزازٍ لا عصبيةً وإنما لدلالتها على الإسلام. أما الجماعات الصغيرة ـ وما أكثرها ـ فهي التي يخشى أبناؤها الاعتزاز لقلّتها، ويكون ضياعهم أحياناً، فلا يُسجلون دياناتهم، ولا يهتمُّون كثيراً بتدوين اسم قومهم لتُعرف عقيدتهم فيضيعون، ثم يضيع أحفادهم مع الزمن.

ومع هذا كلّه فإن الإحصاءات الروسية قد أعطت عدداً للمسلمين عام ١٣٩٩ هـ هو ستة وأربعون مليون مسلم، وإذا كان هؤلاء المسلمون يختلفون بدرجات إيمانهم وهذا أمر طبيعي نجده في كل مجتمع، وإذا كانوا يختلفون أيضاً بدرجات إهمالهم لدينهم حتى وصل بعضهم إلى درجة الإلحاد بسبب نظام الحكم الذي يقوم على ذلك، فإن هذا أمر طبيعي أيضاً وإن كان لا يُؤخذ مقياساً ما دام سيف الإلحاد هو المصلت على الإيمان، وإنما يُؤخذ المقياس عندما تُعطى الحرية الدينية، ولكن هؤلاء يختلفون حسب العقيدة، وإذا كان أكثرهم ينتمي إلى أصحاب العقيدة الإسلامية الصافية فإن بعضهم يُعدُّون أحياناً بين المسلمين، ولكنهم يُنكرون ذلك في قرارة نفوسهم، ويأبون،

وأحياناً أخرى هم يدّعون أنهم من أتباع الإسلام، وإذا عددتهم بين المسلمين فليس ذلك إيماناً مني بأنهم مسلمون، ولا اعترافاً بأن عقائدهم تمتُّ إلى الإسلام بصلة، ولكن لأنهم يدّعون أحياناً الإسلام، ويُصنّفون بناءً على هذه الدعوى الموقّتة مع المسلمين.

ولذا فأعتقد أن الاحصاءات الروسية غير صحيحةٍ، وأن عدد المسلمين أكبر من هذا الرقم بكثير، ولا أكون مُبالغاً إذا قلت: إنه قد يصل إلى الضعف، ولكن مع هذا كله أراني مُضطراً للبحث على أساس الإحصاءات الروسية لأنها المصدر الوحيد لذلك.

الأجناس: ينضوي تحت هذا الرقم [٤٦ مليون مسلم] ثلاثة وسبعون شعباً أو جنساً، وتختلف هذه الشعوب بعضها عن بعض، فمنها الشعب الكبير الذي يضمّ عدة ملايين من أبنائه وبعضها الصغير الذي لا ينتسب إليه إلا عشرات الألوف.

وأكبر هذه الشعوب الشعب التركي، ويتجمّع أكثر أفراده في منطقة آسيا الوسطى، حتى نُسبت إليه، فيقال لها: تركستان أي بلاد الترك، ولكن ينضوي تحت هذا الاسم «الشعب التركي» مجموعات كثيرة، يُقال عنها كلها شعوب، وإن كانت تعود إلى أرومة واحدةٍ، ففي آسيا الوسطى يوجد الأوزبك، والتركمان، والقيرغيز، والقازاق، ونجد في بلاد القفقاس القراتشاي، والبلكار، والقوموق، والنوغاي.

ويلي الشعبَ التركي الشعبُ التتاري الذي يتجمّع أكثر أفراده في حوض نهر الفولغا، في جمهورية تتاريا، وفي شبه جزيرة القرم، وسيبيريا، وهناك تجمُّعات من التتار في بلاد القفقاس، وفي آسيا الوسطى، كما أنّ كلّ التجمّعات الإسلامية في الجزء الأوربي من الامبراطورية الروسية إنما هي من التتار، ويُقدّر عدد التتار في الامبراطورية الروسية بأربعة ملايين، وتسعمائة

وثمانيةٍ وستين ألفاً. بل إن التتار والترك أيضاً إنما يعودون إلى أصلٍ واحدٍ، وإذا أردنا أن نتحدث عن العروق فالفرعان ينتميان للعرق الأصفر. وقد يختلطان أيضاً فالأوزبك مثلاً: تتار وترك.

ثم شعب الباشكير الذي نستطيع أن نحصر معظم أفراده في حوض نهر الفولغا بل في الجمهورية التي تحمل اسم «جمهورية باشكيريا»، والجمهوريات المجاورة لها، وخاصةً تتاريا. ويُقدّر عدد أفراد هذا الشعب حسب احصاءات ١٣٩٩ هـ بمليونٍ وثلاثمائةٍ وواحدٍ وسبعين ألفاً.

وهناك شعوب القفقاس، وهذه الشعوب قليلة الأعداد نسبياً، ورقعة الأرض التي تُقيم عليها ضيقة، وانفصال الأرض بعضها عن بعض بالأودية السحيقة والأنهار ذات المجرى العميق هو الذي عدّدها وأوجد الفروق بينها، وكل شعب ينضوي تحت اسمه عدد من القبائل أو الشعوب، وأشهرها:

١ ـ الداغستان: ويضمّ القوموق، والنوغاي وهما من أصل تركي ـ كما مرّ ـ واللزكي، واللان، والعفر، ومن العفر مجموعة قبائل الآندي، وهذه كلها من أصول قفقاسيةٍ.

٢ ـ الشاشان: وهم من أصولٍ قفقاسيةٍ، ويبلغ عدد أفراد هذا الشعب في الامبراطورية الروسية حسب احصاءات عام ١٣٩٩ هـ سبعمائةٍ وخمسةٍ وخمسين ألفاً وثمانمائة شخص.

٣ ـ الأنغوش: ولا يزيد عددهم على مائةٍ وسبعةٍ وخمسين ألفاً في الامبراطورية الروسية كلها، وهم وإخوانهم أكثر ما يتجمّعون في جمهوريتهما التي تحمل اسميهما معاً.

٤ ـ الشراكسة أو الجراكسة، ويُطلقون هم على أنفسهم اسم «الأديغة»، وهم مجموعة قبائل أو شعوب منها: القوشحة، والقبرطاي، والأبخاز، والأبزاخ، والأبازين، والشابسغ، والبزادوغ، والحاتوقواي، وهذه كلها تُعدّ من شعوب شمالي القفقاس.

وفي جنوبي بلاد القفقاس أيضاً الأذربيجانيون ـ والأكراد، والأرمن، والكرج، والتاليش، والآجار.

وفي آسيا الوسطى يوجد إلى جانب الترك عدد من الأجناس أهمها:

١ ـ الطاجيك: الذين يعودون إلى أصل فارسي، ويتجمع أكثرهم في الجمهورية التي تحمل اسمهم.

٢ ـ القره قالبك: الذين يتجمعون في الجمهورية التي تحمل اسمهم وهي ذات استقلالٍ ذاتي، وتتبع جمهورية أوزبكستان الاتحادية.

٣ ـ الأويغور: الذين يوجد عدد منهم في جمهورية قازاقستان، رغم أن هؤلاء يعودون في أصولهم إلى التتار.

ويوجد في حوض الفولغا أيضاً الأدمورت، والموردوف، والجوفاش، والماري، وغير هذه الشعوب التي ذكرنا كثير ممن هو أصغر منها. ولكن الكبيرة هي التي نالت من الروس أشدّ أنواع الظلم وأكثرها التتار وشعوب شمالي القفقاس.

العقائد: المسلمون فرقة أو جماعة واحدة، وليس هناك من فرقٍ، فالمرء إما مسلم وإما غير ذلك، صحيح أنه قد توجد بعض الخلافات في الاجتهاد ولكن لا تُخرج عن الملّة ولكن ضمن العقائد الأساسية في الإسلام، ولذا لن نعدّ كل من يُصنّف ضمن قائمة المسلمين من الإسلام، لأنه تصنيف رجالٍ غالباً ما يعملون بالعاطفة لتكثير سواد المسلمين، أو يأخذون بادعاءات أصحاب الفرق التي يقولون بها تقيّةً أو مصلحةً، ويقولون: لنا الظاهر والله يتولّى السرائر، وإذا كان هذا الكلام صحيح ولكن ليس على الإطلاق، لأنه من واجبنا أن ننظر إلى الأعمال من عباداتٍ وإقامة الشعائر، إذ لا يمكن قبول ادعاء جماعةٍ أنهم من المسلمين ولا توجد في بلادهم كلها مسجد، ولا يؤذّن للصلاة، ولا تؤدّى عندهم فريضة.

ونقول: إن معظم الذين يُصنَّفون عادةً ضمن المسلمين هم فعلاً من المسلمين من أهل السنة والجماعة ويُشكّلون ٩١ ٪ من المسلمين، ويمكن أن نجد الفرق التالية حسب التصنيفات المتّبعة عادة:

١ ـ المسلمون: وهم الأكثرية في كل المناطق باستثناء أذربيجان وطاجيكستان حيث يكثر الشيعة، ويأخذ هؤلاء المسلمين بمذهب الإمام أبي حنيفة باستثناء داغستان حيث يسود مذهب الإمام الشافعي.

٢ ـ الشيعة: ويُشكّلون ٩ ٪، وهم في أذربيجان، وطاجيكستان، كما توجد أقلية في بلاد الأوزبك، ومثلها في بلاد التركمان.

٣ ـ الفرق الضالة: يوجد مائة ألف اسماعيلي من الفرقة النزارية في إقليم باداخشان في جمهورية طاجيكستان. ويعيش ٣٥ ألفا من عبدة الشيطان في جمهورية أرمينيا وأكثرهم من الشعب الكردي، وعدة آلاف في جمهورية جورجيا. كما يوجد العدد نفسه من البهائيين يتوزّعون في عشق آباد حاضرة بلاد التركمان، وباكو عاصمة أذربيجان، ومدينة كوبا في أذربيجان أيضاً، وفي مدينة استراخان عند مصب نهر الفولغا في بحر الخزر.

ولا يعيش المسلمون وحدهم في المناطق التي يكثرون فيها، وإنما يسكن معهم المستعمرون الذين يدينون بالنصرانية وغالباً على المذهب الأرثوذكسي مذهب الروس، وتختلف نسبة النصارى أو المستعمرين من منطقة إلى أخرى، وغالباً ما ترتفع في بلدان حوض نهر الفولغا، والقرم، وشمالي القفقاس، وتنخفض نسبياً في بلدان وسط آسيا.

وتوجد أقليات يهودية في القرم (٢٣ ألفاً)، وفي أذربيجان (٣٥ ألفاً)، وفي داغستان (٤ آلاف)، وفي بلاد الأوزبك (١٠٠ ألف)، وفي بلاد الطاجيك (١٥ ألفاً).

ولا شكّ فإن المسلمين هم الذين ينالهم النصيب الأوفى من الظلم الروسي

والاضطهاد والأعمال الوحشية، وإن محاربة الدين إنما يقصد به الإسلام، ولم يكن المسلمون على درجةٍ واحدةٍ من ظلم الروس لهم بل لقد حاول المستعمرون استمالة بعض مشايخ السوء وأهل التصوّف الذين يدعون إلى الزهد في الدنيا ويُثبطون الهمم، وينفرون من الجهاد وذلك للوقوف في وجه العلماء العاملين المُدركين لحقيقة الاستعمار وأهدافه الصليبية. ورغبتهم ردّ المسلمين عن دينهم إن استطاعوا، ومحاولة إذلالهم.

طبيعة الأرض: تُعدُّ أرض بلدان حوض نهر الفولغا سهلية رغم وجود بعض التلال، وكذا سيبيريا رغم وجود جبال الأورال القليلة الارتفاع الكثيرة الممرات، ورغم وجود السفوح الشمالية لجبال (آلتاي) الشاهقة لكنها تُعدُّ محدودة الرقعة بالنسبة إلى سهول سيبيريا الفسيحة. وكذا القرم رغم امتداد جبال القرم في الأجزاء الجنوبية منها، لكنها قليلة الارتفاع، كثيرة الأمطار الأمر الذي يُغيّر من الفكرة الجبلية الجرداء المتعزلة.

وتُعدُّ بلدان منطقة القفقاس جبلية رغم امتداد السهول في شمالي بلاد داغستان، وامتداد سهول أذربيجان حول نهر كورا، وسهول الكرج حول نهر كورا أيضاً وريفون، ورغم وجود بعض السهول الساحلية. وتُعدُّ كذلك بلاد الطاجيك، وبلاد القيرغيز جبلية.

وتُعدُّ بلدان القازاق، والأوزبك، والتركمان سهوبيةً رغم وجود بعض السفوح الجبلية فيها جميعها ووجود هضبة (كاراغندا) في بلاد القازاق.

وقد أفرغ الاستعمار الروسي ظلمه على سكان السهول كي يستولي على أجزاء منها ويُقدّمها لأبنائه الذين أصبحوا يُكاثرون السكان الأصليين في ديارهم، كما أفرغ حقده على سكان الجبال، وخاصةً شمالي القفقاس للمقاومة التي أبدوها والشجاعة التي أظهروها، والدفاع عن أرضهم، والاستبسال في سبيل عقيدتهم. أما سكان السهوب فكان الظلم عليهم أخفّ وإن كان الأمر

نسبياً، وعلى وجه العموم، أما الحالات الخاصة والمحلية والفردية فلها وضعها الذي لا يُعمَّم.

نمط الحياة: على الرغم من أن أكثر المسلمين الذين يعيشون في الإمبراطورية الروسية يحيون حياة تُوصف على أنها قبلية للروابط، والصلة، واللهجة، والديار غير أنها ليست بدوية متنقلة كما يتبادر إلى الذهن، فأكثرهم مستقرّون متحضّرون يسكنون المدن والأرياف، ويعملون في الزراعة والتجارة، والتجارة معروفة بينهم من القديم، كما يمتهن بعضهم الصناعة، وقليل أولئك الذين يعملون في الرعي، ويمكن أن نحصرهم في سهوب القازاق حيث لا تزال بعض القبائل تزاول مهنة الرعي، وتنتقل وراء قطعان الأغنام، ومثلها في بلاد الأوزبك، والتركمان، والنوغاي في شمالي داغستان، وهناك بعض قبائل القيرغيز التي تعمل في بلادها في رعي الخيول، وبعض القبائل في الجبال حيث تنتقل بين الأودية والمرتفعات في الشتاء والصيف.

وقد صبّ المستعمرون الروس حقدهم على أهل المدن الذين هم أكثر إدراكاً من غيرهم لنوايا الاستعمار وأهدافه التي يُريد أن يحقّقها، وعلى أهل الأرياف لسلب أراضيهم، أما البدو والقبائل المتنقلة عامة فهي أقل دراية من غيرها، وأسهل للوقوع في الشَرَك، واصطياداً بالفخ، أو لتكون طُعماً لإيقاع غيرها، وقد حقّق الروس بعض أغراضهم عن طريق هذه القبائل وخاصة قبائل القازاق في بداية الأمر حتى تنبّه بعضهم لما يُخطّط لهم، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

مراحل الاستعمار: بدأ الاستعمار الروسي بابتلاع المناطق الإسلامية القريبة منه الأقرب فالأقرب حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى كان قد سيطر على ما هو مسيطر عليه الآن، ويمكن أن نضع بصورة تقريبية المراحل التي تمّت له فيها السيطرة على المناطق.

من عام ٩٥٩ حتى ٩٦٨ هـ سيطر الروس على حوض الفولغا.
من عام ١٠٠٣ حتى ١٠٧٨ هـ سيطر الروس على سيبيريا الغربية.
من عام ١١٨٨ حتى ١٢٠٦ هـ سيطر الروس على جزيرة القرم.
من عام ١١٩٨ حتى ١٢٧٨ هـ سيطر الروس على شمالي القفقاس.
من عام ١٢٠١ حتى ١٢٢٨ هـ سيطر الروس على أذربيجان.
من عام ١٢٢٨ حتى ١٢٥٨ هـ سيطر الروس على قازاقستان.
من عام ١٢٧٠ حتى ١٣٣٨ هـ سيطر الروس على آسيا الوسطى.

وإن حقد الروس قد صُبّ على المناطق الأولى التي بدؤوا باستعمارها، ومع الزمن كان يخفّ هذا الحقد نسبياً، وإن كان يعود للغليان إثر كل حركة مقاومة تبدو من المسلمين، أو الوقوف بصلابة في وجه تقدّم المستعمرين الروس أو أمام تحقيق أهدافهم، غير أن الخط العريض كان خفّة الحقد مع الزمن، فأشدّه إذن ما كان في بلاد حوض الفولغا إذ بها ابتدأ الاستعمار، وهي أرض سهلة خصبة غنية يجب انتزاعها من أيدي أصحابها، وأعنفه في هذه المنطقة ما كان على قازان التي قاومت المستعمرين الروس بعناد، كما أن أهلها من التتار الذين كانوا يحكمون الروس فيما مضى، ولا بدّ من إذلالهم، لهذا كله أفرغ الروس معظم ما يحملونه من شحنات الحقد الصليبي والسياسي والاستعماري. وأقلّه ما كان في بلدان آسيا الوسطى إذا استثنينا وقت حركات المقاومة وأيام الدفاع عن البلاد، وجماعة المجاهدين.

قرب المنطقة من البلاد الروسية: كلّما كانت المنطقة أقرب إلى مركز البلاد الروسية أو عاصمتها موسكو كلّما اشتدّ عليها الأذى والضغط أكثر، لكره الجوار بعضهم إلى بعض والرغبة في امتلاك الأرض القريبة قبل غيرها، ولما كانت مراحل الاستعمار قد بدأت من المناطق القريبة لذا فإن هذه النقطة مرتبطة بسابقتها ونالت بلاد التتار في حوض نهر الفولغا أكبر شحنةٍ من حقد المستعمرين الروس.

ويجب ملاحظة طبيعة الحكّام إذ أن بعضهم أكثر رغبةً من بعض في الظلم والاضطهاد، وبعضهم أشدّ حقداً من بعضٍ على المسلمين، وبعضهم أكثر ميلاً إلى الضغط وسفك الدماء من بعض، وربما كان ايفان الرهيب، وبطرس الأكبر، والشيوعيون عامةً هم الذي يميلون إلى العنف، ويمتلئون حقداً على المسلمين، ويرغبون في فرض الرهبة أو طُبعوا على الظلم واستعمال القسوة.

وإن الحركات المحلية غير المُنظّمة، والمختلفة في التوقيت، والمتباينة في الأهداف، والتي لم تعمّ المنطقة قد كتبت على نفسها الفشل، وسبّبت مضاعفة حقد المستعمرين الروس، وزيادة عدد النكبات وتكرارها على المسلمين، وأخافت المؤمنين من إبداء شعائرهم، وإخفاء عقيدتهم التي كادت تضيع مع الزمن بالكبت والإخفاء والخوف والتهاون.

الفصل الثاني

الاستعمار أيام الحكم القيصري

اندفع الروس من بلادهم في الغرب نحو بلاد التتار في حوض نهر الفولغا، فدخلوا مدينة قازان أول عقبةٍ في وجههم ثم سيطروا على الشعوب والمناطق المجاورة لها، وانحدروا مع مجرى نهر الفولغا وقد احتلّوا الحوض كلّه مع مدنه وحواضره. واستمرّوا في متابعة التتار حتى ضمّوا سيبيريا الغربية إليهم وقضوا على إمارة التتار فيها، واندفعوا نحو الشرق في الأرض شبه الخالية من السكان والتي تُغطيها الغابة المخروطية والمختلطة، وتشغل الصحارى الباردة شمالها، والتي تنتقل فيها قبائل بدائية لا تزال على الوثنية، وهي ذات أعدادٍ قليلة.

وإذا توقّفوا قليلًا في تقدّمهم في بلاد القرم ليصفّوا حسابهم مع تتار قازان، أو ينتهوا من إفراغ شحناتٍ من حقدهم عليهم، ولدعم الدولة العثمانية لأهل القرم إلّا أنّهم قد استولوا عليها في النهاية، وأرادوا الالتفاف على عاصمة العثمانيين والمضائق من جهة الشرق إذ لم تكن لديهم بعد الأساطيل البحرية الكافية والتي يُمكنهم مُنازلة العثمانيين بها إلّا أنّهم وجدوا مُقاومة عنيفةً في بلاد القفقاس وخاصةً في أجزائها الشمالية، وعندما تخطّوا العقبات التي وقفت في وجههم، وأرادوا مُتابعة سيرهم نحو المضائق العثمانية واستانبول وجدوا الدول الصليبية الغربية تحول دون تقدّمهم وترغب في المحافظة على الدولة العثمانية والإبقاء عليها لا حبّاً فيها ولا حمايةً للمسلمين فإن ما في نفوس الدول الغربية لا يختلف عمّا في نفس الروس من حقدٍ

صليبي وكرهٍ للمسلمين، وإنما خوفاً من توسّع الروس الذي لن يكون إلا على حساب الصليبية الغربية التي لا تستطيع الوقوف أمام الصليبية الشرقية إلا قليلاً، إذ ستحلّ محلّها في المستعمرات وتُنافسها في سلب الخيرات واحتلال أراضٍ جديدة.

لذا اتجه الروس نحو الشرق بعد وقوف دول أوربا الغربية في وجه تحرّكهم نحو المضائق واستانبول، وساروا نحو نقطة الضعف التي وجدوها في آسيا الوسطى في بلاد تركستان، ولعلّهم بعد السيطرة عليها يُفتح لهم المجال بالتغلغل نحو الجنوب للوصول إلى مياه المحيط الهندي الدافئة غير أنهم قد اصطدموا بالاستعمار المتقدّم من الجنوب نحو الشمال فتوقّف كل منهما عند حدّه بعد مرور أزمات بينهما كانت تنتهي بالوفاق أحياناً وبالخلاف أحياناً أخرى ولكن دون الوصول إلى قيام حربٍ شاملةٍ بين الاستعماريين لأنها قد تُؤدّي إلى مصلحة العدو المشترك الذي هو الإسلام، والخلاف والوفاق ليس إلا على أرض المسلمين، فليكن التفاهم وليكن التقاسم، وإن لم يكن العدل في القسمة إلّا أن الإجحاف لن يضرّ أحد الطرفين، وما دامت الفائدة لا تكون للمسلمين في كلتا الحالتين حتى ولا بأيّة حالةٍ فالأمر يسير.

الظلم في بلاد التتار: بعد أن سيطر المستعمرون الروس على بلاد التتار في حوض مجرى نهر الفولغا وعلى الشعوب المجاورة لهم كالباشغرد (الباشكير) وغيرهم، وانتهت المقاومة تماماً، التفت المستعمرون يُفرغون ما حلوه من حقدٍ عبر القرون الماضية، وما شُحنوا به من ضغنٍ على المسلمين، فأخذوا بالاستيلاء على الأراضي الخصبة الموجودة على طول مجاري الأنهار وتقديمها إلى النبلاء الروس، كما توافدت أفواج من الروس للسكن في المناطق الإسلامية والعمل فيها بعد أن تمّ الاستيلاء على الأرض، وهدموا المساجد، ومراكز التعليم الديني، وشيّدوا القلاع الخاصة بهم خوفاً من الحركات التي توقّعوا قيامها ضدّهم. وحاولوا تنصير المسلمين بحجة تحويلهم إلى سلاف،

وقد رفض المسلمون هذه الإجراءات مع استثناءاتٍ قليلة. وحتى نتابع تسلسل الأحداث أيام القياصرة الروس أرى من المفيد تحديد أسماء هؤلاء القياصرة ومدة حكمهم:

أولاً: أمراء موسكو (الروس الكبار):

١ ـ إيفان الثالث (الكبير) : ٨٦٧ ـ ٩١١ هـ.
٢ ـ بازيل الثالث : ٩١١ ـ ٩٤٠ هـ.
٣ ـ إيفان الرابع (الرهيب) : ٩٤٠ ـ ٩٥٤ هـ.

ثم ضمّ إيفان الرابع إليه أوكرانيا (الروس الصغار) وأصبح قيصراً على روسيا.

ثانياً: قياصرة روسيا:

١ ـ إيفان الرابع (الرهيب) : ٩٥٤ ـ ٩٩٢ هـ.
٢ ـ تيودور الأول : ٩٩٢ ـ ١٠٠٧ هـ.
٣ ـ بوريس كودرنوف : ١٠٠٧ ـ ١٠١٤ هـ.

قامت مرحلة من الفوضى والاضطرابات دامت من ١٠١٤ حتى ١٠٢٢ حيث تمكّنت أسرة رومانوف من استلام السلطة.

ثالثاً: أسرة رومانوف:

١ ـ ميخائيل : ١٠٢٢ ـ ١٠٥٥ هـ.
٢ ـ الكسيس : ١٠٥٥ ـ ١٠٨٧ هـ.
٣ ـ تيودور الثاني : ١٠٨٧ ـ ١٠٩٤ هـ.
٤ ـ إيفان الخامس : ١٠٩٤ ـ ١١٠١ هـ.
وحكم معه بطرس الأكبر مدةً من الزمن.
٥ ـ بطرس الأكبر : ١١٠١ ـ ١١٣٨ هـ.
٦ ـ كاترين الأولى : ١١٣٨ ـ ١١٤٠ هـ.

٧ - بطرس الثاني : ١١٤٠ - ١١٥١ هـ .
٨ - الإمبراطورة حنّة : ١١٥١ - ١١٦٩ هـ .
٩ - ايفان السادس : ١١٦٩ - ١١٧٠ هـ .
١٠ - إليزابيت : ١١٧٠ - ١١٧٦ هـ .
١١ - بطرس الثالث : ١١٧٦ - ١١٧٦ هـ .
١٢ - كاترين الثانية : ١١٧٦ - ١٢١١ هـ .
١٣ - بول الأول : ١٢١١ - ١٢١٥ هـ .
١٤ - إسكندر الأول : ١٢١٥ - ١٢٤١ هـ .
١٥ - نيقولا الأول : ١٢٤١ - ١٢٧٢ هـ .
١٦ - إسكندر الثاني : ١٢٧٢ - ١٢٩٨ هـ .
١٧ - نيقولا الثاني : ١٢٩٨ - ١٣٣٦ هـ .
قتله الشيوعيون في مدينة بطرسبرغ.

ولكثرة ما قتل القيصر الأول (ايفان الرابع) من المسلمين، ولشدّة ما ظلم فقد أطلق عليه لقب (الرهيب)، ومع ما وقع على المسلمين من اضطهادٍ وبغيٍ فقد صبروا وتحملوا كل أذى، ولما رأى المستعمرون الروس إصرار المسلمين على المقاومة بدأوا بتشريدهم عن ديارهم. غير أن الضغط والإرهاب على الذين بقوا في منازلهم، وعلى الذين شُرِّدوا من ديارهم، والنظرة الخاصة لهم من قبل المستعمرين الروس، والمصائب المشتركة التي حلّت بهم، إذ ليس هناك من أسرة لم تحلّ بها فاجعة أو لم تنزل بها نكبة، كل ذلك قد فرض عليهم نوعاً من التعاون والمحبة والألفة، إذ كان يساعد بعضهم بعضاً في كثيرٍ من النواحي المادية، ويتعاونون على الحياة ليتخطّوا العقبات التي تعترضهم مما أوجد الثقة بينهم إضافة إلى نظرة الاستعلاء التي لدى المسلم إذ يشعر على الرغم من الوضع الذي هو فيه أنه هو الأعلى ما دام مسلماً، وهو أرفع ثقافةً وأكثر إنسانيةً وفهماً للحياة من النصراني بل ومن أيّ صاحب عقيدةٍ أخرى غير الإسلام، وأن عليه مهمة في الحياة هي هداية الناس وإخراجهم مما هم

فيه، كما عليه تبعة أخرى هي إنقاذ مجتمعه مما يُعاني من البؤس والشقاء والظلم والجهل، ومُقابل ذلك فعليه أن يتحمّل المشقّة والصعاب، ويذوق مرّ العذاب، وأجره في صبره، وثوابه في شكره مهما لقي. هذه المودة التي سادت بين المسلمين، والألفة التي عمّت أفرادهم، والمحبة التي تجلّت على أبنائهم سواء أكانوا من القاطنين أم من المُشرّدين قد جعل عطفاً عليهم من الذين يأتون إلى مدنهم وقُراهم وأماكن إقامتهم ومن الذين يمرّون عليهم وهم راحلون في طريقهم إلى منفاهم، وجعل الناظرين يتساءلون عن هذه الأخوة القائمة بينهم، والمحبة الماثلة عليهم، والعزيمة الواضحة فيهم فيأتي الجواب بعزو ذلك كله إلى عقيدتهم الإسلامية فهذا حبّب المشاهدين بالإسلام فما وجدوا أنفسهم إلا وقد أصبحوا مسلمين.

كما أن هؤلاء المسلمين كانوا يدعون إلى اعتناق دينهم الذي فيه الخير والصلاح للناس جميعاً، يدعون على الرغم من معرفتهم بما يُحيط بهم من قسوةٍ، وما يُحدق بهم من عنتٍ، يدعون وهم يعرفون النتيجة ويتحملون المسؤولية، وإن كان الحذر والأناة يأخذان سبيلها، وإضافةً إلى هذا فإن المسلمين كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم حُكّام البلاد الشرعيون، وأنّ الروس مغتصبون، ولا يصلحون للأمر ما داموا لا يدينون بدين الحق الذي يجعلهم يهتمّون بالرعية، وينظرون إلى الأفراد جميعهم نظرة العطف، والدليل على ما يجدونه هم من ظلمٍ من الحكام الطغاة الغاصبين.

وأصدرت القيصرية أمراً يجعل اعتناق أيّ دينٍ يُخالف الكنيسة الأرثوذكسية أمراً مُحرّماً، وفسحت المجال للنشاط التنصيري على مصراعيه وأمدّته بالدعم كلّه. وأمام الضغط الشديد، وفي سبيل الوصول إلى بعض الحقوق الرئيسية، ومن أجل تأمين بعض المصالح اليومية أو استلام بعض الأعمال الضرورية بل ومن أجل الحصول على لقمة العيش في كثيرٍ من الأحيان، ومن الوصول إلى حقّ الانتساب إلى المدارس كانت جماعات من

المسلمين تُوافق البعثات التنصيرية، وتقبل الانتساب إلى النصرانية على مذهبها الأرثوذكسي ظاهراً، وتتمّ عملية التعميد، وتُسجل في عداد النصارى، إذ لم يكن باستطاعة المسلمين بأن يتمتعوا بالمساواة مع الروس إلّا إذا تركوا دينهم واعتنقوا النصرانية الأرثوذكسية، وربما تمّ المساواة وقد لا تمّ وهو الغالب بل إنّ الثقة بالمسلمين المتنصرين لا يمكن أن يقبل بها روسي نصراني بسبب ما يحمل بين جوانحه من حقدٍ على هذا الدين.

نجحت سياسة التنصير نسبياً بعد أن استولت الحكومة القيصرية على أوقاف المسلمين، وأغلقت كلّ المدارس القرآنية، وفتحت مكانها مدارس خاصّة بأبناء المرتدّين من المسلمين، وأعفت هؤلاء المرتدّين من دفع الضرائب ومن الخدمة العسكرية، وألزمت الذين تمسّكوا بدينهم بتأدية ذلك عنهم، وعدّت اعتناق الدين الإسلامي جريمة يُعاقب فاعلها بالإعدام، وتكوّنت نتيجة ذلك جماعة من المرتدّين وسط المجتمع الإسلامي، وعندما عمل المستعمرون الروس على طرد المسلمين إلى أماكن نائية قدّمت أملاكهم للمرتدّين وإلى النبلاء الروس. وقد عُرف هؤلاء المُرتدّون من التتار باسم (كرياشن). وأعلن عن ارتداد ما يقرب من ثلاثمائة ألف من المسلمين، والوثنيين مع العلم أن جلّهم من الوثنيين ولكن يُجمعوا معاً للإيهام، وكان لهذا أثره الكبير إذ هاجرت أعداد كبيرة من بلاد التتار، واتّجهت إلى بلاد الباشكير، وإلى سهوب القازاق، وتركستان، ونشأت كراهية للروس من قبل التتار لا تمحى.

تطوّر مراحل الظلم: كانت هذه السياسة الروسية على أوجها أيام إيفان الرابع (الرهيب) واستمرّت في خلفائه، حتى هدأت نسبياً عندما تسلّمت أسرة رومانوف الحكم، ولكن لم تلبث أن عادت سياسة الاضطهاد والتنصير إلى سابق عهدها أيام بطرس الأكبر الذي يُعدّ القيصر الخامس من أسرة رومانوف ولكن كان مُشاركاً لسلفه إيفان الخامس في السلطة، ويُعدّ بطرس

الأكبر من الأعداء الألداء للمسلمين وقد رجع بروسيا إلى سياسة القمع بالنسبة إلى المسلمين ومحاولة تنصيرهم.

تابع خلفاء بطرس الأكبر سياسته تجاه المسلمين، وتُعدّ الامبراطورة حنّة (١١٥١ - ١١٦٩) أكثر ظلماً وتعسّفاً إذ قامت بالدور نفسه الذي قام به القيصر إيفان الرهيب، إذ أقفلت المساجد القائمة في حوض مجرى الفولغا الأوسط كلها، وصادرت الأوقاف، وهي التي أصدرت أمراً بإعفاء المسلمين المرتدّين من الضرائب ومن الخدمة العسكرية التي فرضها بطرس الأكبر، ومعاملتهم معاملةً حسنةً كي تشجّع غيرهم للسير على خُطاهم، كما أمرت بأن يُكلّف المسلمون المتمسّكون بعقيدتهم بأحطّ الأعمال، وأن يُجبروا بتأدية ما رفع عن المرتدّين من ضرائب وخدمة عسكرية، ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية، وإغلاق مدارسهم ومساجدهم كلها، ومصادرة الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس الدينية، وإنشاء مدارس تنصيرية على طول مجرى نهر الفولغا من قازان حتى استراخان، واختطاف أبنائهم ووضعهم فيها إن لم يُقبلوا بأنفسهم على تسجيل أطفالهم فيها. أما عقوبة الذي يدعو إلى الإسلام فهي الموت. وبعد الامبراطورة حنّة تراخت قبضة القياصرة نسبياً عن المسلمين.

وتولّت أمر الامبراطورية الروسية القيصرة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١) فأظهرت ليناً تجاه المسلمين إذ أمرت بمنع التنصير بالقوة، والسماح بفتح المساجد والمدارس التي سبق لها أن أغلقت، ومنع اختطاف الأطفال المسلمين وفصلهم عن أهليهم ووضعهم في مدارس تنصيرية، كما سمحت بتعليم المسلمين أبناءهم في مدارس خاصة بهم، وأعلنت عن السماح للتتار الذين شُرّدوا من بلادهم بالعودة إلى ديارهم إن رغبوا، هذه المعاملة اللينة، ولو في ظاهرها، قد مهّدت لعودة التتار الذين نُصّروا بالقوة في عهد إيفان الرهيب ومن تلاه بالعودة إلى الإسلام. وربما كانت رغبة كاترين الثانية كسب عطف

المسلمين نحوها، والتخفيف من مقاومة المسلمين للاستعمار الروسي في القرم وبلاد القفقاس إذ كانت الحروب قائمة، واستبسال المسلمين في الدفاع عن دينهم، وعن ديارهم، وخوفاً مما يرونه بما يحلّ بإخوانهم في بلاد حوض نهر الفولغا وخاصةً التتار، فكانت ترى في تخفيف سياسة البطش تخفيفاً في المقاومة الإسلامية وتسهيلاً لتقدّم جيوشها في القرم والقفقاس. ولكن هذه السياسة لم تحل دون إجراءاتٍ أخرى من الظلم والتعدّي، فقد أمرت بوضع اليد على أخصب الأراضي، وأقطعتها لنبلاء الروس، كما حدثت اعتداءات كثيرة على الأوقاف الاسلامية سواء أكانت أموالاً أم أراضي، وقد كثرت هذه الاعتداءات في القرم إذ بدأ التشفّي من سكان القرم بعد احتلال أراضيهم، التشفّي بإفراغ الحقد الذي يحمله الروس ضدّ القرميين لإسلامهم ولوقوفهم ببسالةٍ في وجه المستعمرين الروس.

ثم تجددت حملة الظلم أيام القيصر اسكندر الثاني (١٢٧٢ - ١٢٩٨)، وكانت حملة التنصير بشكلٍ فيها شيء غير قليلٍ من المكر، وذلك أنه أنشأ داراً للمعلمين خاصةً بالتتار المرتدّين، وتُدرّس العلوم باللغة التتارية، فنشأ نتيجة ذلك جيل من المرتدّين الذي أخذوا بالثقافة النصرانية المادية مع المحافظة على لغتهم التي يُمكنهم بواسطتها التعامل مع قومهم التتار ودعوتهم إلى ترك الإسلام وأخذ النصرانية عقيدةً لهم. كما قام المُتنصّرون بمساعدة مُنظّماتٍ أرثوذكسية بتجديد الحملة ضدّ الإسلام، وقد تمكّنوا من كسب ما يقرب مائة ألف إلى دياناتهم غير أن أكثريتهم إنما هي من الوثنيين، ومع الأسف فإن هذه الأرقام التي تُعطى تضمّ المسلمين والوثنيين معاً، وربما تصوّر القارئ، أنها تضمّ المسلمين فقط أو مع بعض الوثنيين مع العلم أن المسلمين لا يُشكّلون فيها أكثر من ٢ ٪ والباقي من الوثنيين وفي ذلك إيهام كبير، ولإعطاء نتائج مُثمرةٍ لجهود المُتنصّرين فيُشجّعونهم على الاستمرار والنشاط، وكي يجد المسلمون أمراً عادياً في ارتدادهم إذا ما فكّروا فيه حيث سبقتهم أفواج كثيرة من قومهم.

ونتيجة الضغط على التتار في حوض نهر الفولغا ومحاولة صهرهم في بوتقة المجتمع الروسي وهذا لن يتمّ إلا بارتدادهم وتخلّيهم عن الإسلام واعتناقهم النصرانية على المذهب الأرثوذكسي بالذات ودون سواه لذا فقد ارتبطت عندهم الفكرة الدينية بالعصبية القومية، فكانت كلمة تتار تعني إسلام، وعندما يعتزّ المرء منهم بقوله تتاري فإنما هو اعتزاز بإسلامه.

الظلم في بلاد القرم: لم ينل التتار في شبه جزيرة القرم ما ناله إخوانهم في حوض نهر الفولغا من ضغطٍ وظلمٍ وخاصةً فيما يتعلق بسياسة التنصير التي سار عليها القياصرة الروس، أو بالأحرى الحاقدون المستعمرون، وذلك لأن الروس عندما استولوا على شبه جزيرة القرم كانوا قد أفرغوا شيئاً من حقدهم، ومضى على تسلّطهم مدة من الزمن تراخت خلالها قبضتهم قليلاً نتيجة شدّة الضغط التي مارستها فتراخت العضلات نسبياً. ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد حرص المستعمرون الروس ألّا يشتدّوا كثيراً على تتار القرم خوفاً من تسرّب القوة العثمانية لهم، والتجسّس لها. وإذا كانت قد حدثت اعتداءات على أوقاف المسلمين فلم تكن على تلك الصورة التي وقعت في بلاد الفولغا، وإنما يُتلافى أمرها بعد مدة، وإذا كانت السلطة الاستعمارية قد اغتصبت السهول الساحلية لما وجدت فيها من مياه حُرّةٍ لم تعرفها في بقية مناطقها التي تُشرف على البحار، وشاهدت السواحل الدافئة التي هي محرومة منها في أرجائها الواسعة، وسُرّت بالسفوح الجبلية ذات المناظر الخلّابة والتي تُشرف منها على البحار ذات الحركة الدائمة والتي لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً، فالسفن في ذهاب وإياب دائبين، غير أن سكان القرم لم يكونوا يهتمّوا بتلك السهول كثيراً حيث كانت مُعرّضةً لأعمال القرصنة وخاصة من قبل أهل جنَوَه الذين كانوا يدخلون إلى البحر الأسود، يطرقون تلك السواحل حتى لقد أصبحت لهم مراكز فيها. وبصورةٍ عامة فقد كانت وطأة الروس على تتار القرم أخفّ بكثير من وطأتهم على تتار الفولغا.

الاستعمار في سهوب القازاق: بعد أن احتلّ الروس سهوب القازاق وجدوا فيه مُجتمعاً بدوياً، معرفته بالإسلام معرفة سطحية، ولم يجدوا فيه تلك العزيمة القوية للدفاع عن عقيدته بالقتال وتحمّل النكبات والصبر على الأذى، لذلك فكّر الروس باتخاذ القازاق قوةً تساعدهم على الوقوف في وجه التتار والترك على حدٍّ سواء. فعمل الروس على نشر ثقافةٍ نصرانيةٍ مادية بين القازاق فنشأت جماعة ذات ثقافةٍ تختلف عن ثقافة القازاق القديمة وعن ثقافة التتار والأتراك المتأثرة بالإسلام، فنشأ بينهم مُتعلّمون عملوا على بثّ الحضارة الغربية بين أبناء قومهم، ويرون أنه لولا الروس لبقي القازاق على درجةٍ من التخلّف لذا يجب التعاون غير المحدود مع الروس وتخليص ثقافة القازاق مما لحقها من آثار الإسلام. وقامت السلطة الاستعمارية بدعم هؤلاء، ومدّهم باحتياجاتهم لإظهار أفكارهم ومشروعاتهم إلى الواقع فأقامت مدارس قازاقية روسية عام ١٢٥٧ هـ، وفي العام نفسه أنشأت مدرستين عسكريتين لأبناء القازاق في كل من «أومسك» و«أورنبرغ»، وبذلت جهوداً كبيرة لبثّ الثقافة النصرانية المادية الحديثة بلغة أهل القازاق. ويبدو أن كل ذلك كان طُعماً فلم يأتِ عام ١٣١٠ حتى بدأت تتدفّق أفواج الروس نحو سهوب القازاق وتستولي على أحسن الأراضي فيها، وما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ إلا وكان مليون روسي في بلاد القازاق، وقد تملكوا أفضل أراضيها، فقلّت المساحات الرعوية في المنطقة، وتناقصت معها أعداد القطعان، ونتج عن ذلك انخفاض في المستوى المعاشي للقازاق، فأحسّ القازاق بما كان يُدبّر لهم، وشعروا أن هذا الاستعمار الروسي إنما يُهدّد حياتهم بل وجودهم في ديارهم لذا نشأ نزاع دائم بين القازاق والمستعمر.

الاستعمار في شمالي القفقاس: لم يجد الروس مجالاً للاستيلاء على الأراضي في شمالي القفقاس والاستثمار الريفي كي تتدفّق إليها سيول الفلاحين الروس إذ أن الأرض جبلية والمساحات الزراعية محدودة، إضافةً إلى قوة

السكان وشجاعتهم، وتحصين بلادهم، وإمكانية الاتصال بالدولة العثمانية، لذا وجد الروس من الأفضل عندما سيطروا على المنطقة ألا يُثيروا السكان، ويكتفوا بإنشاء مراكز عسكريةٍ ونقاط حمايةٍ وتركوا الشأن كلّه بيد المتنفّذين، وهم العلماء الذين أعلنوا عداءهم الصريح للروس، ومع أن المستعمرين قد تحاشوا الصدام معهم لما لمسوه من قوة أبناء المنطقة، ولم يُحاولوا الدمج الثقافي، أو التنصير سواء أكان إجبارياً أم بالإغراء والعمل إلى ردّة السكان عن دينهم غير أن حروباً طاحنةً استمرّت بين السكان الذين قادهم العلماء وبين المستعمرين الروس الذين اتّخذوا كل وسائل الوحشية ليدبّ الذعر في النفوس، وليهجر السكان بلادهم فيدخلها المستعمرون، وقد حدث هذا، وخاصةً بعد أن ضعف أمر الشيخ محمد شامل ووقع أسيراً بيد الروس عام ١٢٨١ هـ، ثم حدثت موجات أخرى من الظلم والاضطهاد ألجأت السكان إلى انتفاضاتٍ اتّخذتها السلطات الاستعمارية حجةً لعمليات سحقٍ وإبادةٍ ففرّت جماعات إثر جماعاتٍ على شكل موجاتٍ متكرّرة.

الاستعمار فيما وراء القفقاس: إن هذه المنطقة تختلف عما سواها من المناطق الإسلامية التي سيطر عليها المستعمرون الروس وذلك بسبب كثرة الصراعات القائمة فيها، حيث هناك أولاً صراع بين المسلمين وبين النصارى من الأرمن، ويكاد لا ينتهي هذا الخلاف.

ولما كان أكثر سكان المنطقة من الشيعة لذا فإن نزاعاً فكرياً قائماً، يُضاف إليه أن المتمسكين بالشيعة يرون الاتجاه نحو إيران بسبب العاطفة الدينية، غير أن الشباب المثقفين الذين يميلون دائماً إلى القوة لا يرون هذا الرأي فإن الاتجاه نحو إيران لا يُشكّل قوةً، فالشيعة نسبة قليلة في العالم الإسلامي لا تزيد على ٧٪ من المسلمين فيه، لذا من الأفضل الاتجاه نحو الدولة العثمانية صاحبة النفوذ بين المسلمين وأن أهل السنة يُمثّلون ٩٣٪ من المسلمين. وإذا كانت الدولة العثمانية قد أخذت طريقها نحو الضعف وأوشكت على الانهيار

إلا أنه من الأهمية بمكان العمل على عودة القوة إليها وهو أمر ليس فيه استحالة. فلما دخل الروس مستعمرين للمنطقة لم يشعر السكان بوطأةٍ شديدةٍ عليهم نتيجة النزاعات القائمة بينهم، كما أن الروس قد أدركوا ذلك فلم يعملوا على دمج السكان بالمجتمع الروسي، ولم يلجأوا إلى سياسة التنصير فإنهم لو فعلوا ذلك لبرز العداء ضدّهم، ولوحّد هذا التصرّف السكان للوقوف في وجه المعتدين، غير أن الروس قد عملوا على مكافحة الاتجاه نحو الدولة العثمانية لما فيه من خطرٍ عليهم إن لم يكن عاجلاً فهو واقع في المستقبل لا محالة، وكان ضغطهم على الشيعة، وعلى الذين يرون الاتجاه نحو إيران أخفّ من ضغطهم على المسلمين، كما أن المعاملة لم تكن واحدةً لأفراد الفريقين.

الاستعمار في تركستان: سيطر الروس على تركستان، ولم يُحاولوا دمجها في المجتمع الروسي، ولم يُحاولوا تنصير أهلها بالقوة، وفوق كل هذا فقد أبقوا فيها محميّتين هما بُخارى، وخيوه (خُوارزم)، وتُحكمان تحت إشراف المستعمرين الروس، ولم تنفلت نحوها أفواج المستعمرين حيث تكثر فيها المساحات الصحراوية والسهبية، ويعيش السكان في واحات على طول مجاري الأنهار أو في الداخل وهذه الواحات لا تساعد على قدوم ريفيين جدد إضافة إلى سكانها الذين تكاد تغصّ بهم، وباقي الأرض لا يصلح كذلك للاستثمار. لذا فإن العمال والمزارعين الروس الذين قدموا إلى تركستان كانوا قلةً، أما الموظفون الذين جاءوا لإدارة شؤون البلاد، والجنود الذين قدموا لتثبيت أقدام المستعمرين وللحماية فقد أقاموا لهم مستوطناتٍ خاصةً بهم مهمّتها الإشراف العام.

لم يتدخّل الروس في الشؤون الدينية والتعليمية بشكلٍ مباشر، وإنما بطريقةٍ ماكرةٍ فمن الجانب الديني شجّعوا الطرق الصوفية، والدعوة إلى التواكل، والاكتفاء بالقليل، والزهد بالدنيا، وقبول الخرافات، ومقت فكرة

الدين للدنيا والآخرة، وأن العمل مطلوب والجهاد واجب، ودعم الروس هؤلاء للوقوف في وجه العلماء الذين عرفوا حقيقة دينهم، وعلموا مُهمّتهم في الدنيا فحاولوا القيام بها والدعوة إلى النهوض بالعبء الملقى على عاتق المسلمين.

ومن الجانب التعليمي فقد حرص المستعمرون على الإبقاء على الأسلوب القديم في التعليم، ولم يُحاولوا إدخال أيّ تطورٍ في هذا المجال، لذا فقد استمرّ الجهل، وسادت الخرافة، وتأخرّت البلاد.

وقد عمل القلّة من المستعمرين الذين جاءوا على شكل عمالٍ وريفيين في استثمار القطن، والإشراف على السكان للعمل في هذه الزراعة، وتشجيع ذلك، وغدت تركستان مستوطنةً استثمارية، ويُعدّ القطن الثروة الوحيدة، كما استفاد المستعمرون من القطعان الكثيرة التي ترعى في السهوب الواسعة.

ونلاحظ أن اضطهاد المستعمرين الروس للمسلمين قد اختلف بين جزءٍ وآخر، وأن أشدّه كان على سكّان حوض نهر الفولغا، وخاصةً التتار منهم، كما اختلف الأمر بين قيصرٍ وآخر، كما أن ردود فعل المسلمين قد تباينت بين منطقةٍ ومنطقةٍ، وكان تطوّر المسلمين متمايزاً بين إقليمٍ وثانٍ.

الحرية الدينية: لم يتذوّق المسلمون في الإمبراطورية الروسية طعم الحرية أبداً منذ وطأت أقدام المستعمرين الروس أرضهم بل لم يعرفوا إلا الظلم والاضطهاد حتى ألفوه وأصبح كل فردٍ وكل أسرةٍ منهم ينظر إلى الجزّارين وينتظر دوره في الذبح بسببٍ أو من غير سببٍ، كما تنظر الخراف إلى القصّاب في المسلخ وتحسّ أن دورها قادم لا محالة من غير أن تعرف ما الذي يدعوه إلى ذلك لصحّتها أم لهزالها، لقوّتها أم لضعفها، لطعامها أم لتكون طعاماً لا تدري فهي عجماء. والمسلمون يشعرون أن النكبة نازلة بهم لا مناص إما لأرضهم الخصبة التي حباهم الله إياها ويُريد الروس أن يغتصبوها منهم، أو لأنّ بلادهم جبلية فقيرة، ولكنّها حصينة يخشى الظالمون أن يتحصّن بها

أهلوها، أو أنها صحراوية ولكن فيها مراعٍ . فهم بحاجة إلى قطعانها، أو أنها سهبية فهم بحاجة إلى قطنها فبأي أرضٍ يسكن المسلمون حتى يأمنوا المستعمرين الروس؟ وهؤلاء كان آباؤهم حكّاماً يجب الانتقام منهم، وأولئك ضعفاء يُخشى عليهم من الآخرين فيجب استعمارهم قبل وقوعهم بيد غيرهم، بعضهم مُتمسّك بعقيدته فيجب إذلاله وردّه عن دينه، وذاك مهمل لشؤون عقيدته لا بدّ له من أن يتديّن في يوم فلا بدّ من القضاء عليه. فبأي حالٍ يجب أن يقع الظلم على المسلمين ولا ذنب لهم إلا الحقد من الصليبيين. هذه هي الحرية العامة العادية فالأولى أن يكون الضغط على الحرية الدينية أكثر لأن أساس الظلم إنما هو قائم على التشفّي من أصحاب العقيدة الإسلامية لانتمائهم إليها والتمسّك بها، لذا فلم يعرف المسلمون أيضاً للحرية الدينية طعماً.

أحسّ المسلمون بشيءٍ من الحرية الدينية أيام الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦ - ١٢١١) إذ رأت أن الضغط على المسلمين في المناطق التي تخضع لها إنما يُجبرهم ذلك على التحرّك لمصلحة الدولة العثمانية التي هي معها في حربٍ، وتُريد انتزاع أجزاء منها واقتطاع بعض أراضيها، لذا كان من الضرورة بمكانٍ تخفيف الضغط عن مسلمي مناطق نفوذها لذا فقد أعلنت التساهل الديني عام ١١٧٨، وسمحت عام ١١٨١ للتتار بالعودة إلى قازان بعد أن كانوا قد طُردوا منها، ورفعت الحظر عن عملهم في التجارة بعد أن كانوا قد مُنعوا منها، ونادت بالحرية الدينية عام ١١٨٧، وأعطت المسلمين الحقّ في بناء المساجد، وتأسيس المدارس القرآنية، ووافقت على تأسيس المجلس الإسلامي في أورنبرغ عام ١١٩٧، فنشط عندها التتار بالدعوة إلى الإسلام حتى تمكّنوا من نشره في إقليم باشكيريا الذي كانت لا تزال فيه بعض الجزر الوثنية، كما عملوا على نشره في سيبيريا الغربية، وفي سهوب القوزاق.

لكن ذلك لم تكن إلا مدة قصيرة وانقضت، وعاد الظلم يحيق بالمسلمين

من كل جانب، وخاصةً أولئك التتار الذين عملوا على نشر الإسلام في أول فرصةٍ سمحت لهم رغم قصرها، ولسببٍ، فكيف بهم لو كانت لهم حرية تامة؟ واشتدّ الضغط واشتدّ، وعظُم البلاء على المسلمين، واكفهرّ الجوّ عليهم، وخيّم الظلم، وصبروا، وبلغ من ذلك الصبر أن كتم كثير منهم إيمانه عدة قرونٍ من الزمن، فكان ينتقل الكتمان خلال هذه المدة من الأب إلى الابن فالحفيد.. حتى يأذن الله.

وظنّ الروس بعد هذه المدّة من الشدّة وهذا الوقت الطويل من البلاء أن الإسلام قد انتهى أمره في مُستعمراتهم أو على الأقلّ لم ينتشر بعد هذا، بل هو في اضمحلالٍ وضمورٍ، وسيؤدّي مع الزمن إلى أفوله نهائياً لذا لا مانع من التراخي في حقّ أهله فإن الشدّة تُطيل في أجله، وإن الاضطهاد الدائم يؤلّف بين أبنائه، ويُوحّد بين أقاليمه. ولا شكّ أنّ هذا الزمن من الضغط قد أضعف عضلات الأيدي فتراخت القبضة الضاغطة وقلّ العزم فيها وخفّت القوة منها. وفي الوقت نفسه فإن الحياة النيابية قد دخلت روسيا بعد عناءٍ ثقيلٍ ومحاولاتٍ يائسةٍ للتمسّك بالتسلّط وقهر الشعوب، وقرر المجلس النيابي (الدوما) الروسي عام ١٣٢٣ هـ إعطاء الحرية الدينية الكاملة، ويا للفاجعة لدى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ولدى الحكم القيصري والنصارى عامة.

لقد عاد إلى الإسلام التتار الذين فُرضت عليهمُ النصرانية في القرن العاشر في عهد القيصر الأول إيفان الرهيب، لقد كتموا إسلامهم ما يقرب من أربعة قرونٍ، وهؤلاء الذين عرفوا باسم (ستارو كرياشين) أي المرتدّون القدماء.

وعاد إلى الإسلام التتار الذين أجبروا على النصرانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين في عهد الامبراطورة حنّة، والقيصر إسكندر الثاني، أيْ لقد كتموا إيمانهم بين ربع القرن والقرنين وهم الذين عرفوا باسم (نوفو كرياشين) أي المرتدّون الجدد.

ودخل الإسلام إحدى وتسعون أسرةً عام ١٣٢٤ ، وفي العام نفسه اعتنقه أيضاً ثلاثة وخمسون ألفاً ، وهؤلاء جميعاً قد انتسبوا إلى الإسلام من جديد .

وإن قبيلة (الفوتياك) من الفنلنديين الشرقيين الذين يُقيمون شمال مدينة قازان قد انتشر الإسلام بين أبنائها على الرغم من أن مُعظمهم كان قد عُمِّد ، أي دخل في النصرانية .

وإن قبيلة (الشريمس) وهي من الفنّ أيضاً مثل قبيلة (الفوتياك) قد أسلم القسم الأعظم منها على الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا نصارى اسماً ، وقد دخلت قراهم جميعها بالإسلام نتيجة اتصالهم بالتتار والباشكير الذين كانت عاداتهم مُتشابهة إلى حدٍّ ما ، وذلك على الرغم من الضغط الذي كان عليهم والحرب النفسية التي يلقونها إذ كانا قاسيين حيث كان الروس يُطلقون عليهم اسم (الكلاب المختونون) لأنهم يختنون أبناءهم إلا أنهم قد تحمّلوا هذا بصبرٍ وجلدٍ . وكانوا تحت هذه الظروف القاسية التي يعيشونها يتركون قراهم ويُؤسّسون قرىً خاصةً بهم على بعد عدّة أميالٍ ، وكانوا في سجلّات الدولة وثنيين ، فلم يستطيعوا بناء مساجد لهم ، فما أن أعطيت الحرية الدينية حتى قامت المساجد وارتفعت المآذن .

وإن قبائل (الجوفاش) الذين بلغ عددهم المليون آنذاك وكانوا قد عُمّدوا جميعاً فإن الإسلام قد انتشر بينهم حتى عمّ، وارتفعت المآذن في قرى هذه القبائل ، وأقيمت المساجد ، وأقبل الناس عليها مُعلنين إسلامهم ، وإن كثيراً من القبائل الوثنية ما كان دخولها في النصرانية إلا تغطيةً لاعتناقها الإسلام .

أمام هذا التحوّل السريع نحو الإسلام خافت الحكومة الروسية على أتباعها من الذين كانت تُريد أن تُدخلهم في عقيدتها ، ورهبت أن ترى أمامها قوةً تحسب لها حساباً في الحالات العادية فكيف بعد أن أذاقتها مرّ العذاب، وكوتها بنار الظلم والاضطهاد ، واختطفت أبناءها من بين أيدي أهليهم،

وأنشأتهم على النصرانية ، وبسبب هذا الخوف فقد أقامت الجمعيات الدينية لحماية عقيدتها ، وفرضت اللغة الروسية ، ولكن هذا لم يفدها شيئاً ، إذ قام التتار في هذه المدة بنشاطٍ كبيرٍ للدعوة إلى دينهم سواء أكان في منطقة الأورال أم في شبه جزيرة القرم ، وعادت روسيا فألغت الحرية الدينية ، ولم تلبث أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها قامت الثورة الشيوعية .

الفصل الثالث

المقاومة الإسلامية

لا نستطيع أن نُحدّد المقاومة الإسلامية كردّ فعلٍ للظلم الذي نالهم من الروس، فقد يُولّد الضغط انفجاراً، وربّما ينتج عنه خنوع، وقد تُسبّب سياسة اللين هدوءاً ورغبةً في التعاون، وربّما تؤدّي إلى الثورة، لذا فإن ما حدث في المناطق الإسلامية التي هي تحت سيطرة الاستعمار الروسي من حركاتٍ ومقاومةٍ لم تكن بسبب عاملٍ واحدٍ وإنما نتيجة عدة عواملٍ مجتمعةً وإن كانت تلتقي كلها تحت عنوانٍ واحدٍ هو مقاومة الاستعمار الروسي الغاشم.

في حوض نهر الفولغا: إنّ عنف الصدمة التي أصابت المسلمين في حوض نهر الفولغا من وحشية الروس في ظلمهم واضطهادهم قد أذهلت الناس فأصمّت آذانهم وكمّت أفواههم بعد الذي أصابهم فما من أسرةٍ إلّا ونُكبت، وما من عائلةٍ إلا وحلّت بها مُصيبة، وما من فردٍ إلّا وأصابه شيء، فخنع السكان وسكتوا. فلمّا كانت أيام الإمبراطورة كاترين الثانية ورُفع شيء من الضغط عنهم شعروا بنزول قسطٍ من الهمّ عن كاهلهم واستنشقوا شيئاً من الحرية، وصحوا قليلًا فقام الباشكير بحركة مقاومةٍ عام ١١٨٧ غير أنها قد قُمعت بعنفٍ وسُحق القائمون بها بصورةٍ أخافت الآخرين فسكتوا مُكرهين.

وعندما أُعطيت الحرية عام ١٣٢٣ هـ لاحظنا عودة الذين فُتنوا عن

دينهم بالقوة إلى إسلامهم وقام التتار خاصةً بنشاطٍ واسعٍ في مجال الدعوة، واعتنق كثيرون الإسلام من جديد.

وأصرّ السكان على بقاء الحرف العربي في كتاباتهم رغم اختلاف اللغات، وحاول الروس تغيير هذا الحرف جاهدين ولكنهم عجزوا عن ذلك، وكانت اللغات السائدة بين مسلمي حوض الفولغا هي العربية، والفارسية، ولغة أهل قازان التتارية. وقد طُرحت فكرة الكتابة باللغة المحلية لكن لم يلبث أن انتبه المسلمون إلى ما في ذلك من خطرٍ في ظهور اللغات الإقليمية إذ تُشكّل تهديم وحدة الثقافة الإسلامية التي تضمّ المسلمين جميعاً، وبرزت محاولة للتقريب بين اللغات المحلية واللهجات.

وفي العام الذي أعطيت فيه الحرية عُقد مؤتمر سري في غوركي (نيجني نوفوغورد) حضره ما يقرب من مائة مندوبٍ من التتار، طالبوا بالحقوق المدنية الشخصية، وبالمساواة مع الروس كحقٍّ من حقوق الوطنية. وبعد عامٍ عُقد مؤتمر ثانٍ سري في مدينة (بطرسبرغ) حضره مائة مندوب من مختلف المناطق الاسلامية، وفي العام نفسه أعلن عن عقد مؤتمر في (نيجني نوفوغورد) حضره مائتا مندوبٍ من مختلف المناطق الإسلامية أيضاً، ومن مقرارته المطالبة بالحرية الدينية، وحرية التعليم، كما تقرّر إنشاء حزبٍ سياسي للمسلمين جميعاً الذين يعيشون في الامبراطورية الروسية.

قام هذا الحزب أو الاتفاق الإسلامي وعرض التعاون مع الأحزاب الحرّة التي كان يمثّلها حزب الدستوريين الديمقراطيين غير أن الحقد الصليبي جعل النصارى يرفضون هذا التعاون، وقطع قادة هذا الاتفاق الأمل من التفاهم مع الحكام أو مع الأحزاب أو مع أيّة مجموعاتٍ أو تجمّعاتٍ، الأمر الذي جعل الشباب الإسلامي بل وحتى القادة منهم يترك الإمبراطورية الروسية مُهاجراً إلى إحدى المناطق الإسلامية ليتخلّص مما يجد أو ينضمّ إلى الأحزاب والمنظّمات التي تعمل لإسقاط النظام كالاشتراكية والشيوعية والتي عملت

أيضاً على خداع المسلمين وإخفاء حقيقتها، وانتهى حزب (الاتفاق الإسلامي)، وتشكّل بعد ذلك عدة أحزاب في بلاد حوض نهر الفولغا ومنها:

١ - حزب برك (الوحدة): تأسّس في قازان عام ١٣٢٤ هـ، وأكثر قادته من العلماء (الملّا)، كما دخل فيه عدد من الذين فُتنوا بالأفكار التي قامت تُعادي الإمبراطورية وتنزع إلى التغيير، لذا كانت الوجهات مُتباينة في حتى تصل إلى حدّ التضارب، وكان يهدف إلى إقامة دولةٍ إسلاميةٍ مع منهجٍ اقتصاديٍ يعتمد على أسسٍ اشتراكيةٍ في مجال الزراعة والعمل، ولم يعمّر أكثر من عدة أشهر إذ قضت عليه الدولة وألقت بقادته في السجن.

٢ - حزب تانغتشيلار (محاربو نجمة الصبح): وتأسّس في قازان أيضاً في العام نفسه الذي قام فيه حزب الوحدة السابق، وكان الموجّهون فيه مُتأثّرين بالأفكار الاشتراكية، ويُركّزون اهتمامهم على الفلاحين الذين يرون أنهم مظلومون لدرجةٍ كبيرةٍ دون تحديد الجهة التي يأتي منها الظلم وهو الاستعمار الذي اغتصب منهم أراضيهم، واستعبدهم بعد ذلك. وقامت الدولة بالقضاء عليه كسابقه قبل أن ينصرم العام الأول على تأسيسه.

٣ - حزب أورال تشيلار (محاربو الأورال)، وتأسّس هذا الحزب في مدينة أوربنورغ عام ١٣٢٥، وقد تبنّى رجاله الأفكار الشيوعية مع احترام وتقدير الإسلام، وهذا ناتج عن الجهل بالإسلام أولاً، ثم عن الهزيمة النفسية وسيطرة الأفكار الاشتراكية والشيوعية، وخداع الناس بها، ثم وقوع الظلم على البائسين الذي يُمثّلون أكثرية أهل الريف وجموعٍ كبيرةٍ من أهل المدن، والجميع يُريدون استغلالهم مع وجود عطفٍ عليهم، ولم تمضِ أكثر من أربعة أشهرٍ على قيامه حتى قُضي عليه.

وهذا يدلّ على مراقبة الدولة للناس مراقبة شديدة، ووجود البؤساء بأعدادٍ كبيرةٍ، وانتشار الأفكار المناهضة للسلطة، وكثرة النقد للنظام،

وشعور الحكومة بقرب الانهيار وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهذا ما شجّع على المجاهرة بالعداء، وانقياد المسلمين مع التيار المعادي للحكم دون التميّز بمعاداة الروس الذين هم بالأساس سبب ما نزل بالمسلمين من بلاءٍ وما أوصلهم إلى الصورة التي هم فيها من بؤسٍ وشقاءٍ، وأن تغيير الحكم لن يُبدّل شيئاً ما دامت السلطة بيد الروس، وهذا ما حدث فلم يحصد المسلمون سوى الشوك الذي ثقّب أجسادهم.

عقد المسلمون مؤتمراً كبيراً في مدينة موسكو شهده تسعمائة مندوبٍ من الأقاليم الإسلامية كافةً والتي تقع تحت دائرة نفوذ الإمبراطورية الروسية وكان ذلك في شهر رجب من عام ١٣٣٥ هـ، وبرزت في المؤتمر أفكار تحاول التوفيق بين الإسلام والاشتراكية نتيجة الجهل القائم على الرغم من السمة البارزة في المؤتمر في التركيز على الإسلام والارتباط فيه والتعظيم له، والتعاون مع أمصار الأمّة الإسلامية في أيّ مكانٍ كان موقعها على الأرض، وظهر على الساحة فريقان، فالتتار يرون استقلال المسلمين الذاتي ضمن دولةٍ روسيةٍ، ويُخالفهم أهل تركستان وأذربيجان الذين يرون اتحاد المسلمين وانفصالهم عن الروس. ولا نستطيع أن نقول: إن التتار كانوا أقلّ حماسةً من إخوانهم المسلمين من أهل تركستان وأذربيجان أبداً، وإنما كثرة الروس الذين عاشوا بجانبهم مُستعمرين، وطول الزمن الذي قضوا معهم وهو أربعة قرونٍ كان له أثر، مع أن رؤية المستعمرين الظالمين لهم على الدوام بالقرب منهم يُؤدّي إلى الكراهية لهم والحقد عليهم إلّا أن هذا يزيدهم استعلاءً عليهم بالإيمان لا حقداً ويريدون منهم أن يروا منهم أخلاقهم الإسلامية عندما يكونون حُكّاماً، أو على الأقل مُساوين لهم في شؤون السلطة. ومع وجود فريقين أو اتجاهين بين المسلمين في مؤتمر موسكو، فقد كان هناك اتفاق على بعض النقاط الأساسية، وصدر عن المؤتمر القرارات الآتية:

١ - تشكيل إدارةٍ مركزيةٍ لتنسيق شؤون المِلّة الإسلامية.

٢ ـ تشكيل مجلس إسلامي مركزي (ملي شورى).

٣ ـ تشكيل لجنة إسلامية تنفيذية.

وفي شهر رمضان من العام نفسه أي بعد شهرين من مؤتمر موسكو عُقد مؤتمر في قازان حضره مسلمون حوض نهر الفولغا والقرم وشمالي القفقاس فقط، وتقرّر فيه العمل على فكرة اتحاد المسلمين في الامبراطورية الروسية، وأعلن عن وحدتهم ثقافياً وسياسياً، وعزّزت الإدارة الإسلامية المركزية بإنشاء مجلسٍ حزبيٍ (حزبي شورى) مقرّه قازان، وكان شديد الحرص على وحدة المسلمين.

بدأ المجلس الإسلامي بتجنيد المسلمين تحت قيادة ضباط من التتار والباشكير. وأنشأ المجلس إدارة دينية مركزها مدينة (أوفا) كلّفت بالإعداد لعقد مجلسٍ ملّي في (أوفا) في ٤ صفر من عام ١٣٣٦ هـ لبحث مصير المسلمين في الإمبراطورية الروسية، غير أن الثورة الشيوعية قد قامت في مطلع العام أي حوالي الشهر قبل عقد المؤتمر فحالت دون إنجازه.

وإذا كانت الحركات الإسلامية المحلية قد اختلفت في أهدافها إلّا أن هناك نقاط اتفاقٍ تلتقي فيها جميعاً وتعمل لها بحرصٍ شديدٍ، وهي الحرية الجماعية، والمحافظة على الأساس الديني للمجتمع الإسلامي، وافترقت بين الانفصال عن الروس أو الاستقلال الذاتي ثقافياً وسياسياً داخل دولةٍ روسيةٍ اتحادية اشتراكية ليبرالية. وكان الداغستانيون يرون أن يكون الإسلام أساساً للعمل، ويرى التركستانيون أن يكون التحرّك بمرونة على حين أن هناك من يرى العلمانية دون الرغبة في هدم الكيان الإسلامي ـ حسب قناعاتهم ـ مع أنهم يعملون على هدمه دون علمٍ ومن غير درايةٍ، فإن العلمانية تعني اللادين أي لا إسلام.

في بلاد القرم: لم يلق التتار في شبه جزيرة القرم في هذه المرحلة ما لقيه إخوانهم التتار وغيرهم من المسلمين في حوض نهر الفولغا، إذ أعطتهم

الإمبراطورة كاترين الثانية التي ضمّت بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية الحرية الدينية، وممارسة الشعائر كما أبقت الدعاء للخليفة العثماني أيام الجمع، وإن لم يستمرّ هذا الأمر طويلاً، حيث صادرت أفضل الأراضي على شواطئ شبه الجزيرة، وعلى كلٍ فإن سياسة اللين هي التي كانت غالبة على السياسة الروسية، وهذا ما أوجد محاولاتٍ من السكان لمسايرة الروس والتعاون معهم، وإن كان هذا لدى فئاتٍ قليلةٍ غير أن هذه الفئات كانت ذات نفوذٍ في الأوساط وقد وُجدت نتيجة الخلاف بين الزعماء، فلما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والروس، وكانت شبه جزيرة القرم في مرحلةٍ من الزمن أحد مسارح هذا الصراع لذا فقد نشأ بين المُتنفّذين من يعمل للتعاون مع الروس مُنافسةً للذين يتعاملون مع العثمانيين وبخاصةٍ في الوقت الذي ظهرت فيه قوة الروس وبدا ضعف العثمانيين أو في الأيام التي مالت فيه كفّة القتال لصالح الروس الأمر الذي شجّع وجود عناصر مُؤيّدةٍ لهم أو حرّك ذلك ما في نفوس أصحاب الأطماع دون النظر إلى عواقب الأمور، ومصالح الأمّة الإسلامية والأخوة في العقيدة.

ودعا اسماعيل غسبرالي إلى استعمال اللغة التركية وكتابتها بأحرفٍ (كيريلية) روسيةٍ، وأسّس جريدة الترجمان التي استمرّت في الصدور ما يقرب من ثلث قرن (١٣٠١ ـ ١٣٣٢) في مدينة (باغجة سراي) قاعدة بلاد القرم، وكان صدورها بهذه اللغة التي اقترحها.

ووجد حزب (ملّي فرقة) أي الجماعة الإسلامية عام ١٣٣٥، وعندما حلّت الفوضى في الإمبراطورية الروسية بسبب الهجوم الألماني، والقضاء على الحكم القيصري شكّل المسلمون في القرم حكومة إسلامية تتارية في مدينة (سمفروبول) بزعامة حزب (ملّي فرقة) فأعلنت استقلال البلاد، وأجرت الانتخابات العامة، واجتمع المؤتمر الوطني المنتخب، ووضع دستوراً للبلاد، ولكن قُضي على هذه الحكومة بهجوم مُفاجىء من مدينة (سيباستيبول) بعد

ثلاثة أشهر فقط من قيام الحكومة، وكان هذا الهجوم من قبل الحكومة الروسية.

وبعد ثلاثة أشهر أخرى احتلّ الألمان المنطقة، وشكّلوا حكومة تتارية بإشرافهم من أعضاء حزب (ملّي فرقة)، وبقيت حتى جاء الروس البيض (المانشفيك) أو ما يدعون بالليبراليين، واحتلّوا القرم، وحلّوا حزب (ملّي فرقة)، واستمرّوا بالحكم حتى ورثهم الشيوعيون ثانية.

في شمالي القفقاس: جابه سكان شمالي القفقاس الروس بمقاومة عنيفة عام ١١٩٨ هـ قادها منصور أشرمه، ومع ذلك فلم يسمح الروس لأنفسهم بعد السيطرة على المنطقة التدخّل في شؤون البلاد وإنما تركوا للسكان قيادة حكم بلادهم، وهذا ما سبّب تشجيعاً من بعض المتنفذين للولاء إلى المستعمرين الروس، على حين وقف علماء الدين الإسلامي موقفاً عدائياً واضحاً للمستعمرين الأمر الذي جعل المقاومة تأخذ صفة الجهاد أي الطابع الديني. وقاد هؤلاء العلماء القتال ضدّ الروس حتى هُزموا أخيراً، ودخل المستعمرون البلاد بقسوة ووحشية ذُعر منها السكان ففرّت جماعات من وجههم ورحلوا خارج البلاد، ثم قام الداغستان بحركة أيضاً عام ١٢٩٦، ويبدو أن الداغستانيين كانوا هم المحرّكون الرئيسيون في بلاد شمالي القفقاس كلها. ونتيجة الضغط الذي استمرّ فقد فرّت جماعات جديدة من المنطقة كما أن جماعات أخرى خافت على نفسها فبدأت تحاول في أن تجد من تعتمد عليه لتحمي نفسها وأسرها، فتعاون بعض الشباب مع الاشتراكيين، وانضمّ آخرون للشيوعيين، وتعاونت جماعة مع حكومة (بتروغراد) عندما قامت، غير أن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم ذلك النفوذ الواسع، وإنما كان هذا للعلماء الذين كانوا يُقدّرون الوضع أكثر من غيرهم، ويعرفون ما يتفق مع إسلامهم ومَن أولئك الذين يُعادونه، لذا فلم يتعاونوا مع حكومة بتروغراد، ولا مع الاشتراكيين، ولا مع الشيوعيين، ولا مع المسلمين الذين اتّخذوا إحدى هذه الجماعات دعامة لهم، أو سلّماً يرتقون

عليه، أو وسيلة لتحقيق مصالحهم، ولم يكونوا في الواقع سوى جماعات تستند عليها تلك الفئات لتأمين السيطرة على الحكم ثم الضغط على المسلمين، والنصر على مُنافسيها.

ولما كان العلماء هم أصحاب الكلمة المسموعة لذا فلم تنشأ أحزاب سياسية في داخل البلاد ذات أطماع اجتماعية أو أهداف مُعيّنة لتحقيق بعض مصالح أعضائها، ويظهر أن القاعدة الصلبة في شمالي القفقاس إنما كانت مُركّزة في بلاد داغستان وقوامها العلماء، وقد أعدّوا ما استطاعوا لهم من قوة وتنظيم لإعلان الجهاد، وما أن بدأت أحداث الفوضى في البلاد حتى سيطروا عليها وضبطوا أمرها دون التعاون مع جهة أو المفاوضة مع تنظيم.

في أذربيجان: على الرغم من دخول أذربيجان تحت سيطرة الاستعمار الروسي إلّا أنّ النفوذ الديني كان للعثمانيين والإيرانيين إذ لم يُحاول الروس العمل على تحويل السكان إلى سلاف، كما أن التنصير الإجباري والضغط لم يكن على مستوى ما كان عليه في منطقة حوض نهر الفولغا، وهذه السياسة الليّنة نسبياً قد أبقت نفوذاً سياسياً وثقافياً للدولة العثمانية وللإيرانية.

تأسّس في مدينة باكو عام ١٣٢٢ حزب همّة (الإرادة)، وكان شيوعياً، وبرز عام ١٣٢٤، ثم عمل سرّاً حوالي عشر سنوات (١٣٢٥ ـ ١٣٣٥).

تأسّس في مدينة غاندكا (كيروفوباد) حزب المساواة عام ١٣٢٩، ثم نقل مقرّه إلى مدينة باكو، وأصبح يتكلّم باسم العنصرية الأذربيجانية.

وتأسّس في مدينة باكو أيضاً حزب العدالة وكان جلّ أعضائه من الإيرانيين، وهو الذي أصبح فيما بعد الحزب الشيوعي الإيراني.

ويبدو من أسماء الأحزاب أن الفكر الاشتراكي هو الذي كان سائداً في أوساط المثقفين والسياسيين، وربما كان هذا استغلالاً للفئات الفقيرة البائسة التي وجدت نتيجة الاستعمار الروسي.

في قازاقستان: لم يتدخّل الروس المستعمرون في شؤون القازاق، بل تركوهم على عاداتهم وحياتهم البدوية، كما أعفوهم من الخدمة العسكرية، ولم يسمحوا بالهجرة للريفيين الروس من أجل الاستيطان هناك، واستمرّ الأمر كذلك حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وفي عام ١٣٠٩ صدر الأمر بالسماح للروس والأوكران بالاستيطان في بلاد القازاق فتدفّقت الجموع الكثيرة والتي وصل عددها قبيل الحرب العالمية الأولى إلى مليون مستوطن من الأوكران والروس في بلاد القازاق، وهذا ما دعا القازاق إلى القيام بردّ فعلٍ لمناهضة الاستعمار والانضمام إلى خصوم الحكم سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

تشكّل في قازاقستان عام ١٣٣٠ حزب (ألاش أوردا)، وهو غير مبالٍ بالإسلام لا إيجاباً ولا سلباً، ويعمل للوحدة التركية، ويُطالب بإيقاف التدفّق الاستعماري الروسي للمنطقة.

كما تأسّس حزب القبائل الثلاث (أوش جوز) ويدعو إلى الوحدة الإسلامية، ويُعادي الروس، ويُنافس حزب (ألاش أوردا)، وأخذ يتّجه نحو العمل إلى التغيّرات الجذرية، ويُناهض التتار، ونتيجة للكراهية القائمة للحكم الروسي المُتسلّط فقد اتّجه قادة هذا الحزب إلى الشيوعيين.

وفي عام ١٣٣٤ انفجرت ثورة القبائل القازاقية ضدّ تصرّفات المستوطنين الروس وتجاوزاتهم، ولكن أُخذت هذه الثورة بوحشيةٍ فأُبيدت قبائل كاملة، وفرّت قبائل أخرى إلى الصين. واضطر حزب (ألاش أوردا) الذي كان يعطف على الروس نسبياً ويُطالب بإيقاف تدفّق الأفواج الروسية نحو بلاد القازاق اضطر أن يُغيّر هذا الخط وأن يتبنّى فكرة طرد الروس من البلاد.

وفي ربيع عام ١٣٣٥ اندلعت حركة من جديد، وقامت جمهورية قازاقستان ذات الاستقلال الذاتي، وأوكل أمر هذه الجمهورية إلى حزب

(ألاش أوردا) الذي تولّى إدارة المنطقتين الوسطى والشرقية من قازاقستان، واستمرّت هذه الحكومة حتى جاء الشيوعيون.

في تركستان: بعد احتلال الاستعمار الروسي لتركستان ووضعها تحت إشراف إدارةٍ عسكريةٍ تخضع لها حكومة عموم تركستان، بقيت إمارتان هما: بُخاري، وخُوارزم (خيوه) كمحميتين وتتمتعان بالاستقلال الذاتي، وأُعفي السكان من الخدمة العسكرية، وتُركوا لقوانينهم وتقاليدهم، وعُزلوا عن التتار وسكان حوض الفولغا عامة، كما لم يُحاولوا صهرهم بالمجتمع الروسي أو تنصيرهم، غير أن التمييز كان واضحاً بينهم وبين مستعمريهم، واستعمارهم واستغلالهم كان بيّناً أيضاً، ومن هنا كان الكره للروس المستعمرين جليّاً، وتمسّكهم بالإسلام غير خافٍ.

تشكّل في إمارة بُخاري حزب الشباب البخاري الذي يدعو إلى الإسلام، ويُحرّض على الانفصال عن الامبراطورية الروسية، ويُظهر تحامله على أمير بُخاري الذي يرضى بحماية الروس، وقد نشأ هذا الحزب عام ١٣٢٧، واستمرّ في نشاطه.

وتأسّس عام ١٣٣٥ هـ في مدينة طاشقند حزب الشورى الإسلامية، وقد كان يتبنّى الإسلام، ويعمل على الانفصال عن الامبراطورية الروسية.

ويمكن أن تُعطي صورةً عن المسلمين في الإمبراطورية الروسية في هذه المرحلة وهي أنهم كانوا أصحاب عاطفةٍ إسلاميةٍ يعتزّون بدينهم ويفخرون بعقيدتهم، ويُؤدّون شعائرهم غير أنهم كانوا على جهلٍ تامٍ بالإسلام ففي الوقت الذي كانوا يدعون فيه إلى الإسلام ويستعلون بإيمانهم لم يكن عندهم مانع من الدعوة إلى تطبيق منهجٍ اجتماعيٍ أو اقتصاديٍ مُغايرٍ للإسلام، بل كانت هذه الدعوة هي الشاملة لأكثر السكان، والعامة في مختلف الأوساط، وربما يجد المسلمون غرابةً شديدةً في هذا الأمر، ولكن قد تقلّ هذه الغرابة

عندما يعرفون الجهل الذي كان سائداً إذ لم يكن مفهومهم عن الإسلام ليتجاوز أنه مجموعة من العبادات على المسلم أن يؤدّيها أما أنه منهج حياة يشمل جميع جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن هذا ليخطر ببال الكثير منهم، إذ لم يروا تناقضاً في تطبيق مناهج معاديةٍ للإسلام، وعلى هذا يكونون قد جزّؤوا الإسلام أجزاء عديدةً أخذوا جانباً واحداً منها وهو جانب العبادات، وعدّوه هو الإسلام، وتمسّكوا به ودعوا إليه وأهملوا الجوانب الأخرى وحسبوها خارجةً عن دائرة الإسلام.

وإضافةً إلى هذا الجهل الذي كان ـ مع الأسف ـ يسود الأمة الإسلامية كلها، يجب أن نلاحظ الأوضاع الاجتماعية التي كانت تسود مناطقهم إذ أن الفقر والبؤس هو الصفة الغالبة للمجتمع المسلم، وأن الظلم والاضطهاد هو الذي كان يُلاحقهم من مُستعمريهم، وأن حالة الروس أفضل وضعاً وأحسن حالاً، وأنهم مع ذلك يدعون إلى نظمٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ لتتحسّن أحوالهم ويصفون ما يدعون إليه أنه يُحقّق العدالة الاجتماعية، ويُوفّر حياةً ماديةً أفضل فتأثر بذلك المسلمون وقاموا يدعون إلى ما يدعو إليه غيرهم، أو يُردّدون ما يسمعون وكل ظنّهم أن الوصول إلى ذلك يُؤمّن لهم سعادةً.

وأخيراً فإن الكره الشديد الذي تولّد لدى المسلمين ضدّ الروس لما قاموا به من ظلمٍ وأعمالٍ وحشيةٍ قد جعلهم ينضوون تحت لواء كل حركةٍ تُعادي نظام الحكم الروسي الاستعماري بغضّ النظر عمّا تحمل هذه الحركات من دعواتٍ باطلةٍ في نظر الإسلام، فإن المهم عندهم هو إسقاط نظام الحكم أو إذلال سدنته. لذا فقد تبنّى بعضهم أفكاراً تُخالف ما يدعون إليه من إسلام.

وإلى جانب الجهل وعدم الوعي لمفهوم الإسلام والكره الشديد للروس توجد سذاجة واضحة لدى المسلمين فما أسرعهم تصديقاً لأقوال تُجّار السياسة وما أكثرهم وقوعاً في حبائل الانتهازيين إذ كانت تنطلي عليهم الحيل

السياسية فيسير بعضهم في ركاب الاشتراكية وبعضهم في ركاب الشيوعية، وينتمي آخرون لتنظيمات المتنفذين، فقد اتّخذهم خصومهم مطيةً ووصلوا إلى أهدافهم عن طريقهم وهم لا يدرون، وساروا في تكتلات خصومهم وهم يظنّون أنهم يخدمون دينهم، وصدّقوا أعداءهم في ادّعاءاتهم بعدم محاربة الإسلام بل بالعمل لإعطاء المسلمين حقوقهم، فانطلت عليهم مثل هذه الحيل وصدّقوا خداع الشيوعيين فوقعوا فريسةً لهم، وكانوا الهدف الأول لهم والذي وجّهوا إليه سهامهم فأصابوهم في مقاتلهم، وذاقوا مرارة الظلم، وفي النهاية عرفوا كذب المخادعين..... ولكن هل أفادتهم التجارب يا تُرى....؟ وهل يصحون للمستقبل.....؟.

وكانت تنظيماتهم السياسية ضعيفةً تبدو على قادتها السذاجة مع تمسّكهم بالإسلام، ويظهر عليها تبديل الوجهة التي أرادوها بعد مناورات السياسيين الآخرين..... وهذا ما جرّهم إلى الهاوية، إذ لم يدركوا أبعاد المرحلة التي كانوا يجتازونها.

الفصل الرابع

مرحلة الفوضى والاضطراب

لكل أجلٍ كتاب، قامت دولة الروس، وتوسّعت، واستعمرت، وارتكبت أبشع الأعمال وأوحشها، وتسلّطت عليها أسرةٌ فبغت وطغت، وتجبّر قياصرتها وتمادوا في الباطل حتى جاء أمر الله فسقطوا بعد أن أفسدوا، ثم ذاقوا مرارة ظلمهم فقُتل آخرهم، ولم تُسكب عليه دمعة.

مرّت على الامبراطورية الروسية في أواخر أيام قياصرتها مرحلة من الفوضى والاضطراب دامت ما يقرب من ربع قرن (١٣٢٣ - ١٣٤٧ هـ) (١٩٠٥ - ١٩٢٨ م)، وقد حكم هذه المرحلة ثلاث أنواع من الحكومات وهي: الحكم القيصري (١٣٢٣ - ١٣٣٥)، وحكومة موقتة لم تلبث إلا قليلاً (١٣٣٥ - ١٣٣٦) وكانت أقرب ما تكون إلى الجمهورية، والحكم الشيوعي وهو حكم الفرد أو الطبقة أو كلاهما معاً، وإذا كانت الأوضاع قد هدأت في أواخر عهد لينين إذ كمّ السيف كل فمٍ وأخرس كل صوت، إلا أنه قد حدث بعده خلاف على التركة وظهر النزاع السياسي بين كلٍ من ستالين، وتروتسكي، وزينوفيف، وكامينيف حتى ظفر ستالين بخصومه وخرج من المعركة رابحاً، فتفرّد بالسلطة وسحق كل معارضةٍ وكتم أي نفسٍ وبدا الهدوء.

هذه المرحلة من الفوضى بدت للمسلمين خيراً في أولها فتحرّكوا ثم لم

يلبثوا أن رأوا أن الروس على اختلاف نزعاتهم ومهما بلغ ما بينهم من صدام يبقى بعضهم أقرب إلى بعضٍ من المسلمين مهما تقرّبوا إليهم، وانضووا في صفوفهم وقاتلوا تحت لوائهم، وحملوا أفكارهم، بل وإنّ أيّ نصراني من أيةِ بقعةٍ من بقاع الأرض مهما نأت، وإلى أيّ مذهبٍ انتمى هو أقرب إليهم من المسلمين جميعاً حتى ولو تبنّوا آراءهم ودافعوا عنها، وماتوا في سبيلها.

وكان المسلمون في هذه المرحلة على درجةٍ من السذاجة والغباء لا تُوصف، فقد استُغلّوا بأبسط الشعارات، وخُدعوا بأقلّ الكلمات، ومع تمسّكهم بدينهم وكرههم للروس فقد انجرفوا معهم، وساروا مع هذه المجموعة من الأحرار، ومع تلك من الاشتراكيين، ومع أخرى من البيض، ومع رابعة من الثوريين، ومع البورجوازيين حتى سيطرت أبغضها إليهم وارتقت على أكتافهم فلما تمكّنت نكثت بما عاهدت عليه وكانت أولى جرائمها وأخسّها وأوحشها ما وجهته إلى المسلمين الذي لا يزالون تُصيبهم النكبات فما ينهضون من نازلةٍ حتى تحلّ بهم أخرى، وما يخرجون من حُفرةٍ حُفرت لهم إلا ليسقطوا في هوة أعدّت لهم.

ثورة عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥): قامت حركة عنفٍ بسبب تردّي الأوضاع وسوء تصرّف المسؤولين، وقد دامت عدة أشهرٍ ونتج عنها أن أعطيت الحرية الدينية، ووافق القيصر على النظام النيابي عام ١٣٢٤، وقد انتخب المجلس (الدوما)، وكان يضمّ خمسةً وعشرين عضواً من المسلمين.

ونتيجة قيام المجلس النيابي فقد حدث عدة أزماتٍ وزاريةٍ بين ١٣٢٤ - ١٣٣٢ بسبب الخلاف بين المجلس النيابي والحكومة. وتكوّنت معارضة ممن أطلقوا على أنفسهم اسم الأحرار، وتألّفت منهم كتلة ضمّت أنصار النظام النيابي. وبدؤوا يُطالبون بتشكيل وزارةٍ تنال ثقة المجلس النيابي، غير أن الامبراطور كان يرفض دائماً هذا المطلب.

أما المعارضة الاشتراكية فقد كانت تتمثّل في فئاتٍ ثلاث وهي:

١ - الاشتراكية الثورية: وهي أكثر الفئات الثلاث اعتدالاً.

٢ - المانشفيك: وهي مجموعة ماركسية، ولكنها لا ترى انتزاع السلطة بالقوة.

٣ - البلشفيك: وهي مجموعة ماركسية أيضاً، وتعمل على استلام السلطة بالقوة، ويرأسها لينين.

وإضافةً إلى المعارضة السياسية والنيابية هناك الرأي العام الذي كان مُستاءً لدرجةٍ كبيرةٍ من القيصر خاصةً ومن القصر عامةً، وربما كان (راسبوتين) وأثره الكبير على القصر أهمّ أسباب الاستياء، حتى إن مجلس الأعيان الذي كان يعدّه القيصر أكبر دعامةٍ له، وينظر الشعب إليه أنه ركيزة الأسرة المالكة ونظام الحكم، قد صوّت هذا المجلس لصالح النظام النيابي، وحتى طالب أعضاء الأسرة المالكة القيصر بوجوب تعديل طريقة الحكم.

وإن هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) قد شجّع الحركات المناوئة للسلطة الروسية، وبعد أن كانت تبدو في أعين المعارضة قويةً إذا بها تنهار في نظرهم، بل إن الغرب كله قد بدا هزيلاً، بعد أن كان يظهر كالشبح في نظر الشرقيين، وأصبح التفكير يتّجه نحو إمكانية إحراز النصر من الشرق على الغرب. ومع الطغيان، وكثرة المفاسد فقد تحرّكت ثورة ١٣٢٣ هـ، واشترك فيها بعض المسلمين في بعض الأقاليم سواء أكان ذلك عفوياً أم عن سابق تصميم، وخاصةً في قازان (حوض الفولغا)، وفي باكو (أذربيجان).

أنشأ طلاب المدرسة المحمدية في قازان عام ١٣٢٢ هـ الحركة الإصلاحية التي كانت تدعو إلى المطالبة بالحرية السياسية غير أن مطاليبهم قد تحوّلت بسرعةٍ إلى إضراباتٍ ثوريةٍ ضدّ الروس. غير أن المؤتمر الإسلامي الذي عُقد

في بطرسبورغ عام ١٣٢٤ قد رأى تأييد الحزب الديمقراطي الدستوري الروسي قد يُفيد منه المسلمون لذا دعا إلى دعمه.

وانتشرت الأفكار الاشتراكية في أذربيجان أكثر من غيرها من المناطق، وقد تأسّست عام ١٣٢٢ هـ نقابة عمال الطباعة المسلمين، وتأسّس الاتحاد الوطني لموظفي التجارة التتار، وكانت وجهات نظرهم تتفق مع الاشتراكية الديمقراطية.

واستمرّت الفوضى في الحكم، واندلعت نار الحرب العالمية الأولى، والوضع غير مُستقرّ، ومُعارضة الحكم والقيصر والقصر على أشدّها، وباشتراك روسيا في الحرب زاد الطين بلّة.

ثورة ١٣٣٥ هـ (١٩١٧ م): غادر العمال المعامل في بتروغراد يوم ١٥ جمادى الأولى عام ١٣٣٥ هـ (٨ آذار ١٩١٧ م) وتظاهروا في الشوارع نتيجة المفاسد القائمة فاصطدموا مع الشرطة، وأخرجوا السجناء من المعتقلات، فاستدعت الحكومة الجيش فرفض قادته التدخّل إذ ادّعوا أنهم في شغلٍ بالحرب عما سواها فقدّمت الحكومة استقالتها، وأعطى القيصر نيقولا الثاني بصفته القائد الأعلى للجيوش الأمر لجنوده بالزحف على بتروغراد يوم ٢٠ جمادى الأولى (١٣ آذار) فأبوا وكان هو يُرابط في رئاسة الأركان بسبب ظروف الحرب.

تشكّلت حكومة مُوقتة يوم ٢١ جمادى الأولى برئاسة الاشتراكي كيرنسكي، واشترك فيها الاشتراكيون والحزب الديمقراطي الدستوري. وتنازل القيصر عن العرش لأخيه الأكبر ميخائيل يوم ٢٣ جمادى الأولى (١٦ آذار) فجاء ميخائيل إلى بتروغراد فوجد أن الاحتفاظ بالحكم أمر مستحيل فتنازل عنه يوم ٢٤ جمادى، وخوّل الحكومة الموقتة تسيير شؤون البلاد، وأعلن أن اختيار نوع نظام الحكم في روسيا إنما يعود إلى الجمعية التأسيسية، وريثما تتكوّن فإن السلطات كافةً إنما تتولّاها الحكومة الموقتة.

كانت الحكومة الموقتة ضعيفةً بسبب الخلاف في الرأي بين الديمقراطيين الدستوريين وبين الاشتراكيين وخاصةً فيما يتعلّق بالحرب. ولأن الديمقراطيين الذين وقف المسلمون بجانبهم قد كانوا يعملون ضدّهم ـ وليس هم وحدهم وإنما الروس كلهم ـ إذا كانوا يُطالبون بتخفيض عدد المسلمين في المجلس النيابي إلى خمسة أعضاء فقط، ونُلاحظ أن عدد الأعضاء المسلمين في المجلس الأول كانوا خمسةً وعشرين، وفي المجلس الثاني خمسةً وثلاثين عضواً، وفي المجلس الثالث كانوا عشرة أعضاء، وفي المجلس الرابع بقوا سبعة أعضاء.

ولم يكن الرأي العام ليهتمّ بالحرب وإنما شُغل بأحداث الإمبراطورية الداخلية ولعلّ منها توزيع الأراضي، حتى إن الجنود على الجبهة كان توزيع الأراضي يشغلهم إذ ستوزّع وليس لهم من نصيب ما داموا بعيدين عن القسمة، ويرون أن من حقّهم أن يُعطوا ويعفوا من حضورهم ما داموا على الجبهة يذودون عن البلاد، ولكن هذا لن يحدث لذا كان كثير منهم يترك الجبهة وينطلق إلى منطقته ليأخذ نصيبه. ووجد (ميليوكوف) وزير الخارجية في الحكومة الموقتة وهو عضو في حزب الديمقراطيين الدستوريين أن يستقيل من منصبه لعدم اهتمام الرأي العام بشؤون البلاد العامة والحرب، فلعلّ استقالته تلفت النظر، فترك منصبه في ١١ رجب ١٣٣٥ (بداية أيار ١٩١٧).

ولم يجد المسلمون لأنفسهم نصيراً بين الروس. وقد حضر بعضهم من التتار والقفقاس والقيرغيز مؤتمر الأقلّيات الذي عُقد في لوزان في شعبان ورمضان ١٣٣٤ هـ (حزيران وتموز ١٩١٦) دون كبير اهتمام. وأسّس جماعة من اللاجئين التتار في ألمانيا صحيفة الجهاد برئاسة عبد الرشيد إبراهيم، وتُوجّه بصورةٍ خاصةٍ إلى أسرى الحرب المسلمين الذين أخذوا من الجيوش الروسية، ولكن لم يلفت هذا أيضاً الانتباه.

عاد لينين إلى روسيا في جمادى الأولى ١٣٣٥ (آذار ١٩١٧) بعد أن

سمحت له ألمانيا بالمرور من أراضيها على الرغم أنه من بلادٍ مُعادية والحرب قائمة بين الطرفين وكان يُقيم في سويسرا، وأخذ يُنادي بمبدأ تقرير المصير للأقلّيات، وهذا ما جعل بعض المسلمين ينضمّون إلى البلشفيك على أن هذه المناداة وعد منهم إذا ما تسلّموا السلطة فأصبح كثير من المسلمين يتمنّون أن ينجح البلشفيك في مُهمّتهم لينال المسلمون حقوقهم، فاتّجه المسلمون بذلك نحو الاشتراكية بدافع كره الروس، والنظام القائم، ورغبةً في أن يُحقق ذلك مصالح للمسلمين، وهذا ما تمّ في مُعظم الأقاليم الإسلامية عدا بلاد داغستان، كما اعتمد البلشفيك في دعايتهم على إنهاء الحرب مُباشرةً وإجراء الصلح، وتقسيم الأراضي بين الفلاحين، وتسليم السلطات لمجلس العمال والجنود الذي تشكّل بصورةٍ عفويةٍ في بتروغراد (سوفيت بتروغراد)، وهكذا بدأ البلشفيك يقوى مركزهم إذا أخذ العمال والفقراء والمسلمون يتّجهون نحوهم أملاً بالفرج ومن غير علمٍ بما يكون، وفي الوقت نفسه كانت الحكومة الموقتة يزداد موقفها ضعفاً، وتزيد أحداث القتال الناس خوفاً من المستقبل.

اتّحد الزعماء المسلمون الذين يُؤيّدون الاشتراكيين الثوريين و الديمقراطيين الدستوريين وشكّلوا اللجنة الإسلامية التي نشأت عنها الجبهة الوطنية التتارية، ونظّمت لجان العمال التي انضمّ بعضها إلى بعض تحت اسم اللجان الاشتراكية الإسلامية، فلم تلبث أن أصبحت تسير بخط البلاشفة، وأصدرت صحيفة قيزيل بيرق (العلم الأحمر) رغم بعدها عن الشيوعية، وليس هناك من صلاتٍ بين الطرفين، وإنما تتفق معهم على موضوع إنهاء الحرب، وتقسيم الأرض وتحويل السلطة إلى السوفييت (مجلس العمال).

وعقد الأعضاء المسلمون في المجلس النيابي (الدوما) الرابع مؤتمراً في بتروغراد، ودعوا أناساً من غير النواب، وقرّروا إنشاء مكتبٍ مُوقتٍ للمسلمين في الإمبراطورية الروسية، وتولّى إدارته أحد تساليكوف القفقاسي

المنشفيكي، كما قرّروا عدم التعاون مع الأحزاب الروسية، وفي طليعتها الحزب الديمقراطي الدستوري لخيانته المسلمين. وبجهود هذا المؤتمر تمّ عقد مؤتمر موسكو في ٨ رجب ١٣٣٥ (١ أيار ١٩١٧).

انعقد مؤتمر موسكو، وعمل على التوفيق بين الإسلام والاشتراكية، ولم يقاطع المؤتمر من المسلمين سوى بعض البلاشفة، وطالب الحكومة الموقتة بالمساواة في الحقوق المدنية مع الروس، والاستقلال بالأمور الدينية، وأن يكون المفتي مُنتخباً من قبل المسلمين ليس مُعيّناً من قبل الحكومة، وإنهاء الاستعمار الريفي، وحصر الأراضي بالسكان الأصليين، ولم يُطالب بالاستقلال الذاتي عن روسيا بل لم يقترح أحد من الحضور ذلك. كما كان من جملة مقرراته، أن يكون أسبوع العمل ٤٨ ساعة أي ٨ ساعات يومياً، وإلغاء الملكية الخاصة، ومُصادرة أملاك الدولة وأديرة الكنائس، ومساواة المرأة بالرجل، ومنع تعدد الزوجات، وإنشاء مديرية للشؤون الإسلامية في (أوفا)، والمحافظة على الوحدة التركية، والوحدة الإسلامية. وانقسم المؤتمرون فريقين يرى أحدهما الاتحاد مع روسيا على حين يرى الآخر الاستقلال عنها. كما تقرّر إنشاء المجلس الوطني المركزي الإسلامي (ملّي شورى) ويكون مقرّه موسكو، وتُمثّله لجنة تنفيذية في بتروغراد، ولكن لم يكن لهذه المجالس أيّة سلطات، وكان المسلمون في كل إقليم يُواجهون أعداءهم الروس، ويُواجهون المشكلات، وكل إقليم يحلّ مشكلته بنفسه. وكان الجميع يتكلّمون بلهجة تتارية. وعلى كل فقد كان النصر بشكلٍ عام للمنشفيك.

وعقد مؤتمر في قازان في شهر رمضان ١٣٣٥ (تموز ١٩١٧) وحضره تتار الفولغا، وتتار القرم، ومندوبون عن شمالي القفقاس، ورفض التركستانيون والأذربيجانيون الحضور، وانبثق عنه مؤتمر ديني وآخر عسكري. وكان من قرارات المؤتمر الوقوف في الانتخابات إلى جانب

الاشتراكيين الروس، وإنشاء الوحدات العسكرية (الشورى الحربية)، وبدأوا بتشكيل الكتائب العسكرية. ثم اجتمع المؤتمر بفروعه الثلاثة في مطلع شهر شوال عام ١٣٣٥ (٢٢ تموز ١٩١٧)، وتنازلوا عن الأفكار الاتحادية مع الروس، وأعلنوا الاستقلال الثقافي لأتراك روسيا وسيبيريا وأنشأوا مديرية وطنيّة للشؤون الإسلامية (ملّي إدارة) في أوفا.

ثورة ١٣٣٦ (١٩١٧ م): إن المشكلة في تأريخ الأحداث وجود أكثر من تقويم الأمر الذي يجعل الاختلاف بيّناً لدى القرّاء فالتقويم الروسي ينقص عن التقويم الشمسي المتعارف عليه (١٣) يوماً في هذا القرن، ويزيد يوماً آخر في كل قرن، لذا ففي تقويمهم هي في تشرين الأول وهو الشائع والمتعارف عليه على حين أنها في الواقع في مطلع شهر تشرين الثاني، وقد أحببت التنبيه إلى هذا الخطأ.

أعطى لينين أوامره بصراحة وبالهاتف لجماعته البلاشفة فتسلّموا السلطة دون مُقاومة، ولم يدعم الحكومة سوى الطلاب الضباط في الكلية الحربية والذين قُتلوا جميعاً، وفي اليوم الثاني تشكّلت حكومة جديدة برئاسة لينين، وفرّ رئيس الحكومة الموقتة كيرينسكي.

وفي اليوم الثاني لتشكيل الحكومة البلشفية تمّ تأميم الأراضي التابعة للكنيسة وللأغنياء، وتمّ طلب الصلح مُباشرةً، وعندما رفض رئيس الأركان السفر لإجراء المفاوضات مع الألمان، كُلّف مُلازم ثان للقيام بهذه المهمة، وبعد خمسة أيام، وُضعت المعامل تحت رقابة العمال. ثم انعقدت الجمعية التأسيسية فكان أكثرية أعضائها بجانب الاشتراكيين الثوريين أنصار كيرينسكي فصدر قرار بحلّها يوم ٥ ربيع الثاني ١٣٣٦ (١٩ كانون الثاني ١٩١٨). ثم صدر قرار في ٧ جمادى الأولى ١٣٣٦ (١٩ شباط ١٩١٨) بتأميم الأراضي جميعها وإلغاء الملكية الخاصة. وفي مطلع شهر رمضان من العام نفسه (١٠ تموز ١٩١٨) حصر حق الانتخاب في السوفييت.

المقاومة الروسية: وفي منتصف عام ١٣٣٨ (ربيع ١٩١٩) بدأت المقاومة الروسية للبلاشفة، وأحاطت ببلاد الروس تقريباً فمن جهة الجنوب قام الجنرال (الكسيف) الذي كان القائد الأعلى للجيش الروسي أيام الحكم القيصري، وكان يساعده الجنرال (كورنيلوف) الذي عيّنه رئيس الحكومة المؤقتة (كيرينسكي) قائداً عاماً للجيش ثم اختلف معه فأقاله، فحاول في عام ١٣٣٥ القيام بمحاولة انقلاب على حكومة كيرينسكي ولكنه فشل، كما كان يساعده الجنرال (دينيكين) الذي أصبح القائد العام لجيوش روسيا البيضاء.

ومن جهة الشرق في حوض نهر الفولغا قامت حكومة برئاسة لوبيديف الاشتراكي الديمقراطي. وكذلك قامت في سيبيريا حكومة مناوئة للبلشفيك، وتسلّم الأميرال (كولتشاك) وزارة الحربية فيها، ثم تفرّد بالأمر، وطرد زملاءه، وركّز السلطات في يده.

ومن ناحية الغرب قامت حركته في المناطق المُطلّة على بحر البلطيق.

المناطق الإسلامية: لما حدث الانقلاب الشيوعي في مطلع عام ١٣٣٦ هـ كانت الحركة الإسلامية نشيطة غير أنها لم تكن مُنظّمة، ولم تتوضّح طريقها بعد، ولم تُحدّد أهدافها، إضافة إلى ذلك لم تكن لها أجهزة عسكرية تُمكّنها من حفظ أقاليمها، والسيطرة عليها، وفي الوقت نفسه لم تكن لها أجهزة مدنية تستطيع بواسطتها أن تُواجه الأزمات والمشكلات التي تكاد تستجدّ يومياً. كما أن الأفكار عند المسلمين كانت متداخلة بعضها مع بعض ففي الوقت الذي يتمسكون فيه بإسلامهم ويعملون له، ويدعون إلى الوحدة الإسلامية كانت الأفكار الاشتراكية المعادية للإسلام مقبولة لديهم بل ربما يرون فيها الطريق السليمة ولا يجدون فيها تعارضاً مع عقيدتهم أبداً، وأنها ليست سوى منهج اقتصادي فيه حلّ ما يُعانون من مُشكلات حسب تصوّراتهم، ولعلّ ذلك دخلهم من معارضة الفكر الاشتراكي لنظام الحكم الروسي الذي لا يرون سواه خصماً لما قاسوا من ظلمه وما ذاقوا من مرارته لذا كانوا بجانب

الاشتراكيين يؤيّدونهم دون أن يروا منهم مساعدة بل كانوا عليهم أيضاً حرباً فهم من الروس، غير أن مُعارضة نظام الحكم كانت تُغطّي سيئاتهم عند المسلمين، ومن ناحية أخرى فإن الوضع البئيس الذي كانوا يعيشون فيه جعلهم يرون في الاشتراكية مُنقذاً، وأخيراً فالجهل هو سبب كل بلاء، فقد كان جهلهم بالإسلام يزيد على جهلهم بالاشتراكية التي لا يعرفون منها ولا عنها شيئاً.

ولما قام الانقلاب الشيوعي في روسيا قام في الوقت ذاته انقلاب في المناطق الإسلامية على الحكومات القائمة فيها، ولكن لم يستهدف سوى الروس الذين كان الصراع فيما بينهم. أما المسلمون فقد وقفوا على الحياد، أو موقف المتفرّج إذ سرّهم أن يروا الروس يُقاتل بعضهم بعضاً وقد كانوا من قبل كتلةً واحدةً يفتكون بالمسلمين.

بعد أن تسلّم البلاشفة السلطة سعوا إلى كسب ودّ المسلمين فوجهوا نداءً إلى العمال المسلمين في أنحاء الامبراطورية كلها، ووقّع هذا النداء لينين رئيس الحكومة وستالين مفوض الشعب لشؤون القوميات وقد جاء في هذا النداء: يا مسلمي روسيا من تتار الفولغا والقرم، وقيرغيز وسكان سيبيريا وتركستان، وترك وتتار ما وراء القفقاس، وتشاشان وجبلي القفقاس الذين هدّم قياصرة روسيا المستبدّون مساجدهم وبيوت عباداتهم، والذين أُهينت مُعتقداتهم وعاداتهم. اعلموا أن معتقداتكم وعاداتكم ومعاهدكم الوطنية والثقافية ستكون بعد الآن حرةً محترمةً. نظّموا حياتكم الوطنية بحرية تامة من غير معارضة من أحد، فهذا حقكم، واعلموا بأن الثورة كلها وبكامل مُنظّماتها، من منظمة اتحاد المندوبين إلى منظمة العمال إلى منظمة الجنود إلى منظمة الفلاحين تحمي حقوقكم، كما تحمي حقوق كل شعوب روسيا. فانصروا إذن هذه الثورة.

ثم بدأ زعماء البلاشفة يتصلون برجالات المسلمين ويطلبون منهم التعاون وجلب المسلمين إلى صفوف الثورة كي لا تتعرّض الحركة الانقلابية لحركةٍ

ثورية مُضادَّة يعود فيها القياصرة إلى التسلّط، ويكون نصيب المسلمين من الاضطهاد كبيراً، ولا شك فإن الاستجابة لزعماء البلاشفة وتحقيق رغباتهم كان يتفاوت من مكانٍ إلى آخر، ومن زعيمٍ إسلاميٍ إلى ثانٍ، كما أن ردود الفعل الإسلامية كانت متباينة بين إقليمٍ وإقليمٍ.

أ ـ **حوض نهر الفولغا:** عندما نشب القتال بين البلاشفة من المسلمين سوى بعض أعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، وعددٍ قليلٍ من العمال، وسريةٍ أو سريتين من حامية المدينة من التتار، والطريقة الصوفية الفيزوقية التي تُسمّي نفسها جيش الله الفيزوقي إذ كانت تعدّ قتالها بجانب البلاشفة جهاداً في سبيل الله، وربما كان هذا التصرّف ناتج عمّا لقيه المسلمون من الحكم الروسي، وللجهل المُخيّم عليها وعلى أعضائها حيث لم يكن أحدهم يعرف حقيقة الانقلابيين أو القادمين للحكم، بل ولم يعرف شيئاً عن الإسلام.

إن اللجنة الثورية الأولى التي تشكّلت في قازان يوم ١٠ محرم ١٣٣٦ لم يكن فيها أحد من المسلمين أبداً بل كانت تضمّ عشرين عضواً كلّهم من الروس. وإن مجلس مفوضي الشعب الذي أُنشئ في شهر صفر من العام نفسه كان يشمل عشرة من الروس وتتارياً واحداً. غير أنه بعد عام بدأ بعض المسلمين ينضمّون للحزب الشيوعي بشكل فردي لمصالح خاصة وجلّهم من أصحاب المنافع وأراذل الناس. إذ ظلّت السلطة الجديدة تعتمد على الروس أيضاً، وفي الوقت نفسه فإن المُنظّمات الإسلامية بقيت قائمة ورفضت التعاون. وعندما طلب ستالين من رئيس (ملّي شورى) في بيتروغراد أحد تساليكوف التعاون مع السلطة الجديدة بشروط لمصلحة المسلمين، عرض أحد تساليكوف اقتراح ستالين على المجلس الملّي في أوفا فرفض الاقتراح. ولكن ستالين وجد ضالته في رئيس لجنة قازان الاشتراكية الإسلامية ملا نور وحيدوف الذي قبل العرض بصفته الشخصية. وفي ربيع الثاني أُحدثت مفوضية مركزية للشؤون الإسلامية وكُلّفت ببلشفة المسلمين.

بقيت المنطقة تعيش في فوضى خلال عدة أشهر من تسلّم البلاشفة السلطة إذ ظلّت المنظّمات الإسلامية قائمةً مثل منظمة (ملّي شورى) و (ملّي إدارة) وتعملان في البلاد التتارية وتُمارس مسؤولياتها إلى جانب النظام البلشفي، وكذلك كانت منظمة (حربي شورى) تسيطر على الوحدات العسكرية الإسلامية على حين كان جنود الجيش الأحمر ـ وكلّهم من المرتزقة ـ يُسيطرون على الوحدات غير الإسلامية، ومعنى ذلك أنه كانت ازدواجية في السلطة. غير أن الروس لم يلبثوا أن قرروا وضع حدٍّ لاستقلال المنظمات الوطنية الإسلامية وتصفيتها بمنتهى العنف وبشكلٍ سريع.

عُقد في قازان المؤتمر الثاني العسكري لمسلمي الامبراطورية الروسية يوم ٢٥ ربيع الثاني ١٣٣٦ (٨ شباط ١٩١٨)، وحضره مائة وخمسون مندوباً يمثّلون الجيوش الإسلامية، والعلماء، والمُنظّمات السياسية الباشكيرية والتتارية، كما حضره مُمثّلون عن مُنظّمة (ملّي شورى) في بيتروغراد، وعن مُنظّمة (ملّي إدارة) في أوفا. كانت أكثرية الحضور يُمثّلون المعتدلين ممن يُطلق عليهم (اشتراكيون ثوريون ومنشفيك) وبجانبهم أقلية من البلاشفة وأنصارهم. وقد هنّأ المؤتمر مجلس مفوضي الشعب على حلّ الجمعية التأسيسية إنما لم يكن يريد قطع العلاقة مع حكومة موسكو. بشكلٍ صارمٍ، ولما وافق المجلس على قرارٍ يقضي بإحداث دولةٍ وطنيةٍ تتارية ـ باشكيرية باسم (ايديل أورال) ثارت ثائرة الأقلية واتّهمت الأكثرية بخلق الفتنة، وانسحبت من المؤتمر ٤ جمادى الأول ١٣٣٦ (١٧ شباط ١٩١٨) احتجاجاً على هذا القرار فاستغلّ مجلس سوفييت قازان ما حدث واتّخذ ذلك ذريعة للتدخل، وفي ١٣ جمادى الأولى (٢٦ شباط) أعلن حالة الطوارىء، وألقى القبض على زعماء مُنظّمة (حربي شورى)، فهرب بقية الزعماء إلى ضاحية مدينة قازان والواقعة بعد نهر بولاق، وأعادوا تأليف حكومتهم هناك وعُرفت باسم جمهورية ما وراء بولاق (ترانس بولاق)، ولكن لم تلبث أن جاءتها قوة كبيرة قضت عليها. وهذه التجربة الوحيدة التي قام بها التتار للاستقلال عن الروس.

وصدر في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٣٦ (١١ آذار ١٩١٨) قرار بإلغاء فرقة الحرس الإسلامي في مدينة بتروغراد، وكذلك فقد صدر في ١١ جمادى الآخرة ١٣٣٦ (٢٦ آذار ١٩١٨) قرار بإلغاء منظمة (حربي شورى) المركزية مع جميع فروعها الإقليمية، وألغيت في ١٨ جمادى الآخرة (٢ نيسان) كل الصحف غير البلشفية، وبعد عشرة أيام صدر قرار يقضي رسمياً على وجود منظمات (ملّي شورى) و (ملّي إدارة).

أعطيت المفوضية المركزية للشؤون الإسلامية صلاحياتٍ واسعةً حيث كانت تعنى بشؤون المسلمين كلّها، وأنشئت الكلية المركزية العسكرية في ١٧ رمضان ١٣٣٦ (٢٩ حزيران ١٩١٨) وتسلّم سلطان غالييف رئاستها، وألحقت هذه الكلية بالمفوضية المركزية.

ويبدو أن الذين تعاونوا مع النظام البلشفي لم تنسخ من أذهانهم فكرة العمل لتأسيس دولةٍ مسلمةٍ داخل دولةٍ روسيةٍ على أساسٍ اتحادي، بل بقوا يعلمون ضمن هذا المخطط ويهدفون إلى إنشاء حزبٍ شيوعيٍ مستقلٍ وبإدارةٍ إسلاميةٍ، ولذا فقد نشأت مفوضيات إسلامية إقليمية ترتبط بالمفوضية المركزية، وأطلق على هذه المفوضيات اسم «موسكومس»، وقد شجع هؤلاء المتعاونون وعلى رأسهم ملانور وحيدوف، وسلطان غالييف على الاستقلال التنظيمي للشيوعية الإسلامية لعدم ثقتهم بالروس، وقد دعا هذان الزعيمان إلى عقد مؤتمرٍ للعمال المسلمين في موسكو يوم ٢٣ جمادى الأولى ١٣٣٦ (٨ آذار ١٩١٨)، ودُعي إليه الشيوعيون ومؤيّدوهم، وأسفر عن تشكيل حزب اشتراكيٍ شيوعيٍ إسلاميٍ. ثم دعا ملانور وحيدوف وسلطان غالييف إلى أول مؤتمرٍ شيوعيٍ إسلاميٍ يُعقد في قازان في ٥ رمضان ١٣٣٦ (١٧ حزيران ١٩١٨) وتقرّر في هذا المؤتمر الذي تم عقده في الموعد والمكان المحدّدين له تسمية الحزب المزمع إنشاؤه الحزب الروسي للشيوعيين المسلمين، وأخذ دستوره من الحزب الشيوعي الروسي لكنه ظلّ مستقلاً عنه.

وعمل سلطان غالييف مدير الكلية المركزية العسكرية على جمع الوحدات الإسلامية العسكرية التي وجدت والتي بلغ عدد أفرادها خمسين ألفاً في جيشٍ أحمر مسلمٍ واحدٍ يعمل على ترسيخ الثورة الاشتراكية في المناطق الإسلامية الخاضعة لروسيا أولاً ثم في بقية أرجاء العالم الإسلامي، غير أن أمله قد خاب إذ خاف الروس من إحياء فكرة الاستقلال الذاتي ضمن الدولة الروسية لذا فقد أسرعوا ووضعوا الكتائب الإسلامية تحت القيادة العامة للجيش الأحمر الروسي، ودمجوها مع أفواج رفاقهم الروس.

كان هدف الزعماء المسلمين الاشتراكيين إقامة دولةٍ شيوعيةٍ إسلاميةٍ تكون نموذجاً للعمل والفكر، ومنها تنطلق الاشتراكية إلى كل جهات العالم، ووقع اختيارهم على منطقة الفولغا التي تمتدّ من قازان إلى تشيليابنسك أي منطقة التتار والباشكير أو بالأحرى دولة (ايديل ـ أورال)، ولكن هذا لم يكن ليحظى على موافقة الروس بل لا يمكن أن يسمعوا به، غير أن الرغبة في عدم مواجهة المسلمين في هذه الظروف الحرجة قد ألجأتهم إلى الوعد بإنشاء الجمهورية التتارية ـ البشكيرية، وصدر مرسوم بذلك في ٨ جمادى الآخرة ١٣٣٦ (٢٣ آذار ١٩١٨). ولكن لم تلبث أن قامت الحرب الأهلية فعصفت بالمرسوم والوعد معاً.

ب ـ **منطقة الأورال**: شكل احمد زكي وليد حكومة باشكيريةً في أورنبرغ في ربيع الأول ١٣٣٦ (كانون الأول ١٩١٧)، وقد وقفت هذه الحكومة على الحياد أمام الصراع القائم بين قوزاق أورنبرغ وبين المرتزقة من الجيش الأحمر، ثم عهد ستالين إلى شريف موناتوف الذي رضي أن يتعاون مع البلاشفة الروس بنيابة رئاسة مفوضية الشعب الإسلامي، فدبّ الخلاف بين أحمد زكي وليد وبين شريف موناتوف، واستطاع الثاني بدعم البلاشفة من إحراز النصر، وقبض الجيش الأحمر على أكثر أعضاء الحكومة الباشكيرية، وفرّ الباقون ومنهم أحمد زكي وليد إلى الجبال وذلك في أواخر شهر ربيع الثاني من العام نفسه.

جـ ـ منطقة القرم: عقد التتار في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣٥ (٢٣ آذار ١٩١٧) مؤتمراً وطنياً في مدينة سيمفيربول، وانتخبوا خلاله لجنة مسلمة تنفيذية كانت نواة الحكومة الوطنية التي قامت في صفر ١٣٣٦ (تشرين الثاني ١٩١٧) وقد دامت ما يقرب من ثلاثة أشهر إذ هاجمها البلاشفة في (سيباستيبول) وقضوا عليها في بداية جمادى الأولى ١٣٣٦ (١٣ شباط ١٩١٨)، وكان أعضاء حزب (ملّي فرقة) أي الحزب الوطني قد تأثروا بالاشتراكية وبدأوا يُنادون بتأميم أملاك الأوقاف، والملكيات الواسعة، والنضال ضدّ علماء الدين، والتعاون مع الاشتراكية.

د ـ شمالي القفقاس: دعا بعض الزعماء إلى عقد مؤتمرٍ وهدفهم تأييد الحكومة الموقتة الروسية، ونتج عنه تنظيم اتحاد الجبليين، وقد حاولوا عقد مؤتمرٍ آخر في بلاد داغستان، ولكن فشلوا حيث النفوذ للعلماء المسلمين كما كان للطريقة النقشبندية دورها.

أعلن اتحاد الجبليين أن بلاد القفقاس جزء من روسيا، على حين أن الداغستان والتشاشان قد انتخبوا نجم الدين غوتسنسكي إماماً لهم، وأوزون حاجي مساعداً له، وأعلنوا عن قيام حكومةٍ مستقلة. وحدثت في داغستان بعض الحركات الدموية لذا أسرع الإمام نجم الدين وأنصاره من الجبال للاستيلاء على السهول التي سبق للروس أن اغتصبوها من أصحابها، ولم يلبث أن قام الشيوعيون بانقلابهم، غير أن المسلمين قد بقوا بعيدين في داغستان عن الآثار المباشرة لذلك الانقلاب. أما بقية أجزاء شمالي القفقاس وهي بلاد الشراكسة فقد خضعت للروس البيض.

هـ ـ أذربيجان: تعطلت الأحزاب بسبب الحرب، ولكن استعادت نشاطها بعد القضاء على النظام القيصري وقيام الحكومة الموقتة، وقد لقيت هذه الحكومة تأييداً في بادىء الأمر ثم تخلّى عنها المسلمون في أذربيجان،

ووقفوا على الحياد، وإن كان الجميع يرغبون هزيمة روسيا، وكان حزب المساواة يُطالب بأن تتولّى اللجنة الإسلامية إدارة البلاد، ويضمُّ هذا الحزب الاشتراكيين، والذين يميلون إلى الدولة العثمانية، ومن يُنادي بالاستقلال الذاتي، غير أن الخط قد سار بعدئذٍ نحو الاستقلال التام والانفصال عن الإمبراطورية الروسية، واتجهوا نحو العثمانيين، وأسّسوا الحزب (الاتحاد التركي ـ المساواة) برئاسة محمد أمين رسول زاده، وانضمّ إليهم حزب الأحرار الزراعي، وحزب الاتحاد. وكان حزب همّة يُمثّل الاشتراكية الديمقراطية، ويبدو أن المسلمين قد بقوا متحدين لوجود عدوٍ لهم قريبٍ منهم وهم الأرمن الذين تمرّسوا على القتال وأحسنوا فنّه.

وتأخّر الصدام بين السكان والبلاشفة لبُعد الشقة بين أذربيجان وقلب بلاد الروس، ولقرب أذربيجان من الدولة العثمانية التي لا تزال قائمةً ومن إيران. ثم بدأ الصدام في ٥ جمادى الآخرة ١٣٣٧ (٢٠ نيسان ١٩١٨) بين المسلمين وبين البلاشفة الذين دعمهم الاشتراكيون الثوريون وحزب الطاشناق الأرمني (الوطني الاشتراكي)، ومجموعات من حزب همّة، وجرت مذابح ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف مسلمٍ، واستولى البلاشفة إثر ذلك على السلطة، وأسّسوا حكومةً في ضاحية باكو. أما زعماء المسلمين فقد فرّوا إلى غاندكا (كيروفآباد) وأنشأوا هناك مجلس أذربيجان الوطني في شهر رجب وتمكّن أن يُقاوم مدة شهرٍ تقريباً.

و ـ تركستان: عندما قُضي على الحكم القيصري، وجاءت الحكومة الموقتة رفض اشتراكيو طاشقند الاعتراف بها، كما رفضت لجنة تركستان الاعتراف أيضاً. وبعد الانقلاب البلشفي بشهرٍ أعلن مجلس الشعب الإسلامي في مدينة خوقند استقلال تركستان الذاتي فسار إليها سوفييت طاشقند في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٦ (٥ شباط ١٩١٨) فاقتحموا المدينة، ونهبوها، واستمرّت أعمال السلب والذبح ثلاثة أيام، ثم هُدّمت المدينة وأضرمت فيها النار،

فذهب أكثر من مائة ألفٍ من أهل خوقند قتلاً، وكان عدد سكانها حوالي مائة وعشرين ألفاً، والتحق من نجا من أعضاء الحكومة بفرق المجاهدين[1].

ز ـ بلاد القازاق: تقدّم الجيش الأحمر في سهوب القوزاق، وقضوا على حكومة حزب (ألاش أوردا) المستقلّة استقلالاً ذاتياً، وسقطت بأيديهم المدن الواحدة تلو الأخرى، وقد تمكّنوا من دخول مدينة أورنبرغ في الرابع من شهر ربيع الثاني.

وهكذا لم يبق للمسلمين من نفوذ وسلطة إلّا في أربعة مراكز هي: ١ ـ داغستان وتشاشان حيث إمامة نجم الدين غوتسنسكي. ٢ ـ حكومة غاندكا في أذربيجان. ٣ ـ إمارة بُخارى. ٤ ـ إمارة خُوارزم.

الثورة الأهلية: ثار الأسرى التشيكوسلوفاكيون الذين كانوا على طول خط حديد سيبيريا، ويستعدّون لترحيلهم وكانت حركتهم يوم ١٢ شعبان ١٣٣٦ (٢٥ أيار ١٩١٨) واستغلّت هذه الحركة كل العناصر المعادية للسلطة الجديدة البلشفية. وقف قوازق الأورال ضدّ سلطة السوفييت، وكذلك فعل قوزاق أورنبرغ، وشكّل خصوم البلاشفة حكومة (كوموتش) وبدأت تتجمّع عندهم العناصر المعارضة، وبدأ هجومهم فاستولوا على الأورال، ودخل ديتوف زعيم قوزاق أورنبرغ مدينة أورنبرغ يوم ٢٢ شعبان ١٣٣٦ (٤ تموز ١٩١٨)، واضطر الجيش الأحمر من إخلاء مدينة (أوفا) يوم ٢٤ شعبان.

---

(١) يُطلق الروس على فرقة المجاهدين اسم قُطّاع الطرق (البسمجية)، وقد شاع هذا الاسم ـ مع الأسف ـ حتى عمّ كتب التاريخ الذي يُسجّل عادةً بأقلام المنتصرين، ولأن المؤرّخين، وهم من الصليبيين، يُسجّلون الأحداث عادةً من خلال نظراتهم وحقدهم، ولما كانت حكوماتهم أصحاب القوة والعلم المادي، وكان المسلمون في مرحلة من التأخر والتخلف المادي والعلمي لذا فإن المسلمين يأخذون عنهم ـ مع الأسف ـ ويعدّون ذلك علماً مُحقّقاً.

ونزل أحمد زكي وليد وزعماء الباشكير من الجبال التي التجأوا إليها، ودخلوا أورنبرغ وأقاموا فيها حكومةً باشكيريةً استطاعت بمدةٍ قصيرةٍ أن تُسيطر على كل منطقة الباشكير وكان المتطوّعون قوامة قوتها.

وهبّ القوزاق فشكّل حزب (ألاش أوردا) حكومتين إحداهما في قازاقستان الشرقية والثانية في الغربية، وإن بقيت بعض المدن بيد البلاشفة.

وقامت حكومة في سيبيريا الغربية في مدينة أومسك وكان الأميرال كولتشاك وزيراً للحربية فيها ثم سيطر على الوضع وتفرّد بالسلطة.

ودخل الألمان شبه جزيرة القرم وطردوا الفوج الأول السوفييتي التابع للجنة مدينة سيباستيبول، وعهدوا بالإدارة في شبه الجزيرة إلى رجلٍ مسلمٍ تتاريٍ من ليتوانيا ويُساعده جماعة من حزب (ملّي فرقة)، وعندما جلا الألمان، تشكّلت حكومة برئاسة سالم كريم وهو نائب سابق من الحزب الديمقراطي الدستوري في أول مجلسٍ نيابيٍ، وقد أيّده جماعة من حزب (ملّي فرقة) وعارضته جماعة أخرى برئاسة ولي إبراهيم الذي تعاون مع المنظّمات البلشفية السرية.

وفي أذربيجان تقدّم الجيش العثماني نحو مدينة باكو فحدث انقلاب تسلّم إثره السلطة الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك المتحالفون مع حزب الطاشناق الأرمني، وفرّ كبار السوفييت بحراً متّجهين نحو استراخان فألقي القبض على سفينتهم، ونقلوا إلى بلاد التركمان حيث أعدموا. ثم جاءت قوات إنكليزية من إيران، ودخلت مدينة باكو، ولما رحلت حلّت مكانها قوات عثمانية فشكّلت مع سكان البلاد حكومةً في مدينة غاندكا، ولما خرجت الدولة العثمانية من الحرب سحبت قواتها من أذربيجان، وحلّت محلّها قوات إنكليزية اشتركت مع الحكومة بإدارة البلاد، ثم جلا الإنكليز وبقيت الحكومة الوطنية فيها.

وسيطر المجاهدون على وادي فرغانة عام ١٣٣٨، وأعلن الروس المسالمة فحدث هدوء، ثم عاد القتال وتوسّع نطاق عملياتهم حتى كان لهم دورهم في كل أنحاء المنطقة بما فيها إمارة بُخارى، وقد وصل إليهم أنور باشا وزير خارجية الدولة العثمانية ـ سابقاً، وأحمد زكي وليد رئيس حكومة باشكيريا سابقاً واستمرّت المعارك حتى عام ١٣٤٧ هـ، وقُتل فيها أنور باشا.

ودخلت القوات الإنكليزية بلاد التركمان، واحتلّت عاصمتهم مدينة (عشق أباد)، غير أن أمير بُخارى قد وقف في وجه هذه القوات المستعمرة وصدّهم، وانتصر عليهم.

وهكذا لم يبق للبلاشفة في المناطق الإسلامية سوى مدينة طاشقند وما حولها حيث يسيطر عليها سوفييت طاشقند ويدعمهم مرتزقة الجيش الأحمر.

القضاء على الثورة: أمام هذا المأزق الحرج الذي وقع فيه البلاشفة لم يجدوا لديهم سلاحاً أفضل مما يُعيدونه من إعطاء المسلمين وباقي القوميات حقوقهم، وقد أصدروا أوامرهم للمُنظّمات البلشفية يُجبرونها فيها على اتخاذ مواقف أكثر مرونةً وأحسن معاملةً وأقرب مُسالمةً للمسلمين، وأمام هذا التصرّف اتجه عدد من زعماء المسلمين إلى إعادة النظر في مواقفهم السياسية تجاه البلاشفة على الرغم من أن أوامر الشيوعيين إلى منظماتهم كانت غير واضحة تماماً بل فيها كثير من المرونة إضافةً إلى أن البلاشفة لا عهد لهم ولا ذمّة وإنما يتخذون المواقف المرحلية من خلال مصالحهم وما تقتضي عليهم الظروف فربما سالموا اليوم ألدّ أعدائهم، وأظهروا الصداقة لأعنف خصومهم، ولا مانع عندهم أن ينقضوا في الغد ما أبرموا اليوم، ويُعلّقوا أصدقاء الأمس على حبال المشانق، ويسحقوا الذين سبق لهم أن عاهدوهم، بل وأن يُبيدوا رفاقهم الحقيقيين إن اختلفوا معهم في نقطةٍ، أو اقتضت مصلحتهم ذلك، أو خافوا منهم أن يسبقوهم في عملية القتل، فإن لم يتخذوا الموقف الحاسم بسرعةٍ سُحقوا.

وقد ساعد زعماء المسلمين على تغيير مواقفهم أن الأميرال كولتشاك وزير حربية الحكومة السيبيرية عندما قام بانقلاب على حكومته وتفرّد بالسلطة في شهر صفر ١٣٣٧ (تشرين ثاني ١٩١٨) أعلن وأكّد أنه لن يبالي بمطالب المسلمين في موضوع الاستقلال الذاتي بل لا يُعير قضاياهم اهتماماً. وكذلك فإن الجنرال دينيكين في منطقة أوكرانيا كان يُظهر عداءً للمسلمين أكثر من كولتشاك، إذ قضى على كثيرين من تتار القرم، وأغلق كل الصحف الإسلامية، وحظر على حزب (ملّي فرقة) النشاط في ٢٣ ذي القعدة عام ١٣٣٧ (٢٣ آب ١٩١٩)، فكان هذا أن التجأ حزب (ملّي فرقة) إلى العمل السري والتعاون مع البلاشفة. وإذا كان قد انتهى عهد دينيكين وجاء محلّه الجنرال رانجل الذي أراد أن يُصلح ما أفسد سلفه بوعود إلى المسلمين بالاستقلال الذاتي إلا أن الوقت قد فات.

ومما ساعد البلاشفة على تحقيق النصر انقسام خصومهم، وعمل كل جهة وحدها، بل أكثر من ذلك. إذ كان البيض نفسهم في صراع بعضهم مع بعض، والحكومة الواحدة يتنافس زعماؤها فيما بينهم على السلطة، ويتفرّد أحدهم حتى يتقوّى أحد أعوانه، وربما كان الأميرال كولتشاك والجنرال دينيكين أنموذجين على ذلك. ويجب أن لا ننسى أبداً مخاصمة البيض للمسلمين في الوقت الذين كانوا هم فيه بأشدّ الحاجة إلى دعمهم ومُساعدتهم، وفي الوقت الذي نسي فيه البيض هذه الناحية أو قوة المسلمين فطن لها الشيوعيون، فمنّوا المسلمين بمعسول الكلام، وطيب الأماني ضمن مُخطّطٍ مرحليٍ، حتى إذا تمكّنوا طبّقوا سياستهم التي أضمروها للمسلمين.

أ ـ في الأورال: اجتمع أحمد زكي وليد وإخوانه اجتماعاً سرياً في جبال الأورال في مطلع شهر ربيع الأول ١٣٣٧ (٦ كانون الأول ١٩١٨) وقرّروا في ذلك الاجتماع ترك البيض مرحلياً والالتحاق بالروس الحمر، وفي ٢٠ ربيع الأول (٢٥ كانون الأول) أمر الأميرال كولتشاك بحلّ الوحدات

البشكيرية التي تُقاتل بجانبه. وفي ٢٥ ربيع الأول التقى الزعماء الباشكيريون مع السوفييت في قريةٍ وراء خطوط الروس الحمر، وبحثوا في كيفية انضمام الوحدات الباشكيرية إلى السوفييت. وفي ٣ جمادى الأولى (٦ شباط ١٩١٩) أعلن مجلس مفوضي الشعب العفو العام عن البشكيريين الذين يتركون قوات الأميرال كولتشاك. وفي ١٥ جمادى الأولى اجتاز خطوط النار ألفا مقاتل من الباشكيرية بإمرة قادتهم. وفي اليوم التالي وقّع أحمد زكي وليد اتفاقية مع حكومة موسكو تقضي بتأسيس حكومةٍ باشكيريةٍ موقتةٍ تُديرها لجنة ثورية يشترك فيها سوفييت وباشكيريون وطنيون. وهكذا خضعت منطقة الأورال للسوفييت.

ب ـ في منطقة القرم: هاجم الجيش الأحمر منطقة القرم، وخرج أعضاء حزب (ملّي فرقة) يستقبلون المهاجمين وينضمّون إلى صفوفهم، ويُقاتلون الروس البيض الذين زادوا من ضغطهم على سكان القرم الأمر الذي جعلهم يتجهون إلى الروس الحمر، وتمكّن السوفييت من احتلال القرم في ربيع الأول ١٣٣٩ (تشرين الثاني ١٩٢٠ م).

جـ ـ شمالي القفقاس: دخل الجنرال دينيكين بقواته شمالي القفقاس في شهر شعبان ١٣٣٧ (أيار ١٩١٩)، غير أنها اصطدمت بالسكان، وقد رفض الجنرال دينيكين مطالب المسلمين كلها الأمر جعل المسلمين يُقاتلونه في الوقت الذي يحتاج فيه إلى توجيه قواته إلى وجهةٍ واحدةٍ، إذ كان يستعدّ للقيام بهجوم صاعقٍ على حكومة موسكو، وكان الشيخ أوزون حاجي والإمام علي أكوشا هما اللذان يقودان القوات المسلمة والتي انضمّ إليها الاشتراكيون والدستوريون الديمقراطيون.

واصطدم الجيش الروسي الأحمر مع القوات الروسية البيضاء، وانتصر الجيش الأحمر، واتّجه نحو شمالي القفقاس فوجد له رفاقاً هناك انضمّوا إليه

لا حبّاً بالسوفييت ولكن كُرهاً بالروس البيض، ولا عن عقيدةٍ ولا قناعة وإنما عن كراهيةٍ، ورضىً بالأمر الواقع. واقتحم الجيش الأحمر داغستان واحتلّها أيضاً.

د ـ أذربيجان: كانت حكومة باكو تُسالم السوفييت خوفاً من جيوش الروس البيض التي كانت تُهدّدهم بقيادة الجنرال دينيكين، ومنذ شهر صفر ١٣٣٧ (تشرين الثاني ١٩١٨) بدأ الشيوعيون الذين فرّوا من المنطقة يعودون إليها بتأييد من حزبي (همة) و (عدالة) حيث يضمّ أولها أتراكاً أذربيجانيين، ويضمّ الثاني إيرانيين، وفي مطلع شهر جمادي الأخرة ١٣٣٨ (شباط ١٩٢٠) اندمج الحزبان السابقان مع الخلايا السرية الروسية الشيوعية في أذربيجان وشكّلوا الحزب الشيوعي الأذربيجاني، وبذا فقد قوي موقف الشيوعيين إذ أصبح عدد أعضاء هذا الحزب الجديد أربعة آلاف عضو، وهذا ما جعل الجيش الأحمر المرابط في داغستان يقتحم أذربيجان يوم ٦ شعبان عام ١٣٣٨ (٢٧ نيسان ١٩٢٠) ويحتلّها، ويجعلها تحت سلطانه، وقد وجد منظمةً شيوعيةً من أبناء البلاد يتعاون معها، ويُمكنه بدعمها قمع كل حركةٍ، وتحمل أعباء الحكم.

هـ ـ بلاد القازاق: بعد أن تفاهم الباشكيريون مع السوفييت سار القازاق على طريقهم إذ التقى زعماء حزب (ألاش أوردا) بزعماء سوفييت بمدينة أوسك في شهر جمادى الآخرة ١٣٣٧ (آذار ١٩١٩)، وانسحبت الوحدات العسكرية الباشكيرية التابعة لحزب (ألاش أوردا)، وبعد شهرين أي في شهر شعبان اعترف القازاق بسلطة السوفييت على بلادهم، وفي شهر رمضان سافر أحمد بايترسون إلى موسكو حيث وقّع مع لينين وستالين اتفاقيةً تقضي بإقامة حكومةٍ يشترك فيها الوطنيون القازاق والسوفييت، ودخل الجيش الأحمر بلاد القازاق وهزم قوات الأميرال كولتشاك.

و ـ تركستان: قامت حركة المجاهدين تُقاتل بسبب الظلم الذي لحق

السكان من سوفييت طاشقند، وقوي أمر هذه الحركة وقد أتاها عدد من الباشكيريين فارين من ديارهم مع أحمد زكي وليد، ووالدي طوقان، كما فرّ إليهم أنور باشا، وبلغت حركة المجاهدين من القوة حتى حسب كثير من الناس أن الإمبراطورية الروسية قد أفل نجمها على الأقلّ من منطقة تركستان، ولكن منذ أن استطاعت الجيوش الحمراء شقّ طريقها إلى طاشقند في ربيع الأول ١٣٣٨ (تشرين الثاني ١٩١٩) دعماً لسوفييت طاشقند بدأت الكفّة ترجح لصالح السوفييت، ويضعف أمر حركة المجاهدين، وقد أرسل لينين لجنة إلى طاشقند عرفت باسم (لجنة تركستان)، وأغدقت الوعود للمسلمين، وجرى تعديل على اللجنة السياسية القائمة لصالح المسلمين، فصدّقت بعض النفوس وقبلت وعود السوفييت، ولم تكن هناك وسائل إعلامية لدى المسلمين توضّح الحقائق، بل لم يكن المسلمون على تلك الدرجة من الوعي الأمر الذي أضعف حركة المجاهدين، وإن استمرّت حتى عام ١٣٤٧، إلّا أن السوفييت قد تمكّنوا في المنطقة، إذ انضمّ إليهم عدد من أبناء البلاد.

ورغم أن لجنة تركستان قد أعطت السكان وعداً باستقلال المنطقة استقلالاً ذاتياً، والإبقاء على مراكزهم الثقافية والتعليمية والدينية، إلّا أن هذه الوعود كانت مرحلية، فما أن قوى أمر الروس الحمر في تركستان حتى اتّجهوا بقيادة فرونزي نحو إمارة بُخارى وخُوارزم واستولوا عليها، وغدت تركستان كلها تحت سلطان الروس، وإن أبقوا لبُخارى وخوارزم شيئاً من الاستقلال تحت إشراف الشيوعية.

كما كان الروس الحمر قد احتلّوا سيبيريا ودخلوا مدينة (إيركوتسك)، ووقع الأميرال كولتشاك أسيراً بأيديهم في أواخر شهر ربيع الأول ١٣٣٨ (كانون الأول ١٩١٩).

وانتهت روسيا كذلك من حربها الهامشية التي خاضتها مع بولونيا عام ١٣٣٩.

وما جاء شهر ربيع الثاني من عام ١٣٣٩ (نهاية عام ١٩٢٠) حتى انتهت الحرب الأهلية، وألقى الناس السلاح من وجه الشيوعيين الذي صفا لهم الجو وتفرّغوا لتنفيذ مُخطّطاتهم، غير أن أكثر بلاد المسلمين قد غدت خربة وخاصة منطقة حوض نهر الفولغا (بلاد التتار والباشكير) إذ كانت ميدان الصراع بين الروس الحمر والبيض، ومسرح العمليات ضدّ قوات الأميرال كولتشاك والأسرى التشيكوسلوفاكيين فأبيدت أكثر الوحدات العسكرية الإسلامية، وانتهت المُنظّمات التعليمية والثقافية والدينية إذ أن جميع المتخاصمين أعداء للمسلمين، وتمتلىء قلوبهم حقداً عليهم فكلما انتصر فريق منهم أبدى قوته على المسلمين، وأرهب الناس بقتل المسلمين وارتكابه الأعمال الوحشية وكل فاحشة. ولما استولى التشيكوسلوفاكيون على قازان في شهر ذي القعدة ١٣٣٧ (آب ١٩١٩) قبضوا على ملانور وحيد وقتلوه مباشرةً رمياً بالرصاص.

وعندما اطمأنّ الشيوعيون من خنوع الناس وانهيار القوة الإسلامية حيث لا يمكنها أن تقوم بحركة ردّ فعلٍ، عُقد مؤتمر في موسكو فاقترح ستالين إصدار قرارٍ بإجبار المسلمين على دمج الحزب الشيوعي الإسلامي بالحزب الشيوعي الروسي، وقد صدر القرار وتمّ الدمج، ولم يعد للمسلمين أية قوة مُستقلة، وإذا كان المرء يضحك من وجود حزبٍ شيوعيٍ إسلامي إلّا أن هذا يدلّ على خطأ في تفكير المسلمين يومذاك وفي كل يوم يُفكرون فيه بالتنازل عن شيء من عقيدتهم أو الالتقاء بمنتصف الطريق مع خصومهم حسب اصطلاح السياسيين، كما يدلّ على عدم وجود ثقة من الروس (بالمسلمين) ولو كانوا على عقيدتهم ما داموا يرجعون في أصولهم إلى الإسلام. والقصد هنا بالمسلمين الذي ينتمون إلى الإسلام بالوراثة. أما المسلم فلا يمكن أن يكون شيوعياً.

وبعد هذا النصر الذي أحرزه الشيوعيون بدأت التنظيمات والأفراد في

المناطق الإسلامية تتجه إلى الحزب الشيوعي وتنضمّ إليه خوفاً وتستُّراً ومصلحةً وهوىً و ..... لقد قبل الشيوعيون في صفوفهم الجناح اليساري في حزب (ملّي فرقة) الذي يتزعمه ولي إبراهيم في القرم، وحزب (ألاش أوردا) القازاقي، وحزب (همّة) الأذربيجاني، وتجمّع شباب بُخارى التركستاني، وتجمّع شباب خيوه التركستاني أيضاً، وحزب (جديد) التركستاني كذلك، وكل العناصر التي تُسمّي نفسها ثورية، أو تدّعي ذلك وهي لا تعرف ما تعني هذه الكلمة، وتكفي هذه الدعوى الشيوعيين إذ تعني أن العنصر مستعد للسير بالشكل الذي يُراد له، وبالعقيدة التي تُطلب منه، وبالمخطط الذي يُرسم له مُقابل الانضمام الذي يهدف من ورائه إلى..... ولم يكن هناك من مانع لدى سدنة الشيوعيين حيث يعلمون أن أكثرية المنضمّين إليهم لا يؤمنون بمبادئهم ولا يقبلون أفكارهم وإنما سعوا إليهم خوفاً وتزلّفاً لأطماع ومكاسب، ولكنهم في الوقت نفسه هم يُريدون مُقاتلين يطعنون بهم خصومهم ويرمونهم في نحور أعدائهم حتى حين (مرحلياً) ثم يلتفتون إليهم يسحقونهم. إن الروس البيض أعداء الشيوعية ولكنهم أقرب إليها من المسلمين، فاستعملت الشيوعية المسلمين أداةً لضرب خصومها السياسيين، ثم سحقت هذه الأداة عدوتها اللدودة عقيدةً وفكراً.

الفصل الخامس

الاستعمارُ الشيوعي

هُزم المسلمون وليس غريباً أن يُهزموا بعد أن سلكوا طريقاً ليست مستقيمة، لقد غُلبوا وكان عاقبة أمرهم خُسراً إذ لم تكن لهم شخصيتهم المتميّزة لقد أيدوا الحزب الدستوري الديمقراطي فخذلهم، وساروا مع الاشتراكيين الثوريين فأذلّوهم، ودعموا الروس البيض فلحقهم الهوان منهم. وحاولوا إدخال الاشتراكية إلى أفكارهم فلفظهم أتباعها، وعملوا على التوفيق بين إسلامهم وما ساد مجتمعهم من آراء ومبادىء، فأبى الإسلام عليهم، ورفض المجتمع منهم بعد أن رآهم قد هان عليهم أمر دينهم، وارتموا في أحضان الشيوعية ضدّ النظام القيصري الذي أمعن في ظلمهم، وضدّ خصومهم الذين خذلوهم فذاقوا المرّ، ثم سُحقوا، وسار عليهم جُهّالهم، وحكمهم أراذلهم، فعزّ الذليل، وذلّ العزيز، وتسلّط الطغاة، وكُمّت الأفواه، وكان الضياع، مع الحديث عن الإسلام عاطفةً، والتمسك بالانتماء إليه كلاماً. وكان ذلك عبرةً لكل مسلم في المستقبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

عقد الشيوعيون المؤتمرات لنشر الشيوعية في الشرق، وعملوا على استعمال اصطلاح الشرق على أنها آسيا بصفة أن روسيا تستعمر جزءاً كبيراً من آسيا يصل إلى أكثر من ثلث مساحتها، فعندما تقول الشرق، ليقف أهل الشرق ضدّ الغرب وهو بقية دول أوربا المُعادية أو المُنافسة لروسيا. غير أن هذه

المؤتمرات قد مُنيت بالفشل الذريع، إذ حُرّم الحزب الشيوعي في تركيا، وفي بلدانٍ ثانية، فجاءت الأوامر للشيوعيين بالتعاون مع الأحزاب الأخرى غير أن هذه السياسة لم تنجح أيضاً، لأن بعضهم قد ذاب في التنظيمات التي اشترك معها، أو نُبذ واضطهد، ووقع هذا الخلاف على أشدّه في الصين إذ ذُبح العمال الشيوعيون في مدينة شانغهاي وفي كانتون، ونتيجة لذلك الفشل تغيّرت السياسة إذ جاءت تعليمات موسكو بترك التعاون مع الاحزاب، ونشر الدعاية ضدّها واتهامها بالارتماء في أحضان الدول الرأسمالية الاستعمارية ولم يكتب النجاح لهذه السياسة أيضاً.

وغيّر الشيوعيون سياستهم إذ وجهوا اهتمامهم بعد عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) إلى الصراع مع الأنظمة الفردية الجديدة التي برزت على السلطة في كلٍ من إيطاليا وألمانيا، فبدأت الدعاية ضدّها وتُركت مرحلياً العمل ضدّ الرأسمالية الفرنسية والإنكليزية.

السياسة الشيوعية: من المعلوم أن الشيوعية عدوّة للدين غير أن هذه العداوة كانت منصبّة على الإسلام، ولا يمكن أبداً المقارنة بين ما اتخذته الشيوعية من أساليب وقراراتٍ في عداوتها للإسلام مع ما اتخذته ضدّ النصرانية واليهودية ولا غرابة في ذلك فديانة سدنة الشيوعية هي النصرانية واليهودية، واليهود هم أصحاب الفكر الشيوعي، والذين يسيطرون على الحزب والذين يتولّون مهمة التوجيه فيه ويرسمون سياسته إنما هم من النصارى واليهود، وإذا تسلّق أحد الذين كانوا ينتمون إلى الإسلام على حبال الحزب وكانت عنده إمكانات ضخمة وطاقات هائلة إلا أن الجميع لا يثقون به ولا يدعونه يتصرّف، ولا بدّ من التخلّص منه، أو مراقبته والتحذير منه حتى يخشاه الأعضاء وينفرون منه، أو يذلّونه بالقبض عليه ولو موقتاً حتى يضعف شأنه ويقلّ وزنه عند الأفراد جميعاً، كما فعلوا بسلطان غالييف الذي سُجن مرتين رغم خدماته لهم.

وهناك ملاحظة أخرى يجب أن ننتبه إليها وهي أن السياسة الشيوعية كانت على الأقلّ في هذه المرحلة تتخبط في قراراتها وتوجيهاتها، وهذا أمر طبيعي أيضاً وذلك لأنها تتبنّى سياسةً مرحليةً فهي بناءً على ذلك تتغيّر تبعاً للمرحلة التي تمرّ فيها، فنجد انها تُصادر الأوقاف ثم تعود فتسمح بها حسب الضغط الذي تتعرّض له أو المقاومة التي تصطدم معها.

ويمكن أن نرى بعض التقلّبات التي طرأت على السياسة الشيوعية فيما يتعلق بالمسلمين، وأسباب تلك التغيّرات بخطوطٍ عريضة.

بعد الحرب الأهلية، وشعور الشيوعيين أن الأمر قد استقرّ لهم والوضع قد استتبّ أعلنوا حرباً عنيفةً على المؤسّسات الإسلامية والتي تتمثّل في الأوقاف والمحاكم الشرعية ومراكز التعليم الديني. كان الحكم القيصري قد ألغى الأوقاف في منطقة الفولغا، ويُنفق دخل هذه الأوقاف عادةً على رواتب العلماء والذين يقومون بخدمة المؤسّسات الدينية كالمساجد وغيرها، وعلى المشافي، ومراكز التعليم الديني وطرق الخير الكثيرة فلما تملّكت الدولة هذه الأوقاف ارتبط العلماء وموظفو المساجد، والمشافي، ومراكز التعليم بالسلطة، وأصبحوا تبعاً لها، ومنعت طرق الخير، وهذا ما تبغيه الدولة بأن يكون كل شيء في يدها، وإذا كانت قد ألغيت في منطقة الفولغا غير أنها قد بقيت في بلاد القرم، والقفقاس، وتركستان، غير أن سوفييت طاشقند قد استولوا عليها في تركستان. ثم صدر مرسومان في ٢٥ شوال ١٣٤٠ (٢٠ حزيران ١٩٢٢) و ٥ جمادى الأولى ١٣٤٠ (٢٨ كانون أول ١٩٢٢) يقضيان بإعادة الأوقاف في تركستان، أما المدارس القرآنية فقد خضعت لإشراف لجنة مختلطة من العلماء والسوفييت، ثم ألحقت بإدارة التعليم. وربما كان هذا التراجع يعود إلى سببين اثنين:

أ - حركة المجاهدين لا تزال قائمةً، ويُريد الشيوعيون أن يُظهروا التسامح مع المسلمين كي لا ينفر الناس ويلتحقوا بحركة المجاهدين، أما

التساهل فربما يؤدي إلى السكوت، وعدم تأييد المجاهدين.

٣ ـ نصيحة سلطان غالييف التي قدّمها للشيوعيين بإعادة امتيازات المؤسسات الإسلامية التي ألغيت استرضاءً للشعب الذي رأى قسوةً من الشيوعيين أكثر مما رأى من القياصرة.

كما أن دستوري محميتي بُخارى وخُوارزم اللذين صدرا عام ١٣٤١ قد أعطيا الحرية الدينية والحق في ممارسة الشعائر والعبادات بشرط ألا تمسّ حرية الآخرين. كما أن دستور محمية بُخارى لا يمنع علماء الدين من حق التصويت، على حين أن دستور خُوارزم لا يمنع أحداً من حقّ التصويت سوى علماء الدين. ويُشبه دستور أذربيجان في هذه الناحية دستور بُخارى إذ يسمح بتصويت علماء الدين في الانتخابات. مع العلم أن رجال الدين النصارى لا يملكون هذا الحق. كما ألغيت المحاكم الشرعية، ثم سمح بها للأسباب نفسها.

ولكن عاد الشيوعيون فصفّوا الأوقاف نهائياً عام ١٣٤٤، وفي هذا العام تأسّس اتحاد الجماعة الإلحادية التي لا دين لها برئاسة أميليان ياروسلافيسكي وبدأت تقوم بنشاطها، وكانت تُسمّي نفسها (اتحاد من لا إله لهم).

وبعد أن قُضي على حركة المجاهدين وصفا الجو للشيوعيين قاموا بحركةٍ مُكثّفةٍ ضدّ الإسلام إذ مُنع المسلمون من أداء فريضة الحج، ومن تأدية الزكاة، وقامت كافة وسائل الإعلام بالهجوم على الصلاة والصيام وإلقاء التهم على أصحابها والسخرية منهم. وكان في هذا الوقت قد تفرّد ستالين بالسلطة وتخلّص من رفاقه المنافسين له.

وألقي القبض على سلطان غالييف نصير الشيوعيين أول مرةٍ عام ١٣٤٢ والثانية عام ١٣٤٧، واشتدّ الضغط على المسلمين حتى انصرفوا إلى العمل السري وتشكيل مُنظّمات تعمل سراً وتدعو إلى القومية الإسلامية أي ارتبط

الإسلام بالقومية، والقومية دعوة عصبية عاطفية لا منهج لها، ولا فكر تعمل به. واستمرّ الضغط حتى قبيل الحرب العالمية الثانية.

ويُمكن إعطاء فكرة عن هذا الهجوم ببعض الأمثلة: كان يوجد في الامبراطورية الروسية عام ١٣٣٠ (١٩١٢ م) (٢٦٢٧٩) ستة وعشرون ألفاً ومائتان وتسعة وسبعون مسجداً سوى مساجد بُخارى وخُوارزم، أي بمعدل مسجدٍ لكل (٧٠٠ ـ ١٠٠٠ مسلم)، وقد بقي من هذه المساجد عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢) ألف وثلاثمائة وإثنا عشر مسجداً أي هُدّم وأزيل ما يقرب من خمسة وعشرين ألف مسجد خلال إحدى وثلاثين سنة.

عادت الأمور فتغيّرت بعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية إذ عادت الدولة تسترضي المسلمين فقد سمحت بإقامة أربعة مراكز دينية عام ١٣٦٠ أولها في أوفا للإشراف على الشؤون الدينية في حوض الفولغا والمسلمين الموزّعين في كافة أنحاء المنطقة الأوربية، والثاني في محج قلعة عاصمة بلاد الداغستان للإشراف على شؤون المسلمين في بلاد القفقاس، والثالث في باكو وهو شيعي ويتبعه المسلمون في أذربيجان، وأرمينيا وجورجيا، والرابع في طاشقند ويتبع له المسلمون في آسيا الوسطى كلها.

كما سمحت بإقامة مؤتمر لزعماء المسلمين في مدينة أوفا عام ١٣٦١، وقد تكلّم فيه الحضور عن ضرورة دعم الدولة الروسية ضدّ أعدائها، ولكن هذا كله أثناء الحرب وللضرورة لذا لا يمكن الركون على قرارات الحكومة، وفي الواقع ما انتهت الحرب حتى اتّهمت الدولة شعوباً كاملة بالخيانة والعمالة للألمان، وقد قتلت من قتلت منهم، وأودعت الكثير السجن، وارتكبت المظالم والوحشية ونفت شعوب الشاشان، والبلكار، وتتار القرم. ولما انتهت مرحلة ما بعد الحرب وهلك ستالين ادعى سدنة الشيوعية أن ستالين قد أخطأ بذلك التصرّف وأن غروره هو أدّى به إلى القيام بهذا العمل، لذا فقد بُرّئت ساحة

الششان والبلكار وأعيدوا إلى أوطانهم، وأعيدت إليهم جمهورياتهم، وأما تتار القرم فلا يزالون في منفاهم هائمين على وجوههم في مجاهل سيبريا.

والأمر الذي أصبح شائعاً في الإمبراطورية الروسية أنه كلما جاء زعيم جديد للشيوعية انتقد سلفه ليبرز فادعى أن سابقه قد اشتدّ على المسلمين، وأنه حاد عن المنهج الشيوعي في تساهله الذي أدّى أو كاد يؤدّي إلى ظهور بورجوازيةٍ جديدةٍ، وقومياتٍ وطنيةٍ فيبدأ بكيل الضربات التي يكون للمسلمين النصيب الأوفى فيها. لذا فاضطهاد المسلمين مستمرّ ومتزايد مع الزمن هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر فإنه في أقلّ الأيام اضطهاداً عندما تبرز مشكلة فإن الوضع لا يختلف عما كان عليه أيام الحكم القيصري بل يزيد عليه كثيراً حسب الوسائل الحديثة. لذا فوضع المسلمين في تدهورٍ دائمٍ.

وإذا أردنا أن نتحدث عن تفاصيل الاضطهاد فإننا نحتاج إلى عددٍ من الكتب ولذا فإننا سنقتصر على بعض الجوانب، ونأخذ أمثلة محدودة توضحّ خطّ السياسة العامة.

إن مكافحة الإسلام والعناية بنشر الإلحاد يقعان من حيث المبدأ على عاتق كل مُنظّمات الحزب وعلى الكومسومول (اتحاد الطلاب)، وكذلك على الفروع الإقليمية لمؤسّسة ماركس - أنجل - لينين، وعلى كل وزارات الثقافة في جميع الجمهوريات. وأما عملياً فهناك مُنظّمة تُعرف باسم «جمعية نشر المعلومات السياسية»، أنشئت إثر الحرب، وصلاحياتها شبيهة بصلاحيات (اتحاد من لا إله لهم)، وهي التي تقوم بحملات الدعاية ضدّ الإسلام، والمركز الرئيسي لهذه المنظمة هو موسكو، ولها فروع في كل الجمهوريات، وهذه الفروع تُشرف على نشاط المُنظّمات الإقليمية وما دونها من مُنظّمات مُقامة في المدن والقرى. وكل الوسائل مُجنّدة في نظر الشيوعيين للتأثير في الجماعات التي ما زالت على حد تعبيرهم (تحت تأثير الأفكار الدينية المسبقة): الأحاديث بالإذاعة، الأفلام السينمائية المعادية للدين، المتاحف، المعارض

الثابتة والمعارض المتحركة وخاصةً المحاضرات والصحافة. ويبدو أن الجهود الذي بذلتها المنظمة في هذا الصدد كانت جهوداً عظيمة جداً ولا سيما ما كان منها في ميدان المحاضرات العامة. ومثال على ذلك أن الفرع القازاقي الذي كان يُشرف سنة ١٩٤٨ م (١٣٦٧ هـ) على نشاط خمسة عشر فرعاً إقليمياً، وتسعةٍ ومائتي فرعٍ في المدن والقرى، وخمسة عشر وثمانمائة مكتبٍ للدعاية نظّم خلال ثلاث سنوات ١٩٤٦ - ١٩٤٨ م (١٣٦٥ - ١٣٦٧).

٣٠,٥٢٨ محاضرة عامة، منها ٢٣,٠٠٠ محاضرة ضدّ الإسلام[1].

وألقت المُنظّمة في أوزبكستان سنة ١٩٥١ م. (١٣٧١ هـ) أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضدّ الإسلام[2] وأخيراً وفي سنة ١٩٦٣ م (١٣٨٣ هـ) ألقت المنظمة ذاتها في تركمانستان أكثر من ٥,٠٠٠ محاضرة ضدّ الإسلام. يُضاف إلى كل هذه الجهود العامة جهود خاصة إذ يقصد العاملون ضدّ الدين منازل المسلمين ويجبرون أهلها على الاستماع إلى أقوالهم.

ويبدو أن الجهود المبذولة لمكافحة الإسلام عن طريق النشر هي أعظم بكثيرٍ من الجهود الكلامية، إذ بصرف النظر عن المقالات، التي لا تعدّ ولا تُحصى والتي تنشر في الصحف ضدّ الإسلام، فقد طبعت المُنظّمة ما بين ١ كانون الثاني ١٩٥٥ م وبين ١ آب ١٩٥٧ (أي مدة سنتين ونصف)، أربعةً وثمانين كتاباً في ثمانين ألف نسخة وزّعتها في المناطق الإسلامية من الامبراطورية الروسية، وصدرت هذه الكتب على الشكل التالي:

٢٠ كتاباً عن أوزبكستان.

١٠ كتب عن بلاد التتار.

٩ كتب عن داغستان.

(١) جريدة قازاقستان - برافدا. ألما آتا في ١٩٥٢/٣/١.

(٢) جريدة قيزيل أوزبكستان. طاشقند في ١٩٥٢/٣/١٨.

٨ كتب عن قازاقستان

٧ كتب عن طاجيكستان

٦ كتب عن بلاد الباشكير.

٣ كتب عن القبرطاي.

٢ كتاباً عن قره قاليق.

١ كتاباً عن منطقة الأديغة.

١ كتاباً عن أوستين الشمالية

٦ كتب عن القيرغيز

٤ كتب عن أذربيجان.

٤ كتب عن تركمانستان.

٣ كتب عن منطقة قراتشاي الشركسية.

وبعد موت ستالين اشتدّت الحملة على الإسلام إذ ظهر في الإمبراطورية الروسية خلال سنوات، أي ما بين (١ كانون الثاني ١٩٦٢ وإلى ٣١ كانون أول ١٩٦٤) ٢١٩ كتابا ونشرةً ضدّ الإسلام خاصةً أو موجهةً إلى المسلمين، ومن هذه الكتب:

٤٧ كتاباً بلغات داغستانية مختلفة.

٢٦ كتاباً باللغة الأوزبكية.

١٥ كتاباً باللغة القازاقية.

١٤ كتاباً باللغة الأزرية.

١٢ كتاباً باللغة الطاجيكية.

٦ كتب باللغة التتارية القازانية.

٨ كتب باللغة القيرغيزية.

٧ كتب باللغة الباشكيرية.

٢ كتاباً بلغة القبرطاي.

٢ كتاباً باللغة التشاشانية.

١ كتاباً بلغة الأبخاز.

١ كتاباً بلغة القره قالبك.

١ كتاباً بلغة الأنغوش.

١ كتاباً بلغة قراتشاي.

٦٠ كتاباً باللغة الروسية موجهة إلى المسلمين.

٢٧ كتاباً نشرت في داغستان[1].

أين محاربة النصرانية واليهودية من محاربة الإسلام؟ على حين أن المفروض أن تكون الكتب الموجهة ضدّ النصرانية تُعادل ٤ مرات ما كتب ضدّ الإسلام بالنسبة إلى أتباع الديانتين. والواقع أن الكتب التي توجّه ضد الدين عامة إنما يُقصد بها الإسلام.

إضافةً إلى هذا يجب ملاحظة منع تأدية الزكاة، ومنع السفر إلى الحج، وعندما سمح لعشرين شخصاً بأداء فريضة الحج عام ١٣٦٤، مُنعوا من الاختلاط بالمسلمين والتقيّد برفقة بعضهم لبعض (حيث يوجد بينهم مراقبون سياسيون)، وعدم الجرأة في تأدية الصلاة في المسجد لأن هذا يُعرّض إلى السؤال والتعذيب أقلّ احتمال وربما يصل الأمر إلى الاختفاء. وزيادة ساعات العمل في رمضان، وتكليف المسلمين بالأعمال الشاقّة في هذا الشهر كي يمتنعوا عن الصيام إن أرادوا، وإلزام الفتيات المسلمات على السفور، والقضاء على صاحب أية كلمة نقدٍ مهما كانت، والسخرية من أهل الدين باستمرار و.....

أما بالنسبة إلى الاضطهاد والقتل فيكفي أن نأخذ مثالاً واحداً أيضاً من

---

(١) انظر كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» تعريب إحسان حقي، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية صفحة ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

خلال أقوال صحفهم ومسؤوليهم:

بعد أن نجح الشيوعيون في ضمّ المناطق التي استقلّت عنهم اتجهوا نحو بلاد القرم، ولكن القرميين قاوموا الغزو الشيوعي ببسالةٍ فائقةٍ، ولما عجزوا عن ردّ العدوان لكثرة جيوشه وجموعه وضخامة إمكاناته اعتصموا بالجبال يُغيرون على المعتدين، ويقومون بالهجمات الناجحة على قطعاته، وكان الشعب جميعه يمدّهم بالمواد التموينية وينقل لهم الأخبار، فلما رأى الشيوعيون أن حبل المقاومة طويل لجأوا إلى حرب التجويع، فنقلوا ما كان في الجزيرة المقاومة من أقواتٍ، الأمر الذي عرّض السكان للهلاك، وقد نشرت جريدة «الازفستيا» في عددها الصادر في ٢٥ تموز تقريراً للرفيق كالينين عن مجاعة القرم جاء فيه ما يلي: (بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر كانون الثاني ٣٠٢,٠٠٠ مات منهم ١٤,٤١٣، وارتفع عددهم في شهر آذار إلى ٣٧٩,٠٠٠ مات منهم ١٩,٩٠٢ نسمة، وبلغ في شهر نيسان ٣٧٧,٠٠٠ مات منهم ١٢,٧٥٤، وفي شهر حزيران ٣٩٢,٠٧٢ ولم يذكر عدد الموتى، إلا أنه قال: «إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يُستغرب لها أو تبدو عجيبةً في بابها»). وكان الشيوعيون قد قتلوا مائة ألفٍ قبل عام أي أثناء دخولهم بلاد القرم، كما أنهم هجّروا خمسين ألفاً آخرين. ونصّبوا رئيساً لجمهورية القرم الإسلامية الشيوعي المنغاري (بالاكون)، وأعدموا رئيس الجمهورية السابق (جلبي نعمان جهان) وألقوا جثته في البحر.

واستمرّ هذا الضغط وذلك الارهاب حتى جرّدوا المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات، وشرعوا بتهديم المساجد والمعاهد الدينية حتى لم يبق من ١٥٥٨ مسجداً كانت موجودة بالقرم إلا آحاداً قليلة، أما جمهرتها الكبرى فقد تحوّلت إلى أنديةٍ، وقهواتٍ، ودور لهوٍ، واصطبلات للخيل، وحظائر للمواشي، وبدأ عدد السكان البالغ خمسة ملايين عند قيام الانقلاب الشيوعي يتناقص تدريجياً.

وفي عام ١٣٣٨ أعلنت موسكو عن قيام جمهورية القرم ذات الاستقلال الذاتي، وعيّنوا عليها رئيساً شيوعياً هو (ولي إبراهيم)، ثم قتلوه عام ١٣٤٨ مع جميع وزرائه، لأنه اعترض على فكرة ستالين بإقامة دولةٍ يهوديةٍ في القرم، وبالتالي تدفّقت الهجرة اليهودية نحو القرم. وفي عام ١٣٤٩ نُفي أربعون ألف قرمي إلى سيبيريا للعمل في معسكرات العمل الإجباري فمات الكثير منهم من شدّة البرد والجوع وقسوة العمل، وفي العام نفسه قتل الشيوعيون رئيس الجمهورية الجديد (محمد قوباي) مع وزرائه لأنه اعترض على سياسة التجويع في بلاده، حيث استولت حكومة موسكو على منتجات القرم الزراعية وعملت على بيعها في الخارج. ثم كرّروا الحادثة عام ١٣٥٦ مع رئيس الجمهورية (الياس طرخان) إذ استدعوه إلى موسكو وقتلوه مع وزرائه رمياً بالرصاص. هذا مع العلم من أن الشيوعيين هم الذين كانوا يوافقون على تعيين هؤلاء الرؤساء للجمهورية، ولا يتسلّم وزير منصبه إلّا بعد صدور الموافقة من موسكو. هذا مع الوزراء ورؤساء الجمهوريات فما بالك في قتل الأفراد؟.

الواقع أن الكثير من عمليات السحق والإبادة الجماعية والفردية تتمّ في الإمبراطورية الروسية دون أن يعلم بها أحد، وإذا صدف ووصل الخبر إلى صحفي أو آخرين هل يستطيع إنسان أن يتفوّه بكلمة؟ لا يستطيع أي امرىء حتى ولو كان أقرب الناس إلى القتيل أو من شاهد الحادث أن يبوح بأي خبرٍ ولو صدف وتحدث عُدّ كأنه لم يكن.

ولا شكّ فإن فرض اللغة الروسية على المسلمين هو أحد عوامل الاستعمار وسمة من سماته، وأصبحت اللغة الروسية تعدّ اللغة الأولى أو الثانية في كل الأقاليم الإسلامية الخاضعة لهذا الاستعمار، كما أن حرفها قد فرض على كثيرٍ من اللغات التي لم يكن لها حرف أو كانت تكتب باللغة العربية، وربما لم يبق من تلك الآثار إلا القليل وتُمثّلها مدرسة (ميري عرب) التي فتحت عام ٩٤١ هـ، ولكنها أغلقت عندما حدث الانقلاب الشيوعي. ولكن أعيد

فتحها عام ١٣٧٢ هـ، وهي تُخرّج الأئمة والذين يتولّون أمور بعض التعليم، ولكنها لا تستطيع أن تسدّ الحاجة المطلوبة أبداً مع أختها في طاشقند، بل إن الفراغ قائم ولا يمكن ملؤه، بل لا يُفكّر أحد بإنشاء ما يمكن أن يسدّ الفراغ القائم فربما كان الاقتراح وحده يُؤدّي إلى الهلاك. وهناك المركز الإسلامي في داغستان في مدينة (محج قلعة) الذي لا يزال يستعمل اللغة العربية. والغاية من فرض اللغة الروسية إنما هو إزالة الشخصية الإسلامية، وإبعادها عن مصادر عقيدتها الرئيسية، وفصلها عن ماضيها، ودمجها في المجتمع الروسي بعد سلخها من عقيدتها.

ويحرص المستعمرون حرصاً شديداً على التعليم المختلط لأن فيه إبعاد عن العقيدة وإفساد للأخلاق، وتنشئة غير صالحة، ورغم كل ما فعلته روسيا فلا تزال تجد عقباتٍ في تطبيق هذا النظام في بلاد الداغستان وآسيا الوسطى وخاصةً في الأرياف فيها إذ لا يزال السكان يُصرّون على رفض الاختلاط، ويُطالبون بفصل الطلاب عن الطالبات.

ونتيجة الاضطهاد الواسع الذي تُمارسه السلطة الاستعمارية فإن عدد المسلمين قد تناقص على الرغم من أن زيادة الولادات لدى المسلمين تفوق غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى بكثير غير أن القتل هو سبب هذا النقصان، ويقال: إن عدد المسلمين الذين لاقوا حتفهم أيام ستالين يفوق على أحد عشر مليوناً، وإضافةً إلى القتل فإن المستعمرين يرغبون في إنقاص عدد المسلمين لتقليل أهميتهم لذا فإن الاحصاءات الروسية لا يُوثق بها أبداً في تعداد المسلمين، ويجب أن نعلم أن العدد الحقيقي يزيد على ما تعطيه المعلومات الروسية كثيراً.

ومما تستعمله السلطات الروسية الاستعمارية في تفتيت قوة المسلمين تقسيم أقاليمهم إلى وحداتٍ صغيرةٍ ورغم صغرها تضمّ مجموعاتٍ متنافرةً، ليسهل عليها التسلّط، ويسهل عليها فرض ما تشاء، ويمكن دمجها في المجتمع الروسي وهذا ما نراه في الباب القادم ـ إن شاء الله ـ.

الباب الرابع

التقسيمات السياسية

إذا ضُمّت إلى الإمبراطورية الروسية مُستعمراتها ما دامت على صلة مُباشرةٍ بها فإنها تكون أكبر اتحادٍ سياسي في العالم إذ تقرُب مساحتها من تسعة ملايين من الأميال المربعة[1]، فليس غريباً أن تُقسم إلى عددٍ من الوحدات السياسية، غير أن التقسيم في الإمبراطورية الروسية معقّد جداً فليست مُقسمة إلى مناطق منفصلةٍ بعضها عن بعضٍ ويضمّها اتحاد كالمملكة المتحدة (انكلترا) أو كالهند، أو تتألف من جمهوريات يجمعها رابط متين كالولايات المتحدة الامريكية وكثيرٍ من الدول في العالم، ولكنها تتكوّن من مجموعةٍ من الجمهوريات ذات نوعٍ فريدٍ وغريبٍ في نسقه إذ يكون شكلاً هرمياً يُوجد في ذروته جمهوريات اتحادية يبلغ عددها خمس عشرة جمهوريةً لها استقلاليتها النظرية، وفي الواقع تتحرّك من العاصمة الاتحادية موسكو، فمن هناك تتلقى الأوامر، وإلى هناك تُرفع الاستشارات، ومن هناك يُؤخذ الإذن والموافقة على كل موضوع، وهذه الجمهوريات هي:

أ - جمهورية روسيا الاتحادية: وعاصمتها موسكو، ويتبعها كثير من المستعمرات وأكبرها سيبريا، وتبلغ مساحتها ٦،٥٩٣،٨٥٠ ميلاً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ١٤٠ مليوناً.

---

(١) تبلغ مساحة الإمبراطورية الروسية مع مستعمراتها ٨،٥٩٩،٣٤١ ميلاً مربعاً.

٢ - جمهورية أوكرانيا: وعاصمتها كييف، وهي جمهورية روسية، وتبلغ مساحتها ٢٣١,٩٩٠ ميلاً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ٥٠ مليوناً.

٣ - جمهورية روسيا البيضاء: وعاصمتها منسك، وهي جمهورية روسية، وتبلغ مساحتها ٨٠,١٥٠ ميلاً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بحوالي تسعة ملايين ونصف المليون.

٤ - جمهورية ليتوانيا: وعاصمتها ڤيلنيوس، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ٢٥,١٧٠ ميلاً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف المليون.

٥ - جمهورية لاتفيا: وعاصمتها ريغا، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ٢٥,٥٩٠ ميلاً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بـ(٢,٧٥٠,٠٠٠).

٦ - جمهورية استونيا: وعاصمتها تالّين، وتقع على بحر البلطيق، وتبلغ مساحتها ١٧,١٤٠ أميال مربعة، ويزيد عدد سكانها قليلاً على المليون ونصف.

٧ - جمهورية مولدافيا: وعاصمتها كيشينيف، وتقع على حدود رومانيا، وتبلغ مساحتها ١٣,٠٥٠ ميلاً مربعاً، ويسكنها أربعة ملايين نسمة.

٨ - جمهورية جورجيا: وعاصمتها تفليس، وتقع فيا وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ٢٦,٩٠٠ ميلاً مربعاً، ويسكنها خمسة ملايين.

٩ - جمهورية أرمينيا: وعاصمتها يريفان، وتقع فيا وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ١١,٤٦٠ ميلاً مربعاً، ويُقدّر عدد سكانها بـ(٣,٢٥٠,٠٠٠).

١٠ - جمهورية أذربيجان: وعاصمتها باكو، وهي جمهورية إسلامية، تقع فيا

وراء القفقاس، وتبلغ مساحتها ٣٣,٤٣٠ ميلاً مربعاً، ويُقيم فيها خمسة ملايين ونصف المليون.

١١ - جمهورية قازاقستان: وعاصمتها ألما آضا، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١,٠٤٨,٠٣٠ ميلاً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون.

١٢ - جمهورية أوزبكستان: وعاصمتها طاشقند، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١٧٣,٥٤٦ ميلاً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً.

١٣ - جمهورية تركمانستان: وعاصمتها عشق آباد، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ١٨٨,٤٠٠ ميل مربع، ويقدر عدد سكانها بحوالي المليونين ونصف المليون.

١٤ - جمهورية قيرغيزيا: وعاصمتها فرونزى، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ٧٦,٧٠٠ ميل مربع، وعدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف.

١٥ - جمهورية طاجيكستان: وعاصمتها دوشنبه، وهي جمهورية إسلامية، تقع وسط آسيا، وتبلغ مساحتها ٥٥,٤٠٠ ميلاً مربعاً، وعدد سكانها (٣,٢٥٠,٠٠٠).

والأمر طبيعي ألّا تكون هذه الجمهوريات متساوية من حيث المساحة، ومن الأمور العادية أيضاً أن تكون المساحات متقاربة أو شبيهة بذلك، إلّا أن تكون هناك مناطق صحراوية قاحلة أو غابية قليلة السكان، غير أننا نجد هنا في الإمبراطورية الروسية فروقاً غريبة فجمهورية روسيا الاتحادية تزيد مساحتها على ١٣ مليون كيلومتر مربع على حين لا تزيد مساحة جمهورية أرمينيا على ثلاثين ألفاً من الكيلومترات المربعة. أي أن الجمهورية الاتحادية

تُعادل ٤٣٣ جمهورية مثل جمهورية أرمينيا وهذا أمر غير عادي، وما ذلك إلّا لأن المستعمرات إنما ترتبط بموسكو عاصمة روسيا الاتحادية، إذ لا يثق الروس أن ترتبط المستعمرات بغير موسكو وهذا دليل على الاستعمار، فإذا قيل أن هذا الأمر عادي فإن المستعمرات الفرنسية لم تكن لترتبط إلّا بباريس، والإنكليزية لا يُمكن أن ترتبط إلّا بـ (لندن) فإن هذا ما نريد أن نصل إليه، فإن انكلترا وفرنسا دولتان مستعمرتان ولا تختلف عنهما روسيا. وكذلك الحال والسبب نفسه بالنسبة إلى السكان فإن جمهورية روسيا الاتحادية يزيد عدد سكانها على ١٤٠ مليوناً، على حين لا يزيد عدد سكان جمهورية استونيا على مليون ونصف.

ويأتي في المرتبة الثانية بعد الجمهوريات الاتحادية جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتي، ويُطلق عليها اسم جمهوريات وليس لها إلا الاسم، وتُعطى صفة الاستقلالية الذاتية وليس لها من مضمونه شيء، وإنما ذلك إيهام الشعوب التي تحمل هذه الجمهوريات عادةً اسمها لتظنّ بنفسها الاستقلالية. ويزيد عدد هذه الجمهوريات على العشرين جمهوريةً يقع معظمها في الأقاليم الإسلامية بل إن هذا النوع من التقسيم إنما كان الهدف منه تجزئة المناطق الإسلامية، لذا فإن أكثر من خمس عشرة جمهوريةً إنما هي جمهوريات إسلامية، وأكثر من عشرٍ منها إنما يتبع أو يرتبط بموسكو مُباشرةً، والباقي يرتبط بجمهورية اتحادية أخرى ويُفضّل أن تكون نصرانية، أما إن حال دون ذلك حائل وهو وجود جمهورياتٍ اتحاديةٍ تفصل بين هذه الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي وبين جمهورية روسيا الاتحادية، أو بين هذه الجمهوريات وجمهورية اتحاديةٍ نصرانيةٍ فعندها يكون لا بدّ من ربطها بجمهوريةٍ اتحاديةٍ ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. وتتجمع أكثر هذه الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي وذات الأكثرية المسلمة في منطقتين اثنتين هما: حوض الفولغا، وشمالي القفقاس.

وتأتي في قاعدة الهرم أو في المرتبة الثالثة من التقسيمات السياسية في

الإمبراطورية الروسية المقاطعات ذات الاستقلال الذاتي، وتحمل الاسم أيضاً خالياً من مضمونه، إذ ليس لها شيء من الاستقلالية فقد تتبع إقليماً أو جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتي، وكلاهما يكون مرتبطاً بجمهوريةٍ اتحاديةٍ وغالباً ما تكون موسكو، ويُوجد عدد من هذه المقاطعات ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. قسم منها يرتبط بموسكو، وآخر يرتبط بأوكرانيا، وقسم منها يلحق جمهورياتٍ ذات أكثريةٍ مسلمةٍ. وربما تقضي السياسة الروسية أن تُغيّر جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتي إلى مقاطعةٍ ذات استقلالٍ ذاتي أو العكس، وفي الوقت نفسه يمكن تغيير ارتباطها من جمهوريةٍ إلى ثانيةٍ، كما حدث لشبه جزيرة القرم إذ كانت جمهوريةً ذات استقلالٍ ذاتي، وترتبط بجمهورية روسيا الاتحادية، ثم تغيّر الوضع فأصبحت مُقاطعةً ذات استقلالٍ ذاتي وترتبط بجمهورية أوكرانيا الاتحادية.

وليس التمييز قائماً بين الجمهوريات فقط، فهي ليست سوى مساحات من الأرض، أما التمييز فإنما هو بين سكان هذه الجمهوريات. فالجمهوريات الروسية هي التي تأتي في الطليعة، وتليها في الترتيب الجمهوريات النصرانية إن كان سكانها من الأرثوذكس، أما إن كانوا من بقية المذاهب فتأتي بعد ذلك... أما الجمهوريات ذات الأكثرية المسلمة فهي في نهاية الجدول دون ترقيم... وبعد هذا كله تدّعي الدولة أنها لا تُقيم للأديان وزناً، ولا تعترف بدينٍ، والدين هو أفيون الشعوب.

ويعيش في الإمبراطورية الروسية أكثر من تسعين شعباً، ولكنها ليست كلها على درجةٍ واحدةٍ في الحقوق والمستوى إذ يأتي في رأس القائمة الشعب الروسي الذي يدين بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسي، ويُشكّل المنتسبون إليه الأكثرية العظمى إذ يزيدون على مائتي مليون، والشعوب الأخرى لخدمته ولرفاهيته، فخيراتها إليه، ومُنتجاتها لأبنائه، وهو الحاكم، والمُسيطر، والمتسلّط، يأمر وينهى، ويُراقب هؤلاء، وأولئك، ويعيش في بلدانهم على

حسابهم، ويستولي على أحسن الأراضي، ويُشرف على إدارة المصانع وإنتاج المزارع، ويتفقّد سير الحكم، وتطبيق مبادىء النظام، ويُعطي شهادات حسن السلوك، ويحرم المواطنة من يشاء. ثم تأتي الشعوب النصرانية الثانية مثل الكُرج، والأرمن، وشعوب بحر البلطيق ويتقدمها من ينتمي إلى المذهب الأرثوذكسي وتليها أصحاب المذهب الكاثوليكي ولا وزن للمسلمين أبداً وبعد هذا فالدولة الروسية لا تُفرّق بين الأديان.

أما اليهود، وإن لم يكن لهم دور بارز إذ أنهم مكروهون بين شعوب العالم جميعاً لتصرّفاتهم وأعمالهم في الفتن ومحاولة الابتزاز، غير أن مركزهم كبير في المناصب العلمية والحزبية إذ من المعلوم أن الفكر الشيوعي إنما يعود في نشأته وتطبيقه إلى الفكر اليهودي والتخطيط اليهودي. والزواج السياسي أو التخطيطي بين اليهود والروس كثير.

أما الشعوب المسلمة فتأتي في المؤخّرة من غير ترتيبٍ ليس لها حق في الحرية، ولا في المساواة، ولا في إقامة الشعائر، ولا أداء العبادات، ومن ينتمي منها إلى الحزب الشيوعي وهو الحزب الوحيد والمتسلّط في البلاد والعباد، فإن الثقة فيه مفقودة بالنسبة إلى العمل الذي يؤدّيه أو المنصب الذي يشغله، ومهما تسلّق، وتزلّف، وزاود فالأمر واحد، الثقة مفقودة، وخاضع للمراقبة.

أما وقد رأينا التمييز في الإمبراطورية الروسية فهل يمكن أن نعدّها دولة عنصرية، إن الدراسة والبحث العلمي والموضوعية كل هذا يُصنّف حكومة الإمبراطورية الروسية ضمن الحكومات العنصرية والاستعمارية، غير أن الجهل بالواقع، والهجوم المبني على المخالفة، والصراع السياسي العالمي، والنزاع الاقتصادي كل هذا أيضاً يُبعد عن الدراسة المتأنّية والمعرفة الصحيحة بالواقع.

لم يكن هذا التقسيم قائماً على أسسٍ واقعيةٍ إذ لا يقوم على وحداتٍ

طبيعيةٍ كما يتوقّع بعضهم، ولا على عوامل تاريخيةٍ كما هو واقع في بعض الدول الاتحادية، ولا على أساسٍ لغويٍ كما يتبادر إلى ذهن بعضهم كما هي الحال في سويسرا، ولا على أسسٍ دينيةٍ كما يخطر على البال، ولا على أسسٍ اقتصاديةٍ كما يتداعى إلى الفكر أحياناً بسبب العامل الاقتصادي الذي تُعيره الدولة كبير أهمية، ولا على أسسٍ قوميةٍ كما تدّعي الدولة وتُنادي بهذا، وإنما كان التقسيم بناءً على مصلحة الحزب الذي يُهمّه بالدرجة الأولى إمكانية السيطرة على البلاد، إذن كان التقسيم يقوم على منطلق تفتيت مراكز القوة، وتفرقة أماكن التجمع، وتجزئة الذين يُمكن أن يتوحّدوا، وضرب عوامل الوحدة التي يُمكن أن تؤدّي إلى ربط جماعةٍ بأخرى خارج نطاق الفكر الشيوعي، وبشكلٍ صريحٍ وواضحٍ توزيع المسلمين وتقسيم مناطقهم إلى أقسامٍ صغيرةٍ يُمكن السيطرة عليها بسهولةٍ، وتُخفّف مراقبتهم خوفاً من وحدتهم، وإمكانية إيجاد النزاع بينهم في كل وقتٍ إذ تضمّ كل دويلةٍ مجموعاتٍ مُختلفةً في الأصل، مُتباينةً في اللغة، وإن وجد الافتراق في العقيدة فهو الأمر الأفضل.

كان من الممكن أن تُقسّم الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية إلى ثلاث مناطق إداريةٍ، هي:

١ - بلاد التتار والباشكير: وتضمّ حوض نهر الفولغا، ومنطقة الأورال وسيبيريا الغربية، وشبه جزيرة القرم.

٢ - بلاد القفقاس: وتشمل اجزاءها وأقسامها كلها.

٣ - بلاد تركستان: وتجمع كل جمهورياتها ومقاطعاتها.

ولو تمّ الأمر كذلك لكان التقسيم طبيعياً ومنطقياً بل وصحيح من الناحية العلمية، غير أن التقسيم الحالي يزيد على ثلاثين قسماً، بمختلف التسميات والمستويات، ويخصّ هذا التقسيم الأقاليم ذات الأكثرية المسلمة، ويجعل منها

رقعاً صغيرة المساحة تُسمّى جمهوريات، لا يصل سكان بعضها إلى المليون، وهي في منطقة جبلية ضعيفة الإمكانات، قليلة الواردات، لا يُمكنها الحياة وحدها، فلا بدّ من رعايتها، وعوضاً من أن تعيش مع أخواتها في الجوار، وشقيقاتها في العقيدة، تُؤلّف إقليماً واحداً مُتكاملاً فإنها تلجأ إلى البعيد تطلب منه الحماية والإسعاف، وبذا تبقى ضعيفةً بحاجة إلى المساعدة، ولا تقوى على الخروج عمّا يفرضه الاستعمار، ومن هذا المنطلق تدور السياسة الروسية.

الفصل الأول

حوض الفولغا - الأورال

كان المسلمون في حوض نهر الفولغا ومنطقة الأورال يُفكّرون بإنشاء دولةٍ تضمّ شعوب هذه المنطقة، وتسود فيها لغة تتارية واحدة هي لهجة أهل قازان حتى تندمج بعضها مع بعض في ثقافةٍ واحدةٍ، وتكون ذات لغةٍ واحدةٍ، وعمل المسلمون لهذه الفكرة كثيراً، وطالبوا بها مراتٍ ومراتٍ، واضطر الروس أن يعدوا المسلمين بذلك، مع أنهم غير مُستعدين لتنفيذها، لأنهم لا يرون فيها مصلحةً لهم، إذن لا يُمكن تحقيقها مهما سعى المسلمون لذلك، وفجأةً أعلن الروس عن تشكيل دولة باشكيريا في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧ هـ (٢٣ آذار ١٩١٩) المستقلّة ذاتياً، ثم اتبعوا ذلك بإعلان تشكيل دولةٍ تتريةٍ في ٢٨ شعبان ١٣٣٨ (١٧ أيار ١٩٢٠)، وقد ضرب الروس بكل الوعود التي قطعوها على أنفسهم، وإن عملهم هذا قد استهدفوا منه:

أ - تجزئة المنطقة إلى عددٍ من الدول، إذ قامت جمهوريات أخرى ذات استقلالٍ ذاتيٍ في الإقليم نفسه، إذ لم يقتصر الأمر على دولتي باشكيريا وتتاريا.

٢ - إبعاد منطقة الأورال الغنية بالثروة المعدنية عن هذه الجمهوريات إذ نلاحظ أن منطقة (تشيليابينسك) ومنطقة (ماغنيتوكورسك) قد بقيتا بعيدتين عن جمهورية باشكيريا وإن كانتا تقعان قرب الحدود تماماً، هذا بالإضافة إلى مناعة منطقة الأورال العسكرية.



٣ ـ إبعاد الجمهوريات المتعددة عن لغة التتار في قازان التي كانت يمكن أن تعمّ الإقليم كله وتُوحده ثقافياً. وأوجد الروس بديلاً لهذا عام ١٣٤٢ لغة باشكيرية خاصة تعتمد على لغة تتارية قديمة، وإن لم تتم هذه اللغة بسرعة بسبب مقاومة التتار والباشكير لها على حدٍ سواء، إلا أن نموها البطيء سيجعلها تظهر مع الزمن، وبتفرق الشعب الواحد إلى شعبين بل إلى عدة شعوب. كما أحيوا كل لهجةٍ محليةٍ وجعلوها لغة لمن يتكلم بها، وجعلوا أهلها جمهوريةً خاصة أو مقاطعةً مستقلة.

٤ ـ إبقاء المنطقة التي جنوب تتاريا حتى بحر الخزر (قزوين) خارج نطاق الإقليم، وهي حوض نهر الفولغا الأدنى، وتُوجد في هذه المنطقة قواعد إسلامية مُهمة وهي: السرا (ساراتوف) قاعدة دولة التتار الأولى والرئيسة أو عاصمة مغول الشمال، و (استراخان) عند مصبّ نهر الفولغا في بحر الخزر، وهي عاصمة إمارةٍ تتاريةٍ أيضاً.. ولما كانت المنطقة المحيطة بحوض نهر الفولغا الأدنى قليلة السكان لذا فقد ملأها الروس بإقطاعها لأبناء جلدتهم، وهي المنطقة المحدودة بأنهار الفولغا ـ الدون ـ قوبان ـ تِرك، والمعروفة بـ (دشت القفجاق) والتي كانت تتنقل فيها قبائل النوغاي.

٥ ـ إبقاء تتار القرم بعيدين عن إخوانهم تتار حوض نهر الفولغا الأوسط، أو بالواقع تجزئة التتار.

٦ ـ فصل مسلمي القفقاس عن مسلمي حوض نهر الفولغا لإبعاد المسلمين بعضهم عن بعض.

وأما الجمهوريات التي قامت في حوض نهر الفولغا الأوسط فهي:

أ - جمهورية باشكيريا: وأعلن تشكيلها في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧ (٢٣ آذار ١٩١٩)، وكانت عاصمتها مدينة (ستر ليتاماك) لأن مدينة أوفا قد بقيت بيد الروس البيض حتى شهر ذي القعدة من العام نفسه، وتقع مدينة (ستر ليتاماك) على النهر المار من أوفا، وهو أحد روافد نهر الفولغا، وإلى الجنوب من أوفا وعلى بُعد ١٢٥ كيلومتراً منها.

تبلغ مساحة باشكيريا ١٤٣,٥٠٠ كيلومتر مربع، وتتألّف من الأجزاء الجنوبية من جبال أورال فهي منطقة جبلية، ولارتفاعها تتلقّى كميةً من الأمطار تفوق المناطق المجاورة لها. وتتجمع مياه الأمطار في أنهار تُحدّد المنطقة، وتجري هذه الأنهار في أودية متوازية تقريباً وكثيرة التعرّجات، ويلتقي عدد منها في وسط البلاد حيث تقوم مدينة أوفا عاصمة الجمهورية، وبعد تجمّعها تشكل نهر بيلايا الذي يرفد نهر كاما الذي يسير بدوره حتى يرفد نهر الفولغا جنوب مدينة قازان. أما مياه المنطقة الجنوبية الشرقية فإنها تُشكّل نهر أورال الذي يصبّ في بحر قزوين. وعلى أطراف الأودية تقع أهمّ السهول حيث يتجمّع السكان، وأوسعها ما كان حول مدينة أوفا إذ تكون هناك مجمع الأنهار.

يبلغ عدد سكان الجمهورية الباشكيرية حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ ما يقرب من أربعة ملايين (٣,٩٢٤,٠٠٠)، ويتوزّعون على المجموعات التالية:

العدد	المجموعة	النسبة
٩٣٦,٠٠٠	باشكير	ويُشكّلون ٢٤,٣ ٪ من السكان
٩٤٠,٠٠٠	تتار	ويُشكّلون ٢٤,٤ ٪ من السكان
١٢٢,٠٠٠	جوفاش	ويُشكّلون ٣,٢ ٪ من السكان
١٠٧,٠٠٠	ماري	ويُشكّلون ٢,٨ ٪ من السكان
١٢٠,٠٠٠	مجموعات متفرّقة	ويُشكّلون ٣,٠ ٪ من السكان
٢,٢٢٦,٠٠٠		٥٧,٧ ٪

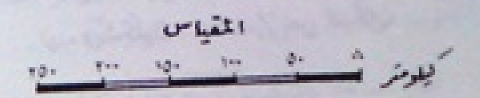
وهذه هي نسبة المسلمين في جمهورية باشكيريا.

أما باقي السكان فهم من المستعمرين الروس وهم:

العدد	المجموعة	النسبة
١,٦٢٣,٠٠٠	روس	ويُشكّلون ٤٠,٣ ٪ من السكان
٧٥,٠٠٠	أوكران	ويُشكّلون ٢,٠ ٪ من السكان
١,٦٩٨,٠٠٠		٤٢,٣ ٪

وهي نسبة النصارى في جمهورية باشكيريا.

ويبلغ عدد أفراد جماعة الباشكير (الباشغرد) في الإمبراطورية الروسية ١,٣٧١,٠٠٠، منهم ٧٢ ٪ يتجمعون في هذه الجمهورية، ويتوزّع الباقي، وأكثرهم في جمهورية تتاريا المجاورة، ويسكن الباشكير الريف عادةً. وهم من أصل تتاري، ويتكلّمون لغةً تختلف اختلافاً بسيطاً عن لغة تتار قازان، ومدينة أوفا هي مركز الإدارة الإسلامية لجميع المسلمين في المنطقة الأوربية من الإمبراطورية الروسية وسيبيريا. وارتدّت جماعة من الباشكير عن دينها في القرن الثاني عشر، لكنهم بدأوا يعودون إلى الإسلام، ولم يبق منهم عام ١٣٤٥ هـ سوى أربعة عشر ألفاً، ولم يبق منهم الآن أحد إلّا وقد عاد إلى الإسلام، فاليوم كلهم مسلمون.





٢ ـ **جهورية تتاريا:** تشكّلت جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي في ٢٨ شعبان ١٣٣٨ (١٧ أيار ١٩٢٠)، وتبلغ مساحتها ثمانية وستين ألف كيلومتر مربع. وتتألّف أكثر أرضها من سهولٍ فسيحةٍ تتخلّلها بعض الهضاب والتلال، ويجتمع فيها نهر الفولغا القادم من الغرب مع أكبر روافده وهو نهر كاما القادم من الشرق فيلتقيان جنوب العاصمة قازان، غير أن تنظيم مجرى نهر الفولغا بإقامة السدود عليه، جعل المياه تتجمّع خلف السدود التي أقيمت عليه فتشكّل بعض البحيرات الواسعة على طول مجراه، ومنها البحيرة التي تمتدّ في أرض جمهورية تتاريا. فتكون بطول خمسين ومائة كيلومتر على مجرى نهر كاما أي من الحدود مع جمهورية أدمورت تقريباً حتى التقائه مع نهر الفولغا، وتكون على طول مائة كيلومترٍ على نهر الفولغا قبل التقائه بنهر كاما أي حتى الحدود مع جمهوريتي الجوفاش، وماري بل وتستمرّ مع مجرى النهر بين الجمهوريتين السابقتي الذكر، وكذلك تكون على طول خمسين كيلومتراً بعد التقاء نهر الفولغا مع رافده الكاما بل وتستمر بعد الانتهاء من حدود تتاريا الجنوبية. وبذا تقع مدينة قازان عاصمة الجمهورية على بحيرةٍ واسعةٍ، وتتحرّك السفن منها وإليها ذاهبةً وآيبةً. وعندما دخل الشيوعيون قازان هدّموا أكثر مساجدها، وحوّلوا مدارس القرآن إلى مدارس لتلقين الفكر الشيوعي، وأحرقوا المطبعة التي كانت تطبع القرآن الكريم والكتب الدينية، كما استولوا على جامعتها التي كانت تضمّ سبعة آلاف طالبٍ.

يبلغ عدد سكان جمهورية تتاريا حسب الاحصاء الروسي عام ١٣٩٩ ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف (٣،٤٣٦،٠٠٠)، ويزيد عدد سكان العاصمة قازان على المليون ساكن.

يُؤلّف التتار والباشكير ٤٧،٦٪ من سكان جمهورية تتاريا ويُقدّر عددهم بـ(١،٦٤١،٦٠٠) نسمة، بينما مُعظم الباقي من الروس والأوكران، ويُحاول الروس ترويس هذه الجمهورية بإكثار زيادتهم فيها بالهجرة إليها لذا فإن

نسبة المسلمين قد انخفضت فيها بعد توافد أفواج الروس إليها، فلا تزيد نسبة المسلمين اليوم في جمهورية تتاريا على ٥٥٪ والباقي من النصارى المستعمرين.

وقد حاول الروس منذ أن استعمروا البلاد عام ٩٥٩ هـ دمج التتار بالمجتمع الروسي، وتحويلهم إلى سلافٍ بتغيير عقيدتهم، وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبيرة، فلم يفلحوا، وحافظ التتار على إسلامهم وتمسكوا به وبعنصرهم حتى ارتبط عندهم مفهوم الدين بمفهوم العنصرية. وإذا كانت قد ارتدت جماعة منهم عن دينها في نهاية القرن العاشر الهجري تحت الضغط والإرهاب، وارتدت جماعة أخرى في نهاية القرن الثاني عشر للسبب نفسه إلا أنهم قد عادوا إلى دينهم جميعاً عندما أعطيت الحرية الدينية عام ١٣٢٣، وهذا يدلّ على أنهم لم يرتدوا وإنما كتموا إيمانهم هذه المدة الطويلة لما لحقهم من أذى وظلمٍ.

يُقدّر عدد التتار في الإمبراطورية الروسية حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ بـ (٤,٩٦٨,٠٠٠) ويعيش أكثر من ربعهم في جمهورية تتاريا، وقريب من خمسهم في جمهورية باشكيريا، والباقي مُوزّعون في حوض نهر الفولغا وخاصة في مدينتي ساراتوف، واستراخان، وبعضهم في جبال الأورال وخاصةً في مدينة تشيليابينسك وبعضهم في مدينة أورنبرغ، ويعيش ما يقرُب من مليون تتاري في جمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان ويُقيم في سيبيريا ما يزيد على مائتي ألف، كما أن معظم المسلمين في روسيا وجمهوريات الإمبراطورية الواقعة في أوروبا إنما هم من التتار ففي موسكو يعيش مائة وخمسون ألفاً، وفي لينينغراد ستون ألفاً، ومجموعات أخرى في ليتوانيا، وأوكرانيا، إضافةً إلى تتار بلاد القرم سواء الذين يُقيمون في بلادهم أم الذين لا يزالون في منفاهم.

ويُطلق على بعض التتار الذين يُقيمون في بلاد الباشكير اسم (التبتيار) وهم الذين فرّوا من قازان يوم احتلّ الروس بلادهم عام ٩٥٩ هـ.

وانطلقت جماعة من التتار إلى خارج حدود الإمبراطورية الروسية بسبب الضغط والإرهاب الذي لحقهم، واستقرّت جماعة منهم في أميركا الشمالية وخاصةً في نيويورك.

٣ ـ جمهورية جوفاشيا: وتبلغ مساحتها ١٨,٣٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة سهلية، يمرّ نهر الفولغا في جزئها الشمالي. ويسكنها مليون ونصف المليون من البشر. ويتكلّم الجوفاش لغةً ليست من أصلٍ تركي. وارتدّ كثير من الجوفاش، وعُمّدوا جميعاً أثناء موجة الإرهاب الروسي، ولما أُعطيت الحرية الدينية عادوا إلى الإسلام، وعمّ ذلك منطقتهم الأمر الذي سبّب الضغط عليهم، وليكونوا بعيدين عن أثر التتار. تأسّست لهم جمهورية خاصة بهم عام ١٣٤٤، وعاصمتها مدينة (شبوقساري) التي تقع في الشمال على الضفة اليمنى لنهر الفولغا. وتبلغ نسبة المسلمين في هذه الجمهورية ٥٨٪.

٤ ـ جمهورية موردوف: وتمتدّ إلى جهة الغرب باتجاه بلاد الروس أكثر من بقية الجمهوريات، وتبلغ مساحتها ٢٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتشغل هضبة بينزا جزءاً من أرضها، وتخرج منها نهيرات ترفد نهر الفولغا، ويُقيم على أرضها أكثر من مليون وربع من السكان، يُشكّل المسلمون فيهم ٥٥٪ والباقي من النصارى المستعمرين الروس والأوكرانيين، ويتكلّم الموردوف لغةً خاصةً بهم لا تعود إلى أصلٍ تركيٍ. وعاصمتها مدينة ساراتسك.

٥ ـ جمهورية أدمورت: أكثر الجمهوريات في حوض نهر الفولغا امتداداً نحو الشمال إذ تتجاوز خط العرض الشمالي ٥٨°. وتؤلّف الهضاب أقسامها الشمالية على حين تتسع السهول في أجزائها الجنوبية. تبلغ مساحتها ٤٢,١٠٠ كيلومتر مربع، ويعيش على أرضها ما يقرب من مليون من السكان، وعاصمتها مدينة أيجفسك. ويتكلّم الأدمورت لغةً خاصةً بهم لا تمتّ إلى التركية بصلة. وتعيش بينهم بعض قبائل (الفن) مثل (الفوتياك) و(الشريمس)، وقد أسلمت هاتان القبيلتان بسبب احتكاكها بالتتار

والباشكير على الرغم من أن أفرادها كانوا نصارى اسماً ، وقد عُمِّدوا جميعاً ، كما كان بعضهم وثنياً ، ويُعدون وثنيين حسب سجلات الدولة الاستعمارية التي لم تسمح لهم بإقامة المساجد ، بل لو أعلنوا إسلامهم لأبيدوا حسب القانون الروسي التقدمي الذي صدر يومذاك ، ولكنهم كانوا يختنون أطفالهم لذا أطلق عليهم الروس اسم (الكلاب المختونون) تحقيراً لهم ، وتحقيراً لمن يفعل هذا ويقصدون بذلك المسلمين إبعاداً عنهم ، ووضع الكراهية في نفوسهم للمسلمين خوفاً من أن يُسلموا ، لذا فقد هجرت هذه القبائل مُجتمعاتها ، وأقاموا في قرىً خاصةٍ بنوها بعيدةً عن المجتمع . فلما أعلنت الحرية الدينية أعلنوا إسلامهم ، وظهرت أن قراهم كانت إسلامية ، لذا عملت القيصرية الروسية على فصلهم من المسلمين الآخرين من التتار والباشكير كي تبقى معلوماتهم عن الإسلام ضعيفة حيث يمكن التأثير عليهم وفتنتهم عن دينهم ، ولكن المستعمرين القياصرة قد فشلوا في مُهمّتهم ، فلما جاءت الشيوعية تمكّنت من تحقيق ما خطّطت له القيصرية إذ أن الضغط والإرهاب قد مكّن لها ما تبغي ، فأنشأت جمهوريةً خاصةً من الأدمورت عام ١٣٥٣ هـ ، وعملت أيضاً على إبعاد أثرهم عن الذين بقوا على النصرانية أو الوثنية ، وكان عملها قائماً على التهديد ، وعلى الدعاية ضدّ الإسلام ، غير أن المستعمرين عندما تساهلوا في الحرية الدينية قليلاً أثناء الحرب العالمية الثانية بسبب الظروف التي كانت تُلمّ بالإمبراطورية وحاجتهم الماسة إلى حماسة المسلمين ، فأعلن من لم يُسلم سابقاً إسلامه ، فوجد المستعمرون أن كل الأدمورت والقن مُسلمين ، فاشتدّ حنقهم عليهم ، وزاد ظلمهم ، وبدأ كتائب الروس تفد إلى بلادهم تستولي على أحسن الأراضي وتحرم أصحابها من حقهم فيها ، وتتصرّف مع السكان تصرّف المستعمر الغاشم ..... ووصل عدد المستعمرين إلى ما يقرُب من عدد السكان ، إذ غدت نسبتهم ٤٨ ٪ بينما يُشكّل السكان المسلمون ٥٢ ٪ .

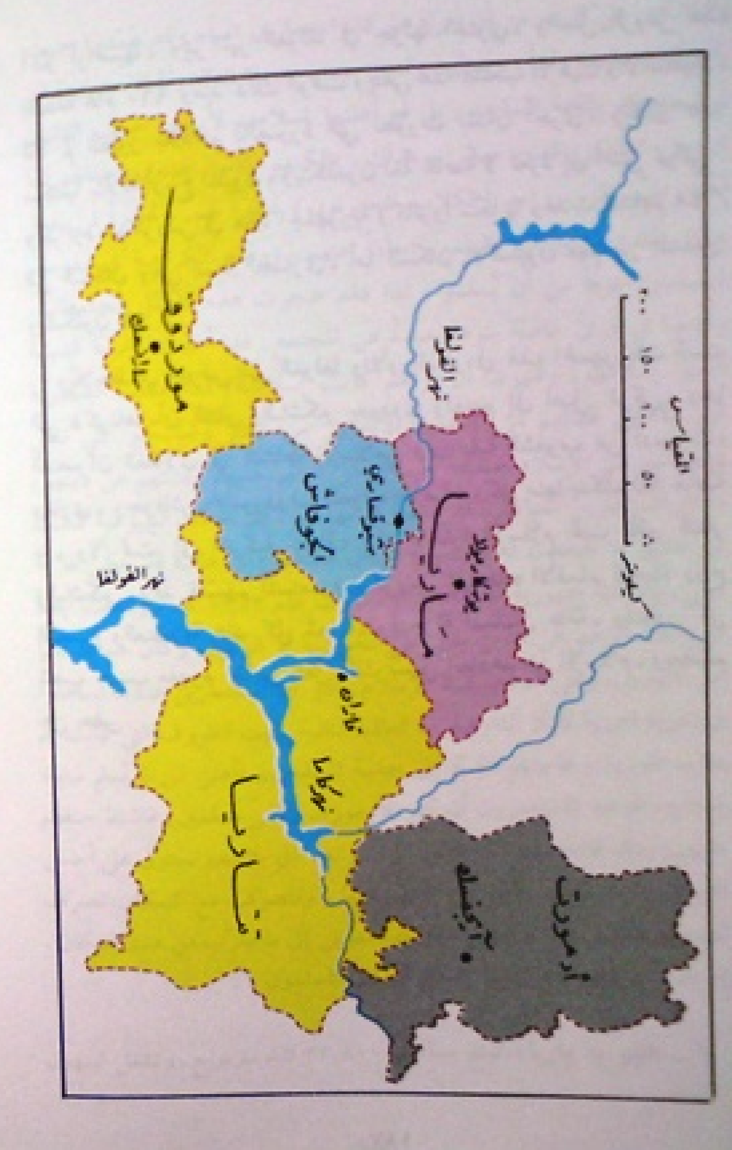
٦ ـ جمهورية ماريا : وتبلغ مساحتها ٢٣,٨٠٠ كيلومترمربع ، وتشغل السهول

أكثر أراضيها ، ويمرّ نهر الفولغا في جزئها الجنوبي ، واحتلّ الروس هذه المنطقة عام ٩٦٠ ومنذ ذلك الوقت ويلقى هذا الشعب الإهمال والاضطهاد ، لذا لم تتطوّر بلادهم بالصورة التي تطوّرت بلدان أخرى ، ويُقدّر عدد سكانها بثلاثة أرباع المليون ، ويتكلّمون لغةً خاصة لا تعود إلى أصلٍ تركي . وقد ازدحم الروس في هذه الجمهورية وكاثروا سكانها وغدت نسبتهم ٤٨ ٪ من السكان وهي نسبة النصارى ، أما السكان الأصليون فهم من المسلمين ويُشكّلون ٥٢ ٪ .

ويُلاحظ في حوض نهر الفولغا والأورال أو في هذه الجمهوريات الست التي ذكرناها أن التتار والباشكير يعودون ولغتهم إلى أصلٍ تركي ، وهما العنصران الفعّالان في النشاط الإسلامي وأن بقية الشعوب من أدمورت ، وماري ، وجوفاش ، وموردوف شعوب خاصة ، وكل منها يتكلّم لغةً خاصةً به ، ولا تمتّ إلى التركية بصلة ، وقد دخلوا الإسلام تحت تأثير التتار والباشكير . وقد قسّمهم المستعمرون الروس إلى هذه الأقسام لإحياء روح العصبية والعنصرية عند كل شعبٍ ، ولتجزئة المسلمين عامة ، ولتطوّر كل شعبٍ حسب مفهومٍ خاصٍ لعلّ ذلك يُسهّل إبعادهم عن الإسلام ، وبعضهم عن بعض .

٧ ـ **إقليم أورنبرغ**: وهو إقليم خاص أو مقاطعة ذات استقلالٍ ذاتي، تبلغ مساحته ١١٢,٠٠٠ كيلومتر مربع، تتألف أجزاؤه الشرقية من السفوح الجنوبية لجبال أورال، وتنحدر منها المياه المكوّنة لنهر أورال، أما الأقسام الغربية فتمتدّ سهول نهر أورال، وروافده التي تُشكّل بينها هضاباً. ويبقي هذا الإقليم كحدٍّ فاصلٍ بين مسلمي حوض الفولغا ـ أورال وبين مسلمي آسيا الوسطى.

يتألف السكان الذين يُقارب عددهم المليونين من الباشكير، والقازاق، والتتار، ويُشكّلون ٥٠٪ من السكان، أما البقية فهم من النصارى المستعمرين الروس والأوكرانيين. ومدينة أورنبرغ أهم مدن الإقليم، وهي عاصمته، وقد غيّر الروس اسمها إلى (شكالوف) ليُنسى الاسم التاريخي الإسلامي ذي الأهمية الكبيرة، وتقع على نهر أورال، وكذلك مدينة (أورسك) التي تقع على النهر نفسه.



الفصل الثاني

بلادُ القرم

إن حقد الروس على بلاد القرم كبير، والروس سواء أكانوا قياصرة أم شيوعيين فالأمر واحد، ونشأة هذا الحقد أن أهل القرم مسلمون قبل كل شيء فهو حقد صليبي دفين، وزاد هذا الحقد لأن أهل القرم قد تعاونوا مع العثمانيين لصدّ عدوان الروس عنهم، ولم يجد الروس فرصة ليشفوا غليلهم من تتار القرم، ولما احتلّوا القرم كظموا غيظهم خوفاً من الارتماء ثانية إلى العثمانيين ارتحالاً ونقلاً للأخبار ودعماً فيما إذا اقتربوا من شبه الجزيرة، كل هذا جعل الروس يسكتون موقتاً عن تتار القرم، رغم أنهم قد قتلوا خمسين وثلاثمائة ألفٍ عام ١١٨٥ قبل احتلالهم القرم الذي تم عام ١١٩٨ هـ.

وزاد الحقد عندما أعطيت الحرية الدينية إذ بدأ العمل للإسلام، وفتح أهل القرم ذراعهم لإخوانهم تتار حوض الفولغا الذين نشطوا في الدعوة والعمل للإسلام. ولم يتمكّن الروس من تفريغ أي شحنةٍ مما تحمله قلوبهم من الحقد إذ اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وعاشت البلاد في وقتٍ حرج.

وتأجّج الحقد في نفوس الروس أيضاً عندما شكّل أهل القرم حكومة خاصة بهم في مدينة (سيمفروبول) قبل الانقلاب الشيوعي، منذ قامت الحكومة الموقتة في البلاد الروسية، فلما حدث الانقلاب الشيوعي تحركت قواتهم فوراً من ميناء (سيباستيبول) واتجهت إلى (سيمفروبول) وقضت على

الحكومة التتارية فيها غير أنها كانت على خوفٍ من الأحداث العامة لذا لم تتمكّن من الانتقام من أهل القرم بالشكل الذي يتناسب مع الحقد عليهم أو مع ما هو مزمع عليه. وفي الواقع لم يطُل مُقام الشيوعيين في القرم سوى ثلاثة أشهرٍ إذ احتلّها الألمان، وشكّلوا حكومةً بإشرافهم من حزب (ملّي فرقة)، ثم انسحب الألمان من المنطقة بعد مدةٍ. ولكن حقد الشيوعيون خاصةً على التتار قد جعلهم يعدّون ذلك تعاوناً مع الألمان، وعظم حقدهم على حزب (ملّي فرقة) الذي يعدّونه أقرب الفئات إليهم.

وسيطر على بلاد القرم بعد الألمان المانشفيك أعداء الشيوعيين، ولم يقلّ حقدهم كثيراً عن الشيوعيين بالنسبة إلى التتار عامة وإلى حزب (ملّي فرقة) خاصة، فحلّوا هذا الحزب وبدؤوا بتطبيق سياسة الانتقام، لكنهم لم يلبثوا أن هُزموا أمام الشيوعيين. وأحسّ التتار أن ساعة الانتقام قد جاءت مع مجيء الشيوعيين لذا فما عليهم إلا الدفاع عن بلادهم ببسالةٍ وإعلان الجهاد، ولكن ذلك لم يُغنهم شيئاً إذ أن القوة المهاجمة لا حصر لها فاضطروا إلى الانسحاب والاعتصام في الجبال الواقعة في جنوبي الجزيرة حيث بدأت المقاومة الجبلية، أو بدأت حرب العصابات حيث كانوا يُغيرون باستمرارٍ غاراتٍ مُوفّقةً على المستعمرين، وكان الشعب جميعاً يدعمهم ويمدّهم بما يحتاجونه من مُؤنٍ وذخائر ومعلوماتٍ عن الأعداء إلا إذا استثنينا الشيوعيين أو الجناح اليساري من حزب (ملّي فرقة) الذين استقبلوا الشيوعيين الغُزاة وانضمّوا إليهم وساعدوهم في دخول الجزيرة، فهم أولاً من رفاقهم حسب مفهوم الشيوعيين التتار لا حسب مفهوم الشيوعيين المستعمرين الروس حيث هناك فرق كبير في المفهوم إذ أن فكرة سيدٍ ومسود قائمة ولو لم يعلن عنها أتباعها، ومن ناحيةٍ أخرى ظنّ هؤلاء المُغفّلون من التتار أن هذه المساعدة وهذا الانضمام إليهم سيحميهم من حقد الروس الذين يتوقّعونه بين آونةٍ وأخرى. وفعلاً فإن الروس قد أظهروا الرضا عن هؤلاء المغفّلين وقدّموهم على غيرهم ليستفيدوا منهم، وليُحقّقوا منهم أغراضهم ثم يكون الحساب، ففرح هؤلاء المُغفّلون بما

نالوا من حظوةٍ عند أسيادهم وركنوا إليهم.

ورأى الشيوعيون أن حبل المقاومة طويل في الجزيرة لذا فقد لجؤوا إلى حرب التجويع إذ نقلوا الأقوات من الجزيرة، فنال الجوع الناس جميعاً بما فيهم المغفّلون الذي حسبوا أن هذا موقت اضطر المستعمرون إلى اللجوء إليه، وبدأ الناس يموتون جوعاً، وكان معدل الموت ثلاثمائة إنسانٍ يومياً، أما الذين تُصيبهم محنة الجوع فيقدّرون بعشرة آلافٍ يومياً مع زيادةٍ قليلةٍ في بعض الأيام أو نقصانٍ في بعض الأيام الثانية، ولم يكن غريباً أكل لحم الإنسان الميت، وأكل لحوم الحمير الأهلية والخيل بل هو من نوع الرفاهية إن حصلوا عليه، وأكل لحم القطط والكلاب (يُرجع إلى حديث الرفيق كالينين عن هذه المجاعة في بحث الاستعمار الروسي للقرم فيما سبق من هذا الكتاب) وعند هذه التصرّفات استسلم المجاهدون ونزلوا من حصونهم في الجبال، وفضّلوا لأنفسهم الموت من أن يُصيب الناس ما أصابهم من بلاءٍ بسبب اعتصام هؤلاء المجاهدين ومُقاومتهم.

وجاءت ساعة الانتقام وإفراغ الحقد الصليبي، فوُلّي أمر القرم الشيوعي المتغاري (بالاكون) وأعطي الصلاحيات الواسعة للانتقام بل أعطي حق التصرّف بالقرم على أنها مزرعة له، وأهلها سوائم يرعون فيها، وبدأ الانتقام بصبّ الحقد على العدو الأول وهو الإسلام وذلك بإزالة كل مظهرٍ من مظاهره فابتدأ هدم المساجد فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً كان في الجزيرة سوى آحادٍ قليلةٍ أبقوا عليها إما أنها كانت في بعض ضواحي المدن وإما للخديعة وإظهار الكذب وقت الحاجة إلى ذلك، أما جمهرتها فقد أزيلت وأقيم مبانٍ مكانها أو تحوّلت إلى أنديةٍ، ومقاهٍ، ودور لهوٍ، واصطبلاتٍ للخيل، وحظائر للماشية، وحاناتٍ للخمر. ثم انتقل الانتقام إلى المعاهد العلمية الدينية حيث انتهى أمرها نهائياً وكأنها لم تكن، بل إن شدّة الحقد لم تجعلهم يُفكّرون بالإفادة من بنائها في مجالاتٍ ثانيةٍ بل أسرعوا في تهديمها وتقويضها على الرغم

من أن بعضها جدير بالإبقاء على بنائه لحداثته، وحسن هندسته، وإتقان الفنّ فيه. أما السكان فبدا عليهم التناقص إذ لا نستطيع أن نقول: إن الإبادة قلّت عن خمسمائة ألف إنسان، ومنهم رئيس الجمهورية السابق (جلبي نعمان جهان) الذي مُثّل بجثته ثم أُلقيت في البحر.

وظنّ المغفّلون من شيوعيي التتار أنهم في منأى عن الحقد الذي يخصّ المُتديّنين منهم فقط، فزادوا في تزلّفهم وتقرّبهم من الشيوعيين، ومن إظهارهم الشيوعية والتعصّب لها أكثر من الروس، وفي مشاركتهم في قتل المسلمين. وبعد خمس سنوات من الظلم الرهيب الذي تدمى له القلوب والذي يتحاشى ذكره لما يُصيب النفوس من هلعٍ ولما فيه من فحشٍ ووحشيةٍ خفّ الضغط ونال المغفّلون مقعدهم وأخذوا جزاءهم فنُصّب ولي إبراهيم رئيساً للجمهورية، وحسب أنه فاز بالفردوس الذي وعده به رفاقه، ونسي أنه ينتمي إلى الإسلام، وقد أدّى دوره بالإفادة منه، فلم ير نفسه إلا وهو في ساحة الإعدام مع جميع وزرائه فلقوا جزاءهم العاجل في الدنيا ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى. ونصّب الشيوعيون محمد قوباي مكانه رئيساً للجمهورية عام ١٣٤٧ هـ، وقد أوهموه أن ولي إبراهيم قد خان الشيوعية ولية نعمته، فخاف محمد قوباي في نفسه وزاود على الروس أنفسهم فلما كان عام ١٣٤٩ وجد نفسه ووزراءه معه في ساحة الإعدام، في المكان الذي أعدم فيه سلفه ولي إبراهيم فلقي المصير نفسه، ونُصّب إلياس طرخان رئيساً للجمهورية فاستدعي إلى موسكو مع وزرائه جميعاً ونُفّذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص بعيداً عن بلدهم، في المكان الذي ربطوا أنفسهم فيه، وتعلّقوا به، ومنّوا أنفسهم منه.

وأيقن تتار القرم جميعاً أن الشيوعية سراب، وأن اتخاذ العامل الاقتصادي رابط بين الناس وهم، وأن الثقة بالروس غباء، وأن الحقد الصليبي لا يزول. ونجم عن هذه التصرّفات الشيوعية الاستعمارية حقد لدى التتار على الروس جميعاً بغضّ النظر عن أفكارهم، أو قابلوا الحقد الصليبي بحقدٍ مُماثلٍ، ولما

كان الحقد الصليبي لا يُفرّق بين المسلمين وأفكارهم وإن كان على أهل الدين أعظم وأشدّ فإن حقد التتار على الروس لم يعد يفرّق بين الروس وأفكارهم وإن كان على الشيوعيين أقوى وأعنف.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وانساح الألمان في الأرض الروسية، واحتدمت معارك عنيفة على أبواب القرم بين الروس والألمان، وكان بين المدافعين فيلق من أهل القرم قوامه ثمانية عشر ألف مُقاتل، وظنّوا أن الوقت قد حان للانتقام من الروس، وتوقّعوا ـ جهلاً ـ أن الألمان أخفّ وطأة من الروس، أو أقلّ حقداً وظلماً، وربّما حسبوا أن الدائرة قد دارت على الروس وأن الوضع سيكون لمصلحة الألمان لذا قرّروا الاستسلام للغزاة الجدد انتقاماً من الروس وتخلّصاً منهم وقد أذاقوهم الويلات وأنزلوا بهم النكبات، ولم يدُرْ في خلدهم أن الكفر ملة واحدة، وأن عداوة النصارى إنما هي موجّهة للإسلام والمسلمين قبل كل شيء، وما أن علم الألمان أن المستسلمين من المسلمين حتى نزعوا منهم السلاح، وساقوهم حفاة مسافة خمسين ومائة كيلومتر سيراً على الأقدام، ودون طعام فسقط بعضهم على الطريق من شدّة الإعياء ثم سجنوهم في قلعةٍ قديمةٍ لا يدخلها النور، ومنعوا عنهم الطعام بحجة النقص في المواد التموينية عند الألمان فأخذوا يتساقطون موتى من الجوع، ثم تناقص عدد الموتى إذ بدأ الأحياء يأكلون لحم إخوانهم الموتى فأدرك الألمان ذلك، فأخرجوهم من السجن تحت الحراسة المشدّدة وأبادوهم رمياً بالرصاص.

وهُزمت ألمانيا، وعاد المستعمرون الشيوعيون إلى القرم أو عاد الأعداء القدامى، وأحسّ التتار من أهل القرم أن الموت يُلاحقهم من كل جهةٍ، فباتوا ينتظرون طريقةً جديدةً للقضاء عليهم، وحيلةً مستحدثةً يتذرّع بها الروس لهلاكهم، وإذ بالشيوعيين يُعلنون أن تتار القرم من عملاء الألمان ـ رغم ما حلّ بهم ـ لذا يجب محاكمتهم، فدخلوا العاصمة (باغجه سراي) وطمسوا معالم الإسلام فيها حتى دكّوا المساجد الأثرية مثل (جامع خان)، و (جامع

بازار) و (جامع أصباقويو) وغيرها كثير، وجمعوا المصاحف وأحرقوها في الميادين العامة، وهذه محاكمة المباني قبل محاكمة السكان، وكأنها كانت هي العميلة، والحقّ أنها كانت عملية ضدّ الإسلام إذ انصبّ غضبهم وحقدهم على المؤسسات الإسلامية قبل التوجّه إلى السكان، ثم جاء دور الأهالي فانطلق الشيوعيون الروس المسلحون في المدن والقرى يفتحون نيران أسلحتهم على الناس دون تمييز، ويقتحمون الدور، ويُذبّحون قاطنيها واستمرّ ذلك عدّة أيام حتى هدأت موجة الحقد، وخرجت روائح الجثث فانتبهوا إلى ذلك، وأخذوا يجمعونها ليلقوها في حُفرٍ أعدّت لها فكان عدد القتلى يزيد على ربع مليون إنسان، إذ نجا الذين فرّوا إلى الجبال واختفوا في المغارات والكهوف، والذين لجؤوا إلى المزارع واختبؤوا في المجاري وتحت أكوام القشّ، والذين ضاعوا بين أثاث المنازل وتحت الأنقاض، وكان مجموع الذين نجوا ما يقرب من ٢٣٨,٠٠٠، فلما خرجوا من مخابئهم تبيّن أن عدداً أيضاً قد مات خوفاً، أو جوعاً، أو إرهاقاً، ثم جاء الأمر من المستعمرين الشيوعيين الرحماء بنفي هؤلاء جميعاً إلى مجاهل سيبيريا ليعملوا هناك بالأشغال الشاقة، فبدأت الجموع تتحرّك نحو سيبيريا وبقيت البلاد خاوية من أهلها، ليس فيها سوى خمسة عشر ألفاً كانوا من المتزلّفين أو المزاودين، أو الذين أبقتهم السلطات الشيوعية لتستفيد منهم في مهنةٍ خاصةٍ قد تأتي في المستقبل أو تضطرهم الحاجة إليهم، وتدفّقت جماعات المستعمرين من الروس والأوكرانيين فحلّت محلّ السكان الأصليين، وحلّت السلطات الشيوعية جمهورية بلاد القرم، وجعلتها مقاطعةً خاصةً ذات استقلالٍ ذاتي، وألحقتها بأوكرانيا، ويُقدّر عدد سكانها حسب إحصاء ١٣٩٩ بحوالي ٢,١٣٥,٩١٦ ويتوزّعون على الشكل التالي:

١,٤٦٠,٩٨٠	روسي.	٢٢,٥٩٧	يهودي.
٥٤٧,٠٠٠	روسي أوكراني.	١٥,٠٧٨	تتاري.
٤٣,٠٠٠	روسي أبيض.	١,١٥١	مجموعات ثانية.



ولا يزال تتار القرم يهيمون على وجوههم في مناطق متفرقة من مجاهل سيبيريا يعملون بالأشغال الشاقة، ويُطالبون إعادتهم إلى وطنهم، وإعادة جمهوريتهم على الرغم من أنهم يعرفون أنها ستكون ألعوبة بيد الروس، ولكنهم على الأقل يجتمعون، وتخفّ عنهم الأشغال الشاقة، ويذكرون أيامهم الخوالي في وطنهم وذكرياتهم فيه وذكريات آبائهم الذين قتلتهم أيدي المستعمرين الآثمة.

وفي عام ١٣٩٦ شعر الروس أو علموا من أعوانهم الذين أبقوهم هذه الساعة أن بعض المنفيين من تتار القرم قد بدؤوا يعودون إلى بلادهم دون إذنٍ من السلطات الاستعمارية، فأرسل الروس ثلةً من رجال الأمن يخربون البيوت التي قطنها هؤلاء العائدون فوق رؤوس ساكنيها، ويقتادون الذين ينجون من الموت إلى السجن ليذوقوا طعمه بلونٍ آخر، ورفض المستعمرون عودة تتار القرم إلى وطنهم.

تقع شبه جزيرة القرم في شمال البحر الأسود، وتقترب من جهة الشرق من البر مكونةً شبه جزيرة (كرتش) التي تؤلّف باقترابها من البر مضيق (كرتش) الذي يصل بين البحر الأسود وبحر آزوف، وتُشكّل الجبال القسم الجنوبي من شبه الجزيرة بينها تمتد في الشمال سهول فسيحة تضيق في النهاية فلا تتصل بالبر الأوربي إلا ببرزخٍ ضيق جداً لا يزيد عرضه على عشرة كيلومترات. وتبلغ مساحة شبه جزيرة القرم ٢٦,١٥٠ كيلومتراً مربعاً أي قريباً من مساحة فلسطين، أما المنطقة التي كانت تخضع لنفوذها فتبلغ أضعاف هذه المساحة، وينتشر فيها التتار، ثم انتشر فيها القوزاق حتى تخوم أوكرانيا، ثم تقلّصت مع الزمن حتى انحصرت في شبه الجزيرة هذه.

الفصل الثالث

بلادُ القفقاس

تميّز في بلاد القفقاس منطقتين رئيسيتين هما: شمالي القفقاس، وسكانها جميعهم من المسلمين، وإذا كان إسلام القسم الشرقي قديماً يرجع إلى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى، وهو بلاد داغستان، فإن إسلام القسم الغربي حديث يعود إلى أيام العهد العثماني، ويشمل بلاد الشاشان، والأنغوش، والبلكار، والشراكسة. وتقوم في هذا الجزء أربع جمهوريات ذات استقلال ذاتي وهي: ١ - داغستان. ٢ - شاشان أنغوشيا. ٣ - أوستينا الشمالية. ٤ - قبارديا - بلكارديا، كما يشمل هذا الجزء مقاطعتين ذواتي استقلال ذاتي، وهما: أ - قراتشاي الشركسية. ٢ - بلاد الأديغة، وكل هذه الأجزاء ترتبط بموسكو مباشرة.

أما المنطقة الرئيسية الثانية فهي الواقعة جنوب ذرا جبال القفقاس، وهي التي تعرف فيها وراء القفقاس، وتضمّ ثلاث جمهوريات اتحادية، إحداها ذات أكثرية مُسلمة وهي أذربيجان، واثنتين ذواتي أكثرية نصرانية، وهما: جورجيا وأرمينيا، هذا بالإضافة إلى أربع جمهوريات ذات استقلال ذاتي، إحداها نصرانية، وهي أوستينا الجنوبية، وترتبط بجمهورية جورجيا الاتحادية، وثلاث جمهوريات ذات أكثرية مسلمة، وهي: أبخازيا، وآجاريا وترتبطان بجمهورية جورجيا الاتحادية، وناختشيفان وترتبط بجمهورية أذربيجان الاتحادية، كما توجد مقاطعة ذات استقلال ذاتي، وهي مقاطعة

قره باغ وترتبط بجمهورية أذربيجان الاتحادية أيضاً. ويُلاحظ في هذه المنطقة أن إسلام القسم الشرقي قديم يعود إلى عهد الفتوحات الأولى في العهد الراشدي، وهو أذربيجان أما القسم الغربي فالإسلام فيه حديث يرجع إلى العهد العثماني، وأما الوسط فهو جزيرة نصرانية تشمل أرمينيا وجورجيا وتضمان أقليةً مسلمةً لا تصل نسبتها إلى ٢٠٪ من السكان.

تبلغ مساحة بلاد القفقاس كلها ٣٢٤,٢٠٠ كيلو متر مربع أي ما يقرب من مساحة بلاد الشام، ورغم صغر هذه المساحة فإنها تُقسّم إلى هذه الأقسام الكثيرة التي رأيت، هذا بالإضافة إلى القسم الشمالي الشرقي الذي يُسمّى بصحراء القفقاس «دشت القفجاق» والذي كانت تتنقل في أرجائه قبائل النوغاي المسلمة، وقد ضمّه الروس إليهم وابتلعوه، وطردوا منه أكثر قبائل النوغاي، وأسكنوا مكانها بعض الروس، وكانت هذه خطة لفصل مسلمي حوض الفولغا - أورال عن مسلمي القفقاس.

يفصل شمالي القفقاس عن منطقة ما وراء القفقاس جبال القفقاس التي تمتدّ من الشمال الغربي من سواحل البحر الأسود إلى الجنوب الشرقي على بحر قزوين، ويبلغ طول هذا الامتداد أكثر من ١٢٠٠ كيلومتر، وهي جبال شاهقة يصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٣ م في قمة «البروز» الواقعة في الوسط تقريباً، وبذا تعدّ أعلى جبال أوربا، وتسدّ هذه الجبال ما بين البحرين تماماً فلا يمكن اجتيازها إلّا من الجانبين على شاطىء البحرين كما يوجد في وسطها ممردريال الذي يجري فيه - نهر (ترك)، ولارتفاعها الشاهق فإنها تكون باردة جداً، وتكون فيها مناطق ذات ثلوجٍ دائمة، ومن أشهر تلك المناطق ثلاجة «ماروخ»، كما أن ذلك الارتفاع يجعلها تتلقى كمياتٍ كبيرةً من الأمطار التي تنساب على كلا السفحين فيها وتتشكّل منها ومن ذوبان الثلوج بعض الأنهار ذات الأهمية المحلية، وأشهرها: نهر ترك في الشمال الشرقي، ونهر قوبان في الشمال الغربي، ونهر كورا في الجنوب الشرقي، ونهر ريغون في

الجنوب الغربي ، وأكثر الأنهار والنهيرات الأخرى إنما تتجمع مياهها بعضها مع بعض وترفد أحد هذه الأنهار الأربعة . وتُعدّ جبال القفقاس الحدّ الفاصل بين آسيا وأوربا ، وبذا تكون منطقة شمالي القفقاس ضمن القارة الأوربية ، ومنطقة ما وراء القفقاس ضمن القارة الآسيوية ، وإن هذه التقسيمات ليست إلّا اصطلاحات .

أ ـ منطقة شمالي القفقاس : وتقع إلى الشمال من الذرا الجبلية أو خط توزيع المياه وتضمّ الجمهوريات الآتية :

١ ـ داغستان : وهي لفظ تركي يعني بلاد الجبل ، إذ أنها تتألف من مقطعين « داغ » وتعني جبل بالتركية و « ستان » وتعني بلاد بالفارسية . وتبلغ مساحتها ٥٠,٣٠٠ كيلومتر مربع أي ما يُقارب ضعف مساحة فلسطين . ويُمكن أن نُلاحظ فيها منطقتين مُتباينتين ، الأولى في الشمال وهي منطقة سهلية يجري في جزئها الجنوبي نهر صولاق ونهر ترك حيث يتّجهان نحو بحر قزوين ليصبّا فيه ، وإلى الشمال من مجرى نهر ترك تمتدّ رقعة شبه صحراوية هي بداية صحراء القفجاق . أما المنطقة الثانية فتقع في الجنوب ، وهي جبلية تمتدّ من ذرا جبال القفقاس وتنحدر نحو بحر قزوين حتى تصل إلى الساحل ، وقد تصل إليه مباشرةً فلا تترك مجالاً للسهل الساحلي ، ويكون ممرّ ضيق حيث تقع مدينة باب الأبواب « دربنت » ، واسمها يدل على ذلك ، وقد يتسع السهل الساحلي قليلاً وبصورةٍ عامةٍ فهو لا يزيد على خمسة عشر كيلومتراً ، ولكن يبدأ بالاتساع من العاصمة « محج قلعة » إلى الشمال حيث تنفتح السهول الشمالية الواسعة ، وتجري على الجبال أنهار تتجه نحو البحر وتكون قصيرة المجرى ، سيلية في بدايتها ، ذات مجارٍ عميقة ، ويقلّ انحدارها في السهل الساحلي .

تأسّست جمهورية داغستان في شهر ربيع الأول من عام ١٣٣٩ ، ويُقدّر عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٣٩٩ بحوالي ١,٦٢٧,٠٠٠ ، وعاصمتها





مدينة (محج قلعة)، وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٨٥,٣٪ من السكان وهم من:

الداغستان	وعددهم	١,٢٦٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٧٨,٠٪
الأذربيجان	وعددهم	٦٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٤,٠٪
الشاشان	وعددهم	٤٩,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٣,٠٪
الطاط	وعددهم	٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٢٪
التتار	وعددهم	٥,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,١٪

٨٥,٣٪ وهي نسبة المسلمين

ويُشكّل النصارى ١٤,٧٪ وهم من المستعمرين:

الروس	وعددهم	١٩٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ١١,٦٪
الأوكرانيون	وعددهم	٥٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٣,١٪

١٤,٧٪ وهي نسبة النصارى

ويُوجد عدد قليل من اليهود في الجبل لا يزيد عددهم على أربعة آلاف، ويُعرفون باسم «داغ تشوفوت»، أي يهود الجبل، وقد جاءوا إلى المنطقة منذ أيام الدولة السامانية.

ويُقيم أكثر الداغستانيين في الريف، ويعملون في الفلاحة وتربية الحيوانات، بينما يُقيم أكثر المستعمرين في المدن، ويُشرفون على الحكم واستثمار النفط، والصناعة، إضافةً إلى المُهمة الرئيسية وهي مُراقبة حركات السكان.

وتضمّ كلمة الداغستان عشر مجموعاتٍ قبلية منها القوموق، والنوغاي وهما في الشمال، ويعودون إلى أصلٍ تركي. ومنها اللزكي واللان والعفر وهم في الجبال، ومن العفر قبائل الأندي التي كان لها دور في مُقاومة الاستعمار الروسي. وهؤلاء كلهم من المسلمين، ويعودون إلى أصولٍ قوقازية.

كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة، وهي لغة التخاطب حتى عام ١٣٤٦، كما كانت تستعمل أحياناً اللغة التركية الأزرية. وحُظرت الكتابة باللغة العربية كلغة أدبية منذ عام ١٣٤٠.

وتُعد العاصمة (محج قلعة) المركز الإداري الإسلامي لداغستان ومنطقة شمالي القفقاس كلها، ولغة المركز الرئيسية هي اللغة العربية.

٢ - جمهورية شاشان - أنغوشيا: وتبلغ مساحتها ١٩,٣٠٠ كيلومتر مربع أي ما يقرب من ضعف مساحة لبنان، وهي جبلية في الجنوب تُشكل ذرا جبال القفقاس حدودها الجنوبية، وتمتدّ السهول في شمالها على مجرى نهر ترك وبعض روافده، كما تشمل على بعض أجزاء من صحراء القفجاق في شمال تلك السهول. وتجري الأنهار الصغيرة والنهيرات ويلتقي بعضها مع بعض لترفد نهر ترك قبل أن يصل إلى حدود جمهورية داغستان المجاورة لها من جهة الشرق.

وتُسمّى هذه الجمهورية باسم المجموعتين الرئيسيتين اللتين يتألّف منها السكان، وهما: الشاشان والأنغوش. ويبلغ عدد سكان هذه الجمهورية ١,١٥٥,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويُقيم منهم ٣٧٥ ألفاً في العاصمة (غروزني) التي تقع على أحد روافد نهر ترك، وأغلب المقيمين فيها من المستعمرين الروس. ويتوزّع السكان المسلمون حسب المجموعات البشرية على النحو الآتي:

الشاشان	وعددهم	٦١١,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٥٢,٩٪
الأنغوش	وعددهم	١٣٥,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١١,٦٪
الداغستان	وعددهم	٢٢,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٢,٠ ٪
		٧٦٨,٠٠٠	٦٦,٥٪ وهي نسبة المسلمين

أما بقية السكان فهم من المستعمرين النصارى الروس، ويبلغ عددهم ٣٨٧,٠٠٠ وتبلغ نسبتهم ٣٣,٥٪. ومُهمّتهم الإشراف على البلاد، وعلى استخراج النفط.

فالشاشان هم المجموعة الرئيسية ويبلغ عددهم في الإمبراطورية الروسية ٧٥٥,٨٠٠ يُقيم منهم ٨١٪ في جمهوريتهم، وهو كما ذكرنا ٦١١,٠٠٠ نسمة والباقي وهو ١٤٤,٨٠٠ أي ١٩٪ مُوزّعون في داغستان، وأوستينيا الشمالية، وآسيا الوسطى. كما تُوجد أعداد منهم قد هاجرت من بلادها نتيجة الأعمال الوحشية التي قام بها الروس واستوطنت في تركيا، والعراق، وبلاد الشام، وأشهر مناطقهم في بلاد الشام رأس العين والقنيطرة في سوريا، وفي الزرقاء، وصويلح، وأزرق الشاشان، والسخنة في الأردن.

أما الأنغوش فيبلغ عددهم في الإمبراطورية الروسية ١٥٧,٠٠٠ نسمة يُقيم في جمهوريتهم منهم ١٣٥,٠٠٠ أي ٧٢٪ من عددهم الإجمالي، والباقي وهو ٢٢,٠٠٠ أي ٢٨٪ مُوزّعون في أنحاء الإمبراطورية.

ويتكلّم الشعبان لغتين مُتقاربتين تنتميان إلى أصلٍ قفقاسي، وليس لهاتين اللغتين المحليتين أبجدية، وقد عمل الشعب على كتابتها بالحرف العربي، غير أن الروس وقفوا في وجه هذا المشروع فكُتبتا بالحرف اللاتيني، ثم أصبحتا تكتبان بالحرف الروسي.

وقد قاتل الشاشان مع الشيخ محمد شامل قتالاً عنيفاً، وكانت بلادهم القلعة التي وقفت في وجه الروس، وكذلك اشتركوا في انتفاضة الداغستان عام ١٣٣٩ بينما لم يشترك إخوانهم الأنغوش في كلا الحربين. وهذا ما زاد من حقد الروس عليهم، وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية، واقترب الألمان من المنطقة صدرت إشاعات لا أساس لها من الصحة أن الشاشان يتعاونون مع الألمان، فما أن انتهت الحرب حتى عُدّ الشاشان عملاء، ونفوا جميعاً إلى مجاهل سيبيريا، وبقيت جمهوريتهم تحمل اسم جمهورية أنغوشيا، وبعد موت

ستالين أعيد النظر في الاتهام الذي وُجّه إليهم، فبُرّئوا منه، وأعيدوا إلى بلادهم عام ١٣٧٧، وأعيدت إليهم جمهوريتهم، ورجعت تحمل اسمهم.

وإسلام الشاشان الحديث يعود إلى العهد العثماني، ولا يزيد كثيراً على القرنين من الزمن، وقد ثبت بشكلٍ جيدٍ أيام حروبهم مع الشيخ محمد شامل ضدّ الروس، إذ كان لاندفاعهم وجهادهم أثر في تمكين الإيمان في نفوسهم.

٣ - جمهورية أوستينا الشمالية: تبلغ مساحتها ٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية باستثناء الجزء الشمالي حيث تمتدّ السهول حول نهر ترك عندما يعود ثانية إلى أرضها متجهاً نحو الشرق. ويجري نهر ترك في أرضها عندما يكون جبلياً، وترفده كثير من الأنهار، ثم يدخل أراضي جمهورية قبارديا - بلكاريا، ويرسم فيها قوساً في زاويتها الشمالية الشرقية، ويعود إلى أراضي أوستينا الشمالية. ولهذا النهر أهمية كبيرة في هذه المنطقة، وهو النهر الوحيد الذي يبدأ في جريانه من جنوب ذرا جبال القفقاس، إذ ينبع من جورجيا وتجتاز مياهه خطّ الذرا فيُشكّل ممرّ دريال وهو الممرّ الوحيد الذي يخترق هذه الجبال من وسطها.

والأوستين من العناصر الشركسية، ويُطلق عليهم اسم القوشحة، كما يُسمّون بالأيرون، وإن كان هذا الاسم غالباً ما يُطلق على النصارى منهم، وإذا كان الإسلام قد انتشر في الأجزاء التي تقع شمال ذرا القفقاس عن طريق الدعاة فإن الأوستين الذي يسكنون في جنوب تلك الذرا قد بقوا على نصرانيتهم، وهذا ما جعل الروس يفصلون القسمين بعضهما عن بعض، حتى لا يتأثر الجنوب بالشمال ويدخل أهله في الإسلام، وربطوا القسم الجنوبي «أوستينا الجنوبية» بجمهورية جورجيا الاتحادية النصرانية.

يبلغ عدد سكان عدد الجمهورية ٥٩٧,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ بينهم ٢٩٩,٠٠٠ من الأوستين، وتقع عاصمتها «أردجو نيكيزي» على نهر (ترك) في مجراه الأعلى. وكانت هذه الجمهورية في بداية أمرها عندما

تشكّلت عام ١٣٤٣ هـ مقاطعة ذات استقلالٍ ذاتي، ثم غدت بعد عامين (١٣٤٥) جمهورية ذات استقلالٍ ذاتيٍ وترتبط مباشرة بموسكو.

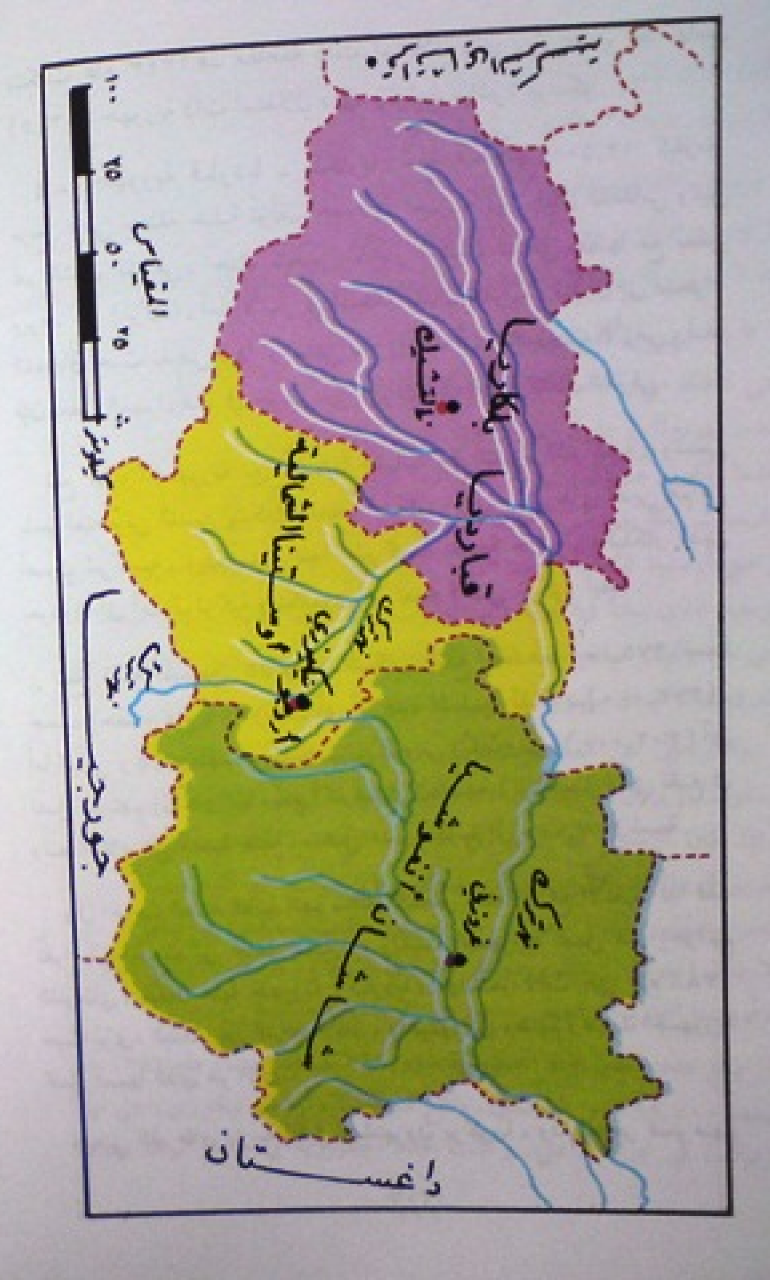
٤ - جمهورية قبارديا - بلكاريا: تبلغ مساحتها ١٢,٥٠٠ كيلومتر مربع. وهي منطقة جبلية تُؤلّف حدودها الجنوبية ذرا جبال القفقاس وتميل نحو الشمال الشرقي، حيث تنحدر الأنهار الكثيرة ليلتقي بعضها مع بعض ويرفد نهر (ترك)، أما الأنهار في المنطقة الشمالية الغربية، فتنزل إلى صحراء القفجاق حيث تغيض فيها أو تنتهي بالري بعد أن استصلحت الأرض، لذا فإن بعض السهول تمتدّ في حوض نهر (ترك) في أقصى الشمال الشرقي.

تقع هذه الجمهورية بين أوستينا الشمالية وقراتشاي الشركسية، وتُسمّى باسم العنصرين اللذين يُشكّلان معظم السكان، وهما: القبرطاي الذين هم من أصولٍ شركسية، ويتكلّمون اللغة الشركسية بلهجةٍ خاصةٍ، والبُلكار الذين يعودون إلى أصولٍ تركيةٍ ويتكلّمون لغةً تعود لأصلٍ تركيٍ أيضاً.

تبلغ نسبة المسلمين ٥٥٪ من السكان البالغ عددهم ٦٧٥,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، أي أن عدد المسلمين يُقدّر بـ(٣٧٣,٠٠٠)، أما الباقي و ٤٥٪ منهم من المستعمرين الروس ويُقدّرون بـ(٣٠٢,٠٠٠) أي تصل نسبتهم إلى ٤٥٪، ويُقيم أكثرهم في العاصمة (نالتشيك) التي تقع في وسط البلاد على هضبة جبلية، ويصل عدد سكانها إلى ٢٠٧,٠٠٠ نسمة.

وفي الحرب العالمية الثانية اتّهم ستالين البلكار بالتعاون مع الألمان، لذا فقد نُفوا إثر الحرب إلى مجاهل سيبيريا، وبقيت الجمهورية تحمل اسم إخوانهم القبرطاي، فيُقال عنها جمهورية «قبارديا»، واستمرّ ذلك حتى عام ١٣٨٨ حيث بُرّئ البلكار من العمالة للألمان، وأعيدوا إلى وطنهم وعادت الجمهورية تحمل اسمها الذي هو الآن.

ويعتني القبرطاي بتربية الخيل ويشتهرون بركوبها، وقد هاجر قسم منهم



مع من هاجر من الشراكسة أثناء دخول الروس بلادهم وارتكاب الأعمال الوحشية بعد حروب الشيخ محمد شامل، وتقيم نسبة من المهاجرين في بلدة خناصر جنوب حلب من بلاد الشام.

أما المقاطعات ذات الاستقلال الذاتي فهي:

٩ ـ **مقاطعة قراتشاي الشركسية:** تبلغ مساحتها ١٤,١٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية تُشكّل ذرا جبال القفقاس حدودها الجنوبية وتفصلها عن جمهورية أبخازيا، بينما تحدّها من الشرق جمهورية قباردينا ـ بلكاريا. ومن الشمال الشرقي إقليم ستافروبول، والتي تُعدّ جزءاً منه، ومن الغرب إقليم كراسنودار.

تتجمّع المياه المنحدرة على سفوح جبال القفقاس الشمالية، ويجتمع بعضها مع بعض لترفد نهر قوبان الذي يتكوّن من اجتماع الروافد الشرقية، والذي تقع عليه عاصمة المقاطعة «شركسك».

يبلغ عدد سكان المقاطعة ٣٦٩,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، وينتمي السكان إلى مجموعتين رئيسيتين هما: القراتشاي وهم من أصولٍ تركيةٍ، وكذلك لغتهم التي يتكلّمونها، والشركس واسمهم يدل عليهم ولغتهم الشركسية. وقد خضعت المنطقة للروس بعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، وهاجرت جماعات منهم مع من هاجر، وأكثر من يُقيم منهم في بلاد الشام يسكن في قريتي البريضان، وبلي في سوريا.

واتّهم ستالين القراتشاي أثناء الحرب العالمية الثانية أنهم عملاء للألمان فهُجّروا من منطقتهم عام ١٣٦٣، وبعد مُضي مدةٍ زال هذا الاتهام ورجعوا إلى مقاطعتهم عام ١٣٧٧ هـ.

أنشئت هذه المقاطعة في ١١ جمادى الأولى عام ١٣٤٠ (١٢ كانون الثاني ١٩٢٢)، لكن لم يلبث الروس أن عادوا فقسّموها إلى منطقتين هما: مقاطعة

قراتشاي ذات الحكم الذاتي، ومقاطعة الشركس وذلك عام ١٣٤٢ هـ. ثم عادوا ثانيةً بعد عامين آخرين فجمعوها، ولما هُجِّر القراتشاي بقيت المقاطعة تحمل اسم مقاطعة الشركس ذات الحكم الذاتي، وعندما رجع المنفيون عاد الاسم إلى ما كان عليه يحمل اسم المجموعتين.

تدفق كثير من المستعمرين الروس إلى هذه المنطقة حتى بقي السكان الأصليون يُشكّلون ٤٣٪ من مجموع السكان، غير أن نسبة زيادة المسلمين قد رفعت من هذه النسبة فهي عام ١٣٩٩ هـ تُعادل ٥٠٪. ويُقدّر عدد القراتشاي حسب الإحصاء المذكور بـ (١٣١,٠٧٤)، وأما الشركس فيقرب عددهم من مائتي ألف ويُضاف إلى هذا مجموعات ثانية أشهرها: الأباظة، وعددهم أربعة وعشرون ألفاً، والباقي وهو ١٣,٩٢٦ فهو مجموعات صغيرة من عناصر مختلفة.

ولا يوجد في المقاطعة الآن سوى أربعة مساجد مفتوحةٍ للعبادة.

٢ ـ **مقاطعة الأديغة**: وتبلغ مساحتها ٧,٦٠٠ كيلومتر مربع، وقد تأسست عام ١٣٤١ (١٩٢٢)، وكانت تُعرف باسم (منطقة الأديغة ـ الشركس) مع العلم أن كلمة (الأديغة) هو الاسم الذي يُطلقونه على أنفسهم، ولذا فهو يُرادف لفظ (شركس) وبعد عام ١٣٥٥ اقتصر الاسم على (مقاطعة الأديغة) ذات الاستقلال الذاتي. وتُشكّل جزءاً من إقليم (كراسنودار)، وهي مقاطعة داخلية، غريبة الشكل، كثيرة التعرّجات في حدودها، ويُعدّ الجزء الجنوبي منها منطقةً جبليةً يجري فيه بعض الروافد لنهر قوبان، على حين يكون الجزء الشمالي سهلياً إذ تجري المجاري السفلى لنهر قوبان، وبعض روافده، وتكون حدودها الشرقية مسايرة لمجرى بعض الروافد، على حين يشكّل نهر قوبان الحدود الشمالية لها.

يبلغ عدد سكان هذه المقاطعة ٤٠٤,٠٠٠ ساكن حسب إحصاء عام

١٣٩٩ هـ. وعاصمتها مدينة (مايكوب) الشهيرة. وسكان المقاطعة مجموعة من القبائل أشهرها: الأبزاخ، البزادوغ، الحاتوقواي، والشابسغ و... وإن القبرطاي، والأبخاز، والشركس والأوستين من المجموعة نفسها وإن كانوا في جمهوريات ومقاطعات ثانية، وربما تختلف لغة الأبخاز قليلاً، والأصح لهجتهم، وقد كانت لغتهم تُكتب بالحرف العربي ثم غيّر المستعمرون الروس طريقة الكتابة إلى الحرف اللاتيني ثم الروسي عام ١٣٥٥ هـ.

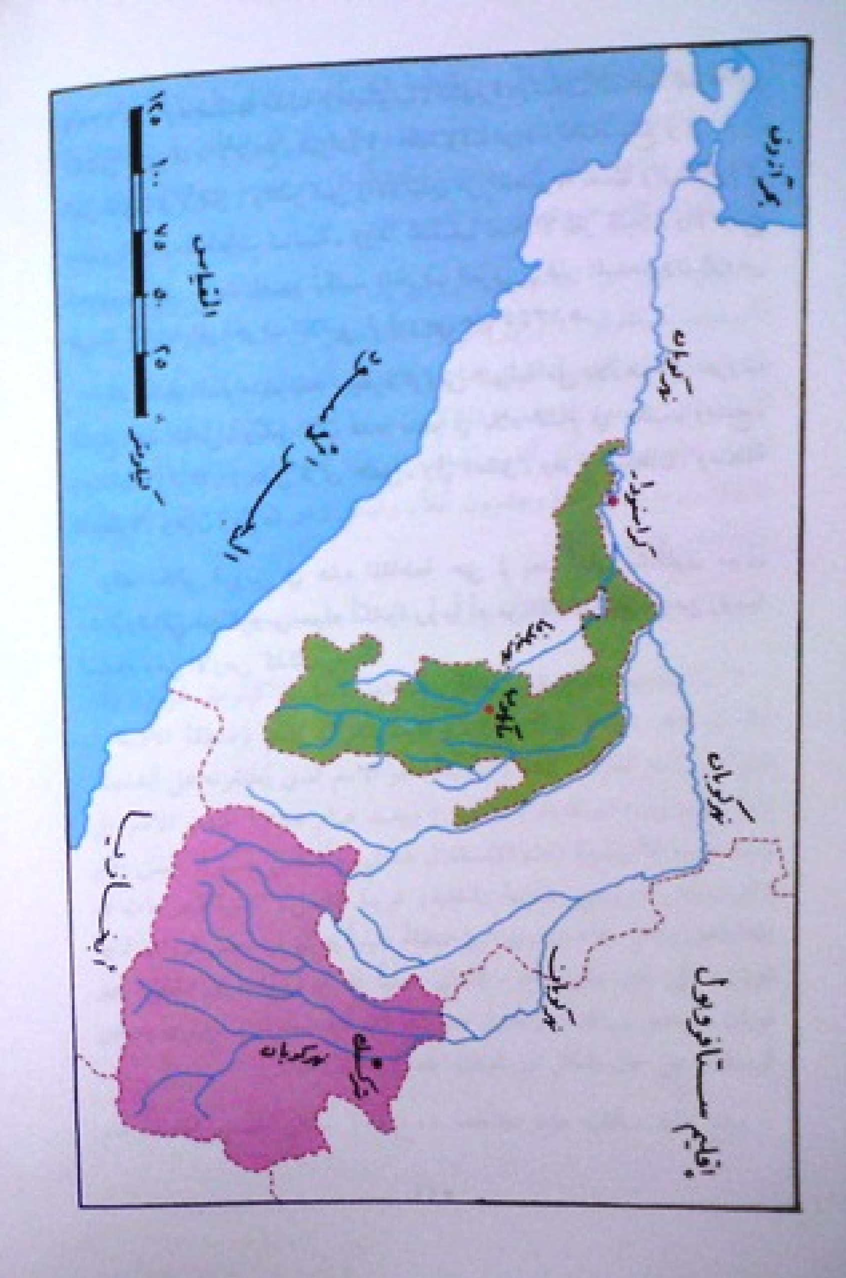
وقد هاجر قسم منهم بعد سيطرة الروس النهائية على بلادهم إثر حروب الشيخ محمد شامل، ويُقيم الآن عدد منهم في بلاد الشام في حلب، ومنبج، وعندان، والرقة، وبعض قرى حمص، وفي دمشق، ومرج السلطان، ومنطقة القنيطرة، وعمان وغيرها.

وقد تكاثر الروس في هذه المقاطعة حتى لم يعدْ أهلها يُشكّلون سوى ٥٠٪ والباقي من الروس سواء أكانوا روساً أم من الأوكرانيين أم من روسيا البيضاء ومن الأرمن كذلك.

ب ـ **ما وراء القفقاس**: وهي المنطقة القفقاسية التي تقع خلف ذراجبال القفقاس. وتقوم فيها ـ رغم صغر رقعتها ـ إذ لا تزيد مساحتها على ٢١٢,٠٠٠ كيلومتر مربع ـ ثلاث جمهورياتٍ اتحادية، وثلاث جمهورياتٍ ذات استقلالٍ ذاتي، ومقاطعتان ذواتا استقلالٍ ذاتي. وإن قيام ثلاث جمهورياتٍ اتحاديةٍ في تلك الرقعة المحدودة إنما الغاية منه تثبيت الوضع للروس خلف ذلك الحاجز الجبلي الشاهق، وإبعاد صورة النزاع التي كانت قائمةً في المنطقة لاختلاف العقائد، إذ وجدت جمهورية لأبناء كل عقيدةٍ، مع الحرص على إبقاء مجموعاتٍ من المسلمين تحت سيطرة النصارى خوفاً من اتفاق المسلمين وتشكيل حلف فيما بينهم ضدّ النصارى، ولإثارة الشحناء لو تمّ اتفاق ضدّ الروس، وفي الوقت نفسه تكون دعاية للروس في تلك الجهات النائية عنهم إذ تعتمد هذه الدعاية على الأدّعاء بأن الروس ليسوا مستعمرين، حيث تؤلّف هذه المناطق جمهورياتٍ تحكم نفسها بنفسها، وقد ارتضت لنفسها أن تكون على صلةٍ قويةٍ مع الروس، وأن تُشكّل معهم اتحاداً.
ولسكان المنطقة صلات مع الأمصار الإسلامية القريبة منها صلة في العقيدة، وصلة في القرابة، وصلة في الجوار، وصلة في الموطن، ولهذا أثره، وربما يتأثر المفضّلون الذين لا ينظرون إلى حقائق الأمور، وإنما يُؤخذون بالدعاية. والجمهوريات الاتحادية هي:

١ ـ **أذربيجان**: وتبلغ مساحتها ٨٦,٦٠٠ كيلومتر مربع. وتتألّف من سهلٍ ساحليٍ على شكل مثلثٍ تُشكّل قاعدته ساحل البحر، ويمتدّ رأسه مع مجرى نهر (كورا) باتجاه الشمال الغربي، ويجري في وسطه نهر كورا الذي يصبّ في بحر قزوين مُشكّلاً امتداداً بسيطاً ناشئاً من رواسب النهر في البحر.

ويمتد في الشمال جبال القفقاس التي تُشكّل ذراها الحدّ الفاصل بين داغستان وأذربيجان، غير أن الحدود بين هاتين الجمهورتين تتجه نحو الشمال الشرقي باتجاه البحر بينما يستمرّ خطّ الذرا حسب اتجاهه العام نحو الجنوب



الشرقي، ويبدأ بالانخفاض تدريجياً حتى ينتهي في البحر مُشكّلاً شبه جزيرة (أبشيرون) التي تقوم فيها عاصمة البلاد (باكو). ومن جبال القفقاس تنحدر المياه بالاتجاهين، ومن المعلوم أن خطّ الذرا هو خط تقسيم المياه، فالمياه التي تتجه نحو الشمال الشرقي تُشكّل أنهاراً قصيرة تصبّ في بحر قزوين، والتي تنحدر نحو الجنوب تُشكّل أنهاراً تصبّ في نهر كورا الذي يُعدّ المستوى الأساسي لها، وإن كان بعضها وخاصة الشرقي منها يذهب في ريّ السهل قبل أن يصل إلى نهر كورا.

وفي الغرب تمتدّ هضبة أرمينيا التي تنحدر منها المياه، فعلى سفوحها الشمالية تتشكّل أنهار تجري لتصبّ في نهر كورا، ومن السفوح الشرقية تتشكّل أنهار تتجه نحو الشرق والشمال الشرقي نحو نهر كورا غير أنها تذهب في ريّ السهل قبل أن تصل إلى النهر. ومن السفوح الجنوبية تنحدر المياه لتشكّل أنهاراً تتجه نحو نهر أراكس (الرس) الذي يجري بين هضبة أرمينيا وجبال أذربيجان، ويُعدّ هذا النهر الحدّ الفاصل بين جمهوريتي أرمينيا وأذربيجان من جهةٍ وبين ايران من جهةٍ ثانية.

وتمتدّ جبال أذربيجان الإيرانية في الجنوب، وتنحدر من سفوحها الشمالية المياه نحو نهر أراكس ومن سفوحها الشرقية تتجه الأنهار نحو البحر، ومنها ما يصل إليه، ومنها ما يذهب في ريّ السهل قبل أن يبلغ البحر.

نجح الشيوعيون في شهر جُمادى الأولى من عام ١٣٣٦ من السيطرة على باكو بمساعدة الاشتراكيين الثوريين، والفرق العسكرية الأرمنية لحزب الطاشناق، ومقاتلي حزب همّة، وتألّفت كومونة باكو السوفيتية، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الدامية قتل خلالها ثمانية عشر ألفاً من المسلمين، وفرّ إثرها قادة حزب المساواة إلى مدينة غاندكا (كيروفآباد)، وشكّلوا هناك حكومة معارضة لحكومة كومونة باكو السوفيتية، وأطلق عليها اسم (مجلس أذربيجان الوطني). وفي شهر شوال من العام نفسه اختلف الرفاق فيما بينهم إذ تخلّى

عنهم الاشتراكيون الثوريون، وحزب الطاشناق فسقطت الحكومة، ووقف المسلمون على الحياد فلم يتدخلوا في النزاع القائم، ولا في شؤون الحكم.

قُضي على الحركة الشيوعية في ٧ ذي الحجة عام ١٣٣٦ (١٥ أيلول ١٩١٨) بمساعدة القوات العثمانية التي كان يقودها نوري باشا، والتي دخلت مدينة باكو، وتبعتها قوات حكومة مجلس أذربيجان الوطني في (غاندكا)، وحدثت مجازر في صفوف الأرمن، ولكن لم تلبث أن انسحبت القوات العثمانية من باكو إذ شنّت عليها القوات الإنكليزية هجوماً من جهة إيران، وخسرت الدولة العثمانية الحرب وانسحبت قواتها من ميادين القتال جميعها، وبقيت حكومة مجلس أذربيجان الوطني في السلطة. وعادت القوات الإنكليزية فانسحبت من أذربيجان، واستمرّت حكومة مجلس أذربيجان الوطني تمارس مسؤولياتها في الحكم حتى ١٠ شعبان ١٣٣٨ (٢٧ نيسان ١٩٢٠) إذ داهمتها قوات الجيش الأحمر التي تمكّنت من السيطرة على البلاد، وقُضي على حكومة مجلس أذربيجان الوطني بعد أن حكمت الإقليم ما يقرب من سنتين (٧ ذي الحجة ١٣٣٦ حتى ١٠ شعبان ١٣٣٨)، وتأسّست بمجيء الشيوعيين جمهورية أذربيجان السوفيتية.

يبلغ عدد سكان جمهورية أذربيجان الاتحادية ٦,٠٢٨,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ بينهم ٥,٠١٧,٠٠٠ مسلم، وبذا تكون نسبة المسلمين ٨٣,٣٪ من السكان ويتألّفون من المجموعات التالية:

الأذربيجان	وعددهم ٤,٧٠٧,٨٦٨	ويُشكّلون نسبة ٧٨,١٪
الداغستان	وعددهم ٢٠٤,٩٥٢	ويُشكّلون نسبة ٣,٤٪
التاليش	وعددهم ٦٠,٢٨٠	ويُشكّلون نسبة ١,٠٪
التتار	وعددهم ٣٠,٩٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٥٪
مجموعات أخرى	وعددهم ١٦,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة ٠,٣٪
	٥,٠١٧,٠٠٠	مجموع المسلمين ٨٣,٣٪

أما النصارى فيبلغ عددهم ٩٧٦,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ١٦,٢٪ من السكان ويتوزّعون حسب المجموعات الآتية:

الروس وعددهم ٤٧٥,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ٧,٩٪ من السكان
الأرمن وعددهم ٤٧٥,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ٧,٩٪ من السكان
الأوكرانيون وعددهم ٢٦,٠٠٠ ويُشكّلون نسبة ٠,٤٪ من السكان
٩٧٦,٠٠٠ ١٦,٢٪

ويوجد عدد من اليهود، ويُقدّر عددهم بخمسة وثلاثين ألفاً، فتكون نسبتهم حوالي ٠,٥٪.

يُمثّل الشيعة ٧٠٪ من المسلمين وأكثرهم يسكن الجنوب، ويُمثّل أهل السنة ٣٠٪ ومعظمهم يقطن الشمال، ويوجد عدد من البهائيين في كلٍ من مدن باكو، وكوبا. كما يعيش عدد من عبدة الشيطان (اليزيديون).

ويتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية جمهورية (ناختشيفان) ذات الاستقلال الذاتي، وتقع بين تركيا، وأرمينيا أي توجد أراضٍ أرمينية تفصل بين أذربيجان وناختشيفان، تبلغ مساحة هذه الجمهورية ٥,٥٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٢٤٠,٤٥٩ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتوزّع السكان على المجموعات الآتية:

الأذربيجانيون وعددهم ٢٢٩,٩٦٨ ويُشكّلون نسبة ٩٥,٦٪ من السكان وأكثرهم من الشيعة.
الروس وعددهم ٣,٨٠٧ ويُشكّلون نسبة ١,٦٪ من السكان وهم نصارى.
الأرمن وعددهم ٣,٤٠٦ ويُشكّلون نسبة ١,٤٪ من السكان وهم نصارى.

مجموعات ثانية وعددهم ٢,٢٧٨ ويُشكّلون نسبة ١,٤٪ من السكان وهم من المسلمين والنصارى.
٢٤٠,٤٥٩ ١٠٠٪

كما تتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية منطقة قره باغ ذات الاستقلال الذاتي، وتقع وسط جمهورية أذربيجان إذ تحيط بها الأراضي الأذربيجانية من كل جهة، تبلغ مساحة هذه المقاطعة ٤,٤٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٦٢,١٨١ حسب إحصاء ١٣٩٩ هـ، ويتوزّع السكان على المجموعات الآتية:

الأذربيجانيون ويبلغ عددهم ٣٧,٢٦٤ ويُشكّلون نسبة ٢٣,٠٪ من السكان.
الروس ويبلغ عددهم ١,٢٦٥ ويُشكّلون نسبة ٠,٨٪ من السكان.
الأرمن ويبلغ عددهم ١٢٣,٠٧٦ ويُشكّلون نسبة ٧٥,٩٪ من السكان
مجموعات ثانية ويبلغ عددهم ٥٧٦ ويُشكّلون نسبة ٠,٣٪ من السكان

ومن هؤلاء السكان يعيش عشرون ألفاً ممن يؤلّهون علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وتُعدّ مدينة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان الاتحادية من كبريات مدن الامبراطورية الروسية وقد وصل عدد سكانها إلى ١,٥٥٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ.

ويتكلّم السكان اللغة الأزرية التي تعود إلى أصلٍ تركي.

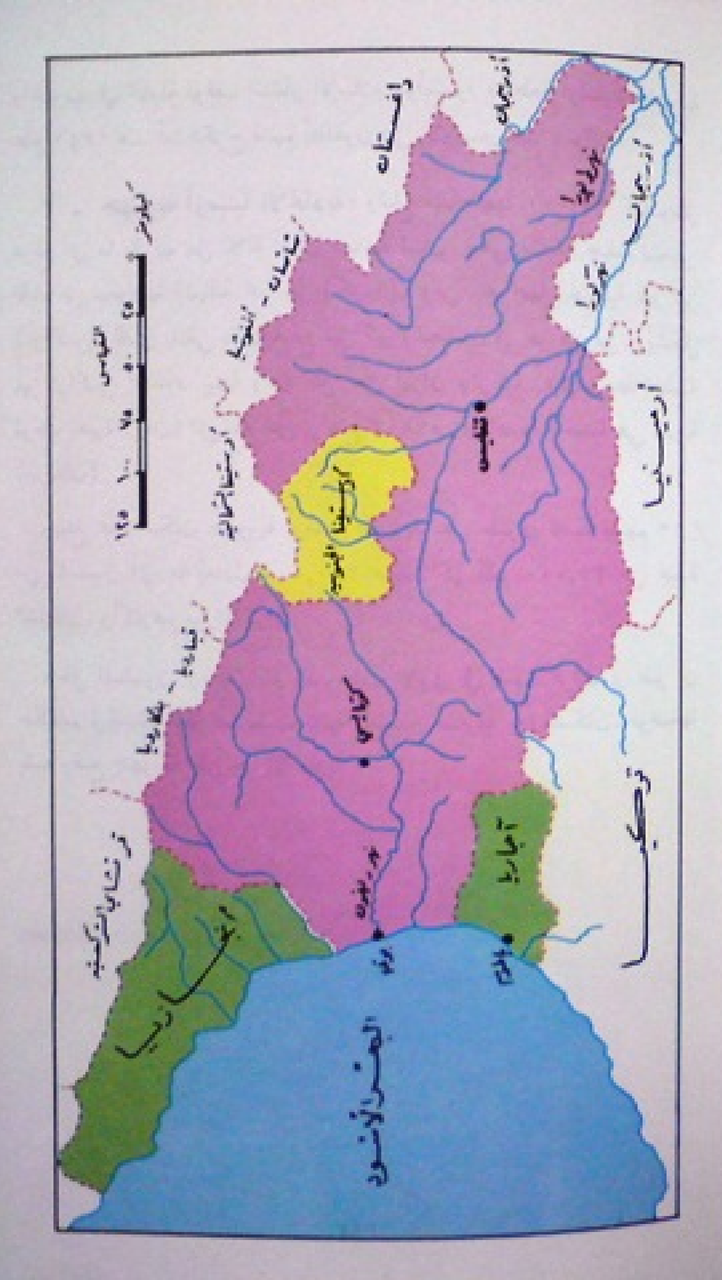
٤ - جورجيا (بلاد الكرج): وتبلغ مساحتها ٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتقع بين جبال القفقاس وهضبة أرمينيا، ونلاحظ أن جمهوريات شمالي القفقاس ومقاطعاته تحدّها من الشمال، أما من الجنوب، فنجد تركيا وجمهورية أرمينيا الاتحادية، ومن الغرب البحر الأسود، ومن الشرق جمهورية أذربيجان الاتحادية. وتقع في وسطها هضبة قليلة الارتفاع، وتكون مركز توزّع المياه بين الشرق والغرب، فالمياه المنحدرة من جبال القفقاس تنحدر في الغرب في جمهورية أبخازيا نحو البحر، وفي جورجيا نحو نهر (ريفون) لترفده، أما في الشرق فتنحدر نحو نهر كورا وروافده، وكذا الأنهار المنحدرة من هضبة أرمينيا، وبين نهري كورا في الشرق وريفون في الغرب ترتفع الهضبة التي في وسط جورجيا، أو نستطيع أن نقول: إن جورجيا تتألّف من السفوح الجنوبية لجبال القفقاس والسفوح الشمالية لهضبة أرمينيا وفي نقاط التقاء السفحين يجري نهر كورا في الشرق ونهر ريفون في الغرب وبين النهرين مرتفع بسيط. ولما كانت السفوح الجنوبية لجبال القفقاس معرضةً للشمس التي تُعدّ قليلة السطوع في بلاد روسيا لذا قامت هنا أفضل المشاتي.

ورغم أن جورجيا قد دخلها المسلمون أيام الفتوحات الأولى إلا أن رحمة المسلمين وعطفهم على أهل الذمة، والأحداث التي قامت يومذاك في الدولة الإسلامية، ودعم الروم لأهل الكرج، ومناعة البلاد كل ذلك قد أبقى النصرانية منتشرة في جورجيا.

يبلغ عدد سكان جورجيا اليوم حوالي ٤,٥٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويعيش بينهم أقلية من المسلمين لا يزيد عددها على ٨٣٥,٠٠٠ أي ما يعادل ١٩٪ من السكان، ويعيش قسم منها في مدينة تفليس عاصمة جمهورية جورجيا والتي تقع على مجرى نهر كورا.

وتضم جمهورية جورجيا الاتحادية بصفتها ذات أكثرية نصرانية جمهوريتان ذواتا أكثرية مسلمة وهما: أبخازيا وأجاريا، ومقاطعة ذات أكثرية نصرانية





وهي أوستينا الجنوبية.

١ - جمهورية أبخازيا: وتبلغ مساحتها ٨,٦٠٠ كيلومتر مربع أي أصغر من مساحة لبنان بقليل، وتقع على ساحل البحر الأسود، وعاصمتها مدينة (سوخوم)، والأبخاز مجموعة من العناصر الشركسية انفصلت عنهم بجبال القوقاز، وقد كان كثير منهم يعتنق النصرانية فلما صدر المرسوم بالتسامح الديني عام ١٣٢٣ دخل قسم كبير منهم بالإسلام، يبلغ عدد سكان جمهورية أبخازيا ٤٨٦,٩٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويُقدّر عدد الأبخاز بحوالي ٩١,٠٠٠ أي ٢٠ ٪ من السكان.

كانت تقوم حكومة (ايمارتي) في هذه المنطقة، فقضت عليها الإمبراطورية الروسية عام ١٢٤٥، وألحقتها بها، وبعد أن قام الحكم الشيوعي عام ١٣٣٦، وبدأ بتقسيم المنطقة أسس عام ١٣٤٩ جمهورية أبخازيا هذه وألحقها بجمهورية جورجيا الاتحادية.

٢ - جمهورية آجاريا: تبلغ مساحتها ٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، بين جورجيا وتركيا، وتطلّ على البحر الأسود من جهة الغرب، وقاعدتها مدينة باطوم. لقد ضمّت روسيا إليها حكومة (غوريا) التي كانت قائمة في المنطقة، وذلك بعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، واضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف بذلك، ثم تأسّست جمهورية آجاريا عام ١٣٤٠ هـ، وألحقت بجمهورية جورجيا الاتحادية. ويسكن هذه الجمهورية ٣٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ.

٣ - مقاطعة أوستينا الجنوبية: وتبلغ مساحتها ٣,٩٠٠ كيلومتر مربع، ولا يزيد عدد سكانها على ١٢٥,٠٠٠ نسمة، والأوستين - كما مرّ معنا - من العناصر الشركسية، ويُعرفون باسم القوشحة، وأغلبهم من النصارى. لقد ضمّ الروس إليهم المنطقة إثر مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ هـ. ولما كان الإسلام قد انتشر بالأجزاء الشمالية من بلاد الأوستين لذا أسرع الروس وفصلوا بين الشمال



والجنوب في محاولةٍ لوقف انتشار الإسلام. وأسّسوا مقاطعة أوستينا الجنوبية عام ١٣٤١ هـ. أما الكرج فإنهم يُطلقون على الأوستيين اسم « تواليتا ».

٣ - **جهورية أرمينيا الاتحادية:** وتبلغ مساحتها ٣٠,٠٠٠ كيلومتر مربع أي ما يقرب من ثلاثة أمثال مساحة لبنان. وهي منطقة جبلية تنحدر المياه من سفوحها الشمالية نحو نهر (كورا)، ومن سفوحها الجنوبية نحو نهر (أراكس) الذي يلتقي بالنهاية مع نهر كورا ليصبّان في بحر قزوين. ويُشكّل نهر أراكس الحدود بينها وبين كلٍ من إيران وتركيا. وفي وسط الهضبة توجد بحيرة (وان) التي تقع على ارتفاع ١٩٠٢م. وعاصمة أرمينيا هي مدينة (يريفان).

ويبلغ عدد سكان جمهورية أرمينيا ما يزيد على مليوني نسمة بينهم ١٢٪ من المسلمين أي ما يُعادل ٣٤٠,٠٠٠ مسلم، كما يُقيم ٣٥,٠٠٠ من عبدة الشيطان، وأكثرهم من الأكراد.

دخل المسلمون أرمينيا أيام الفتوحات الأولى في العهد الراشدي غير أن حكمهم لم يستقرّ فيها لذا بقيت نسبة المسلمين ضعيفةً بين السكان، فوضعها يُشبه وضع جمهورية جورجيا الاتحادية.

الفصل الرابع

تُركستان

تعني تُركستان بلاد الترك، ولكن عندما نُطلق هذا اللفظ فإنما نعني به بلاد الترك في أواسط آسيا فقط إذ أصبح علماً على هذه المنطقة، وهي منطقة واسعة الأرجاء، فإضافةً إلى تُركستان التي تخضع للاستعمار الروسي، وهي المنطقة التي نحن بصدد البحث عنها، وتُعرف أحياناً باسم تركستان الغربية تمييزاً عن المنطقة التي تخضع للاستعمار الصيني والتي تُسمى تُركستان الشرقية، وإن كان الصينيون يُسمّونها «سينكيانغ» ويعني هذا اللفظ باللغة الصينية «المقاطعة الجديدة».

لا يحبّ الروس إطلاق لفظ «تُركستان» على هذه المنطقة خوفاً من إثارة الفكرة العنصرية أو العصبية لدى سكان المنطقة جميعاً والدعوة إلى وحدتهم على أساسها، وهم مجموعا ت كثيرة ويعيشون على رقعة شاسعة من الأرض تزيد على مساحات تركستان وتركيا و .... ما داموا لا يستطيعون الدعوة إلى الفكرة الإسلامية التي تجمع بعضهم مع بعض بل تعدّهم جزءاً من الأمة الإسلامية، فلفظ «تُركستان» يُنمّي عند السكان روح الوحدة، وإنما يحبّ المستعمرون الروس إطلاق لفظ وسط آسيا إذ هو اصطلاح عام يدخل ضمنه مجموعات قد تتمايز بالعقيدة، وربّما تتباين بالعنصرية، وقد تختلف باللغة، ومن الممكن ان تفترق الجماعات.

ويرغب الاستعمار الروسي تجزئة العنصر التركي الشامل للمنطقة إلى مجموعاته القبلية إذ عدّ كل مجموعةٍ عنصراً خاصاً، وأقام جمهورية تحمل اسمه، لذا فإننا نُلاحظ خمس جمهورياتٍ في هذه المنطقة هي: ١ - قازاقستان (بلاد القازاق)، ٢ - أوزبكستان (بلاد الأوزبك)، ٣ - تُركمانستان (بلاد التُركمان)، ٤ - قيرغيزستان (بلاد القيرغيز)، ٥ - طاجكستان (بلاد الطاجيك)، رغم أن العنصر التركي يضمّها جميعها. كما فصل بعض المقاطعات وأعطاها استقلالاً ذاتياً عن هذه الجمهوريات زيادةً في التفرق. وإذا كان قسم من الطاجيك يعود العنصر الفارسي غير أن بقية السكان في بلاد الطاجيك إنما يرجعون إلى أصلٍ تركي. كما يحرص هذا الاستعمار على إيهام القازاق بأنهم عنصر خاص مستقل لا يمتّ إلى الترك بصلةٍ غير أن هذه السياسة الاستعمارية قد غدت معروفةً للناس جميعاً.

وأما كلمة بلاد ما وراء النهر المعروفة في التاريخ الإسلامي فإنها لا تشمل أجزاء تركستان كلها وإنما تضمّ أكثر أجزاء بلاد الأوزبك فقط، والنهر المقصود إنما هو جيحون. فبلاد التُركمان تقع إلى الغرب منه، وكانت تُشكّل جزءاً من خراسان، وحاضرة خراسان يومذاك هي مدينة «مرو» وهي في الوقت نفسه قاعدة بلاد التركمان، وبلاد القازاق بعيدة عن النهر، وبلاد الطاجيك وبلاد القيرغيز إنما تشغل أجزاء جبلية ويعدّ قسم منها من بلاد الخطا التي كانت قائمة يومذاك.

وتشغل الصحاري والبوادي والسهوب القسم الأكبر من تركستان وخاصةً الأجزاء الوسطى والغربية ولا أثر لبحر قزوين اذ هو بحر مُغلق، يقع في منطقةٍ صحراوية، وتمتدّ الأراضي التي حوله في ظلّ جبال القفقاس التي تحول دون وصول الآثار البحرية الى الجهات الشرقية، وكذا فإن بحر آرال (بحيرة خوارزم) ضيّق ومُغلق أيضاً، على حين أن الأجزاء الشرقية تشغلها الجبال، ولما كانت هذه الجبال شاهقة الارتفاع فإنها تتلقى كمياتٍ لا بأس بها المطر،



وتتساقط عليها الثلوج ونتيجة ذلك تتشكّل فيها نهيرات يتجمع بعضها مع بعض وتؤلّف نهري سيحون وجيحون اللذين يتمكّنان بما يتلقيان من تغذية كافية من المياه أن يقطعا السهوب والصحاري وأن يصلا إلى بحيرة خُوارزم ليصبّا فيها، ويُكوّنان شريطاً من الخضرة يمتدّ على طول مجريها، أو واحة متصلة. كما تنساب من الجبال الجنوبية مجارٍ مائية أو سيول تغيض أو تنتهي في الرمال فتُشكّل عند نهايتها واحات. وليست مرو، وسرخس، وتادزهن، ونسا، وعشق أباد سوى واحاتٍ تقع عند نهاية بعض المجاري المائية، وإن اختلفت هذه المجاري في اتساعها ومدة جريانها.

تبلغ مساحة منطقة تركستان ما يقرب من أربعة ملايين كيلومتر مربع (٣،٩١٠،٣٠٠ كيلومتر مربع) أي أكثر من سدس مساحة الامبراطورية الروسية الواسعة الأرجاء، وتضمّ الجمهوريات الاتحادية الآتية:

أ - قازاقستان: وتبلغ مساحتها ٢,٧١٧,٣٠٠ كيلومتر مربع، وبذا تُعدّ ثاني الجمهوريات في الإمبراطورية الروسية مساحةً بعد جمهورية روسيا الاتحادية. وتمتدّ في الغرب السفوح الجنوبية لجبال أورال، وتنحدر منها المياه نحو نهر أورال أو نحو المنخفض الأوسط حيث تنتهي في بحيرات مستنقعية أو تغيض في الرمال، وفي الشرق تمتدّ نجود قازاقستان بين الغرب والشرق، وتبدأ من الغرب بالمنخفض الذي يفصلها عن جبال أورال وتتصل في الشرق بجبال آسيا الوسطى الشاهقة الارتفاع وذلك عند الحدود حيث تفصلها عن تركستان الشرقية باستثناء فجاج تمرّ منها الأنهار ولعلّ بوابة (زونغارية) أشهر تلك الفجاج، وتنحدر المياه من هذه النجود نحو الشمال حيث سهول سيبيريا الغربية، وتشغل قازاقستان طرفاً منها، كما تنحدر بعض تلك المياه نحو الجنوب لتؤول إلى بحيرة (بالخاش)، وربما اتجه بعضها نحو نهر سيحون دون أن يبلغه إذ يغيض في الرمال، أو يُستفاد منه في الري.

في منتصف عام ١٣٣٨ انسحب القازاق من القتال بجانب الروس البيض لأن الأميرال كولتشاك قد تسلّم أمر الروس البيض وهو عدو للعناصر كلها عدا الروس، وقد أخذ يدعو إلى وحدة الروس، وانحاز القازاق بعدها للقوة البلشفية، واعترفوا بالحكم السوفيتي بعد هزيمة الأميرال كولتشاك، وتشكّلت لجنة ثورية قازاقية تسلّمت السلطة في منطقة القازاق، وكان نصف أعضائها من حزب (الأش أوردا) والنصف الآخر من مندوبي السوفييت، وانضمّ أعضاء حزب ألاش أوردا الذين هم في السلطة إلى الحزب الشيوعي واستمرّوا في الحكم مدة عشر سنوات، ثم طُردوا إذ انتهى دورهم في الاستغلال، وتفرّد الشيوعيون في شؤون الدولة، وتسلّطوا على الشعب، وقد اتبعوا سياسة أسموها «سياسة التحضير» قضت على نصف أبناء القازاق.

تشكّلت جمهورية قازاقستان ليلة عيد الأضحى من عام ١٣٣٨ هـ، وكانت مدينة قزيل أوردا هي العاصمة، وتقع على مقربة من مجرى نهر

سيحون، واستمرّ ذلك حتى طُرد أعضاء حزب ألاش أوردا من الحزب عام ١٣٤٨ هـ، وعندها نُقلت العاصمة إلى مدينة (ألماآتا) أي مدينة التفاح، ويبلغ عدد سكان جمهورية قازاقستان الاتحادية ١٤,٦٨٤,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتوزّع هؤلاء السكان على المجموعات التالية:

القازاق	ويبلغ عددهم ٥,٢٨٩,٠٠٠	ويشكّلون	٤٠,٠٪ من السكان.
التتار	ويبلغ عددهم ٣١٣,٠٠٠	ويشكّلون	٢,١٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم ٢٦٣,٠٠٠	ويشكّلون	١,٨٪ من السكان
الأويغور	ويبلغ عددهم ١٤٨,٠٠٠	ويشكّلون	١,٠٪ من السكان
الأذربيجانيون	ويبلغ عددهم ٧٣,٠٠٠	ويشكّلون	٠,٥٪ من السكان
	٦,٠٨٦,٠٠٠		٤٥,٤٪ وهي نسبة المسلمين

وهؤلاء جميعهم من المسلمين، وغالباً ما يسكنون الريف، وأما النصارى فإنهم من المستعمرين الروس، وأغلبهم يسكن المدن، وقد بلغ عدد السكان العاصمة ٩١٤,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ لكثرة ما أقام فيها من المستعمرين، ويتوزّع هؤلاء المستعمرون حسب المجموعات التالية:

الروس	ويبلغ عددهم ٥,٩٩١,٠٠٠	ويشكّلون	٤٣,٨٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم ٨٩٨,٠٠٠	ويشكّلون	٩,١٪ من السكان
من روسيا البيضاء	ويبلغ عددهم ١٨١,٠٠٠	ويشكّلون	١,١٪ من السكان
كوريون	ويبلغ عددهم ٩٢,٠٠٠	ويشكّلون	٠,٦٪ من السكان
	٧,١٦٢,٠٠٠		٥٤,٦٪ من السكان

ويتكلّم القازاق لغةً تُعرف بالقازاقية تعود في أصولها إلى المجموعة التركية.

٢ ـ **أوزبكستان**: تبلغ مساحتها ٤٠٨,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتتألف من منطقتين: الأولى بادية وسهوب تقع في الغرب وتهبط ببحيرة خُوارزم (بحر آرال)، ولولا المياه التي تُحمل إلى هذه البحيرة بواسطة نهري جيحون وسيحون لجفّت واندثرت، والثانية في الشرق وهي منطقة جبلية تنحدر منها المياه لغزارة أمطارها النسبية بسبب ارتفاعها، ومن هذه المياه تتشكّل أنهار سيحون وجيحون إضافةً إلى النهر الذي ينتهي في مدينة بُخارى، وهو نهر زرافشان وهكذا يتجمع السكان في مناطق ثلاث في أوزبكستان:

أ ـ حول مجرى نهر جيحون حيث تتشكّل واحة على طول المجرى كما يتفرّع ويُشكّل دلتا قبل مصبّه في بحيرة خُوارزم، وتقوم بعض المدن على هذا المجرى مثل: ترمذ، ونسف، وآمُل، وخيوه، ونُوخوس.

٢ ـ حول مجرى نهر بخارى (زرافشان) حيث تقوم مدينتان من أشهر مدن أوزبكستان وهما: سمرقند، وبُخارى.

٣ ـ حول المجرى الأعلى لنهر سيحون حيث يمتدّ وادي فرغانة وتقوم عدة مدن أشهرها مدينة خوقند، وكذلك وضع روافده حيث تقوم مدينة طاشقند عاصمة الجمهورية، ورابع مدن الإمبراطورية الروسية سكاناً بعد موسكو، ولينينغراد، وكييف، إذ يقرب عدد سكانها من الملبونين (١,٧٨٥,٠٠٠) حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. وتقوم أكثر المدن الباقية عند أقدام الجبال حيث تجري بعض المياه، أما المنطقة الغربية الصحراوية فلا توجد فيها سوى بعض الواحات الصغيرة.

بعد أن دخل الشيوعيون المنطقة فرضوا حمايتهم على خانيتي بُخارى وخُوارزم اللتين كانتا قائمتين، ثم عقدوا معها معاهدتين: أولاهما مع أمير بُخارى في ٦ رجب ١٣٣٩ (١٤ آذار ١٩٢٠) والثانية مع أمير خُوارزم (خيوه) في (١٠ محرم ١٣٤٠ (١٣ ايلول ١٩٢٠) واعترفوا فيها باستقلال



هاتين الإمارتين، ولكن يبدو أن الروس قد غيّروا رأيهم بعد مدةٍ وجيزة إذ كتب القنصل العام لجمهورية روسيا السوفيتية الرفيق كوغورنوف إلى رئيس جمهورية بُخارى الشعبية السيد عثمان خوجا يطلب منه وضع الوحدات العسكرية التابعة للحكومة البُخارية تحت سيطرة الحامية الروسية، وبعد يومين قام بزيارته، وفي هذه الزيارة أعلن علي رضا وزير الحربية في حكومة بُخارى «أن موجة جديدةً من الثورة قد ظهرت في جمهورية بخارى، وقد انتشرت في جميع أرجاء تركستان، وقضت على السيطرة الروسية فيها، لذا فقد رفض نقل السيطرة على قوات بُخارى المسلحة إلى عهدة الحامية السوفيتية، وأصرّ على ضرورة تخلّي السوفييت عن الحاميات التي يُسيطرون عليها، إذ جاءت قوات عسكرية تركية بقيادة أنور باشا وزير حربية الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وأحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين، واحتلّ بعض المناطق في بُخارى كمساعدةٍ لحكومة بُخارى التركية، وقد بدأت الحركة فعلاً غير أن قواتٍ روسيةٍ ضخمةٍ قد توجهت إلى المنطقة واستمرّ الصراع ما يقرب من عامين، وقُتل أنور باشا ودخل المستعمرون الروس بُخارى وخُوارزم.

تأسست جمهورية أوزبكستان الاتحادية من مطلع شهر ربيع الأول من عام ١٣٤٣ بدمج إمارتي بُخارى وخُوارزم بعضهما مع بعض، وأُخذت أجزاء منها وتشكّلت جمهوريتا طاجيكستان وتركمانستان، كما ضُمّت جمهورية قره قالباق إليها.

يبلغ عدد سكان جمهورية أوزبكستان الاتحادية ١٥,٣٩١,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩، ويتألف السكان من المجموعات الآتية:

الأوزبك	ويبلغ عددهم ١٠,٥٦٩,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٦٨,٧٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم ٦٤٩,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٤,٢ ٪ من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم ٦٢٠,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٤,٠ ٪ من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم ٥٩٥,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٣,٩ ٪ من السكان
القره قالباق	ويبلغ عددهم ٢٩٨,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١,٩ ٪ من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم ١٤٢,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٠,٩ ٪ من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم ٩٢,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٠,٦ ٪ من السكان
مجموعات أخرى	ويبلغ عددهم ٣٨١,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٢,٦ ٪ من السكان
	١٣,٣٧٤,٠٠٠	٨٦,٨٪ من السكان

وهذه المجموعات كلها من المسلمين من أهل السنة والجماعة بينها مائة ألف من الشيعة التي يعيش معظم أتباعها في مدن طاشقند، وسمرقند، وبُخارى. ويتركّز الأوزبك في الريف أما المستعمرون فأكثرهم يقطن المدن، وهم من النصارى ويتوزّعون على المجموعات الآتية:

الروس	ويبلغ عددهم ١,٦٦٦,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١٠,٨٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم ١٦٣,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١,١ ٪ من السكان
الكوريون	ويبلغ عددهم ١١٤,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ٠,٧ ٪ من السكان
	١,٩٤٣,٠٠٠	١٢,٦٪ من السكان

كما يوجد عدد من اليهود يُقدّر عددهم بمائة ألف ويُشلكون نسبة ٠,٦٪ من السكان.

يتكلّم الأوزبك اللغة الأوزبكية، وهي من المجموعة التركية، وقد كانت تكتب بالحرف العربي، ثم استبدل به الحرف اللاتيني عام ١٣٤٦ هـ. ويتبع جمهورية أوزبكستان الاتحادية جمهورية قره قالباق ذات الاستقلال الذاتي كما تعدّ فرغانة التي قاعدتها خوقند مقاطعةً خاصةً، والعاصمة طاشقند مقاطعة خاصة أيضاً.

أ - **جمهورية قره قالباق**: وتبلغ مساحتها ١٦٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، وتضمّ الأجزاء الجنوبية المحيطة ببحيرة خُوارزم، فهي منطقة صحراوية سوى



دلتا نهر جيحون وقد ضُمّت الى جمهورية أوزبكستان عام ١٣٥٥ هـ.
ويُقدّر عدد سكانها بحوالي ٩٠٥,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ،
ويُشكّل المسلمون بينهم ٩٥ ٪ بينما يُشكل المستعمرون الروس النصارى
٢,٣ ٪، وعاصمتها مدينة (نوخوس) التي تقع على مجرى نهر جيحون عند
بداية تفرّعه إلى ثلاثة فروع رئيسية تكون دلتاه.



٣ - تُركمانستان: وتبلغ مساحتها ٤٤٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، أي ما يقرب من مساحة العراق، وهي منطقة صحراوية تقوم الحياة فيها في الأجزاء الجنوبية منها حيث تأتيها المياه من مرتفعات شمالي أفغانستان مثل نهر مورغاب الذي ينتهي عند مدينة (مرو)، ونهر تادزهن الذي يحمل اسم هاري في أفغانستان، والذي يُشكّل الحدود بين بلاد التركمان وبين إيران والذي ينتهي عند مدينة تادزهن حيث يتفرّع إلى عدة فروع تنتهي كلها في الري، وتقع عليه مدينة سرخس المعروفة، وإما أن تأتي المياه من شمال إيران كتلك الجداول الصغيرة التي تسبّب قيام المدن عند نهايتها مثل عاصمة البلاد (عشق أباد)، ومدينة (نسا) وهناك نهر أتراك الذي يصبّ في بحر قزوين ويُشكّل الحدود بين بلاد التركمان وإيران، ثم على مجرى نهر جيحون في الشرق، وتقوم بعض المدن على ساحل بحر قزوين، وما عدا ذلك فواحات صغيرة مبعثرة في أنحاء البلاد...

استولى الروس على القسم الأكبر من بلاد التُركمان إثر الحرب التركمانية ١٢٩٧ - ١٢٩٨، وقد دمّر التركمان الجيش الروسي عام ١٢٩٧ في قلعة تبب، وبعد هزيمتهم تعرّضوا لمذابح رهيبة عام ١٢٩٩. واشترك التركمان مع المجاهدين التركستانيين ضدّ الروس ١٣٣٥ - ١٣٤٠، كما قاموا بانتفاضة استمرّت خمس سنوات ١٣٤٥ - ١٣٥٠، ويبلغ عدد سكان جمهورية تركمانستان الاتحادية ١,٥٠٠,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. بينهم تسعمائة ألف تركماني، أما بقية السكان فهم من المستعمرين الروس، وأما بقية التُركمان فإنهم مُشرّدون في أنحاء مختلفة، وبين السكان المسلمين ثلاثون ألفاً من الشيعة. كما يعيش في العاصمة عشق أباد بعض البهائيين.

٤ - **جمهورية قيرغيزيا**: تبلغ مساحتها ١٩٨,٥٠٠ كيلومتر مربع أي أكبر من مساحة سوريا بقليل، وهي منطقة جبلية شاهقة الارتفاع، تفصلها جبال آسيا الوسطى عن قازاقستان وطاجيكستان، وتفصلها عن تركستان الشرقية التي تخضع لسيطرة الصين جبال تيان شان التي يصل ارتفاعها في أقصى شرقي قيرغيزيا إلى ٧٤٣٩ متر عن سطح البحر غير أن هناك ممرات تصل بين المنطقتين وأشهرها طريق الحرير.

وتجري في هذه الممرات أودية تنحدر مياهها نحو الغرب باتجاه نهر سيحون، أو نحو الشرق باتجاه نهر تاريم في تركستان الشرقية، وتنساب بعض الأودية في الشمال لتنتهي في سهوب القازاق. وتوجد بحيرة ايسك كول في شمال شرقي قيرغيزيا، وتنساح إليها مياه بعض المرتفعات المحيطة بها.

بعد أن سيطر القائد الروسي فرونزي على المنطقة ألحقت أراضي قيرغيزيا بجمهورية روسيا الاتحادية أي بموسكو، وبعد مدةٍ أصبحت مقاطعة ذات استقلال ذاتي، وفي عام ١٣٥٥ أصبحت جمهوريةً اتحادية، كما أطلق على العاصمة اسم القائد الروسي الذي فرض الاستعمار على قيرغيزيا بالقوة وهو ميخائيل فرونزي.

بدأت أفواج الروس تتدفق على قيرغيزيا فأسس المستعمرون عشرين قرية روسيةً معظمها في المنطقة الشمالية المتاخمة لحدود قازاقستان وذلك عام ١٢٨٤، ثم زاد تدفق المستعمرين والتوسع نحو الجنوب فأقيمت أكثر من ستين قرية روسية في المدة ١٣٢٦ - ١٣٣٤ كان أكثر من خمسين منها في وادي فرغانة، واستمرّ تقدُّم الاستعمار نحو الجنوب حتى غطّى المنطقة.

وتناقص عدد القيرغيز إبان الاستعمار الروسي بسبب حرب الإبادة والموت جوعاً والهرب من البلاد. إذ قامت حركة في البلاد عام ١٣٣٥ قُتل خلالها مائة وخمسون ألفاً من القيرغيز. وماتت أعداد كبيرة جوعاً أثناء هربها

باتجاه الصين، وأبيد سكان القسم الشمالي جميعاً، فكان النقص أكثر من ثلث السكان.

واستمرّ تناقص السكان بعد الحكم الشيوعي نتيجة القتل والإبادة وفي الوقت نفسه زاد تدفق المستعمرين الروس إلى البلاد حتى أصبح عدد القيرغيز في منطقتهم عام ١٣٤٥ دون عدد المستعمرين الروس. واتّخذ المستعمرون سياسة توطين القبائل المتنقلة كي تسهل مراقبتها، لذا فقد صادروا الحيوانات غير أن السكان قاموا بذبح حيواناتهم ولم يُسلّموها فأثّر هذا على ضعف مستواهم المعاشي وفقرهم وتعرضهم للجوع، فلما طالب بعض زعماء القيرغيز المشاركين في الحزب الشيوعي والعاملين فيه الروس بالعمل على تحسين الأوضاع المعاشية طُردوا من الحزب، واتّهموا بالخيانة لمبادىء النظام، واختفى بعضهم، ومنهم رئيس وزراء قيرغيزيا يوسف عبدالرحمن (يوسوب عبدالرحانوف) إذ طالب بعدم تصدير الخبز قبل شبع القيرغيز فعُدّ خائناً، فأقيل من منصبه، وطُرد من الحزب، واختفى، وكذلك رزقبلوف الذي اختفى عام ١٣٥٦ بعد أن كان نائب ستالين في منصب زعيم القوميات وذلك عام ١٣٤١، ثم نائب رئيس وزراء جمهورية روسيا الاتحادية، كما قُضي على عبدالكريم صديق (صديقوف) حيث اتّهم بإفساد المزارع الجماعية. وعلى هذا نرى أنه بالإمكان أن يصل بعض المسلمين إلى مناصب عليا في الإمبراطورية الروسية ولكن لا يُوثق بهم، ويبقون تحت المراقبة، وليس بيدهم سلطة إنما يُؤدّون أعمالاً، ويقومون بواجباتهم تجاه ساداتهم الروس، فإذا بدا للسادة أن يقصوهم فعلوا ذلك بمُجرّد إشارة، أو يقضوا عليهم استطاعوا ذلك بمُجرّد كلمة.

ويُشجّع الروس العداء بين القيرغيز وسكان الصين، وقد وُضعت ملحمة تُسمّى «الماناس»، وتدور فصولها على قتالٍ دائمٍ بين القيرغيز وأهل الصين، وتُعطي عبارات التمجيد على الأبطال الذين ظهروا خلال قتالهم لسكان الصين. وقد أصبحت هذه الملحمة أكثر الكتب شعبيةً ورواجاً نتيجة التشجيع

الدائم من قبل المسؤولين الروس، وربما كان هذا بسبب البعد بين موسكو وقيرغيزيا الذي يجعل الروس يهدفون منه الى إبعاد القيرغيز عن الصين وخاصة أن القيرغيز كانوا يقومون بحركاتٍ في بلادهم ويفرّون إلى الصين. كما أن السيطرة على قيرغيزيا أمر صعب لطبيعة بلادها الجبلية وسكانها الرعاة.

يبلغ عدد سكان جمهورية قيرغيزيا الاتحادية ٣,٥٢٩,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويتألّف السكان من المجموعات التالية:

القيرغيز	ويبلغ عددهم	١,٦٨٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٤٧,٩٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	٩١٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢٥,٩٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٧٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢,٠ ٪ من السكان
الأويغور	ويبلغ عددهم	٣٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٠,٨ ٪ من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم	٢٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٠,٧ ٪ من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم	٢٣,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٠,٧٪ من السكان
		٢,٧٢٨,٠٠٠		٧٧,٤٪ من السكان

وهؤلاء جميعهم من المسلمين. أما النصارى فهم من المستعمرين الدخلاء، والأصل ألا يدخلوا في الإحصاءات والنسب ولكن نضطر أن نضعهم لأنهم أصبحوا مستوطنين، ولن يرحلوا إلا إذا حدث حادث فإنهم وقتئذٍ سيفرّون خوفاً من السيف، وهم من:

الروس	ويبلغ عددهم	٧١٢,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢٠,٣٪ من السكان
الأوكرانيين	ويبلغ عددهم	٨٩,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢,٣ ٪ من السكان
		٨٠١,٠٠٠		٢٢,٦٪ من السكان

٥ - **جمهورية طاجيكستان:** تبلغ مساحتها ١٤٣,٠٠٠ كيلومتر مربع، وهي منطقة جبلية شاهقة الارتفاع باستثناء المنطقة الجنوبية التي تقع جنوب

العاصمة (دوشنبه) حيث تكثر الأنهار التي تتجه نحو الجنوب لترفد نهر جيحون لذا تتشكّل بعض السهول، وتمتدّ الهضاب. كما تتجه أنهار نحو الشمال لترفد نهر سيحون، وتضمّ طاجيكستان جزءاً من مجرى ذلك النهر حيث توجد بعض السهول أيضاً.

تأسّست جمهورية طاجيكستان في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٤٣، ثم أضيف إليها إقليم غورنو باداخشان ذو الحكم الذاتي، ويضمّ هضبة بامير والتي تُدعى سقف العالم لارتفاعها وتوزّع الجبال منها، ويصل ارتفاعها إلى ٧٤٩٥ متراً. وقد جرى صراع عليه بين الأفغان والمستعمرين الروس، ثم بين الاستعماريين الانكليزي والروسي.

يبلغ عدد سكان جمهورية طاجيكستان الاتحادية ٣,٨٠٦,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ، ويتوزّع السكان حسب المجموعات الآتية:

الطاجيك	ويبلغ عددهم	٢,٢٣٧,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٥٨,٩٠٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	٨٧٣,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢٣,٠٠٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٨٠,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٢,٣٠ ٪ من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم	٤٨,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	١,٢٠ ٪ من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم	١٤,٠٠٠	ويُشكّلون نسبة	٠,٣٠ ٪ من السكان
		٣,٢٥٢,٠٠٠		٨٥,٧٠٪ من السكان

والطاجيك يعودون إلى أصل فارسي، ويتكلّمون لغة الطاجيك التي تعود أيضاً إلى أصلٍ فارسي، وكانت تكتب بالحرف العربي حتى عام ١٣٥٨، ثم ألزم أهلها على كتابتها بالحرف الكيريلي (الروسي)، وأما بقية العناصر فإنها تعود إلى أصل تركي، وكذلك لغاتهم. ويتكلّم سكان هضبة البامير لغةً إيرانية.

وأما من حيث العقيدة فإن الطاجيك نصفهم من المسلمين (أهل السنة

والجماعة) ويتبع النصف الآخر الشيعة، ويوجد من الإسماعلية مائة وعشرون ألفاً، وهم من أتباع آغاخان ويسكنون إقليم غورنو باداخشان.

ويستوطن بعض المستعمرين الروس طاجيكستان وهم من النصارى الأرثوذكس وهم من:

الروس	ويبلغ عددهم: ٣٩٥,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١٠,٥٪ من السكان
الأوكرانيين	ويبلغ عددهم: ٣٦,٠٠٠	ويشكّلون نسبة ١,٠ ٪ من السكان
	٤٣١,٠٠٠	١١,٥٪ من السكان

ويوجد عدد من اليهود ويبلغ عددهم ١٥,٠٠٠ ويشكّلون نسبة ٠,٤٪ من السكان.

أ - **إقليم باداخشان:** وتبلغ مساحته ٦٣,٧٠٠ كيلومتر مربع، ويسكنه ١٢٧,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٣٩٩ هـ. وهم يتوزعون على النحو الآتي: (١١٥,٠٠٠) من الطاجيك، و (٨,٥٠٠) من القيرغيز، و (١٧٨٠) من الروس، وفيه الإسماعيليون الذين ذكرناهم.



الفصل الخامس

سيبيريا

يُطلق اسم سيبيريا على الأراضي الواسعة الممتدّة شمالي قارة آسيا والواقعة بين جبال أورال غرباً والمحيط الهادي شرقاً، وبين تُركستان وجبال أواسط آسيا جنوباً والمحيط المتجمد الشمالي شمالاً، وتشمل مساحاتٍ واسعةً تقرب مساحتها من أربعة عشر مليوناً من الكيلومترات المُربعة أي ما يقرب من ثلث مساحة القارة الآسيوية أكبر قارات العالم وأوسعها.

نُلاحظ في سيبيريا ثلاث مناطق مُتميّزة بين الغرب والشرق وهي:

١ - منطقة سهلية في الغرب تمتدّ من جبال أورال في الغرب حتى منطقة الهضاب في الشرق ويجري فيها نهر أوبي وروافده، ونهر ينيسي وما يصب فيه، وتتجه هذه الأنهار من الجنوب من مرتفعات قازاقستان وجبال آسيا الوسطى إلى الشمال، وتتجمّد في فصل الشتاء القارس فإذا جاء الربيع فاضت مياهها وخرجت من مجاريها وشكّلت كثيراً من المستنقعات. ٢ - منطقة هضابية في الوسط بين مجرى نهر ينيسي ومجرى نهر لينا. ٣ - منطقة جبلية في الشرق تنتهي عند ساحل المحيط الهادي وتُشكّل جُزراً وأشباه جزر.

كما نُلاحظ في سيبيريا ثلاث مناطق متميّزة بين الجنوب والشمال.

١ - منطقة سهبية في الجنوب تميل إلى الدفء، وتنحصر في الغرب لانخفاض المنطقة على حين تكون باردة في الوسط والشرق لامتداد الهضاب والجبال،

وهذه المنطقة السهبية هي القابلة للنشاط البشري. ٢ - منطقة غابية في الوسط تشغلها الغابات المخروطية والمختلطة. ٣ - منطقة صحراوية باردة في الشمال تتنقل فيها مجموعات قليلة العدد، تعود في أصولها الى العرق الأصفر، وتعيش على أساليب بدائية.

وقد رأينا أن مغول الشمال (القبيلة الذهبية) قد دخلوا جنوب غربي سيبيريا واستوطنوا فيها، وهي المنطقة القابلة للنشاط البشري - كما ذكرنا - وأقاموا فيها إمارةً محلية، واتخذوا قاعدةً لهم بنوها على مجرى نهر أرتيش رافد نهر أوبي، وأطلقوا عليها اسم «سيبير»، ولما ضعُف أمرهم في أواخر القرن العاشر على حين قوي أمر الروس، تقدّم الروس إلى إمارتهم وأخضعوها كما أخضعوا أخواتها الإمارات التتارية في حوض نهر الفولغا - والأورال، وهي بالأساس ليست سوى جزء منها. وأراضيها ليست إلا امتداداً وتتمة لأراضيهم وإماراتهم. وعدّ الروس أنفسهم مُلاّك هذه المناطق، وعدّوها مستعمراتٍ لهم. وعدّوا المناطق الشرقية لها والشمالية منها كلها تابعةً لها وبالتالي مُلكاً لهم، وأطلقوا اسم العاصمة «سيبير» على تلك الأجزاء كلها ومنذ ذلك الحين أصبح يُطلق عليها اسم سيبيريا، وعدّوها كلها تتبع موسكو وترتبط بها، وقد استثمروا ما أمكن استثماره من الأرض واستغلّوا العباد واستعبدوهم وأذاقوهم مرّ العذاب، واستمرّت هذه المنطقة تتبع روسيا وتعدّ مستعمرةً لها حتى هذا اليوم، وترتبط بموسكو.

ولا يمكننا أن نقتصر أبداً على المنطقة الجنوبية الغربية من سيبيريا ونقول: إن التتار المسلمين يعيشون في هذا الجزء من سيبيريا ونغفل باقي الأجزاء. فالروس هم الذين ألحقوا بقية أنحاء سيبيريا بهذا القسم، وأطلقوا عليها اسم قاعدته. كما علينا ان نُلاحظ المشرّدين من بلادهم الذين ينتقلون في تلك الجهات يعملون في قطع الغابة والأشغال الشاقة، كما يجب ألا نُهمل أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بدعوة من المُشرّدين الذين يلتقون أثناء نفيهم بالذين



يتنقلون هناك من رعاةٍ وجماعاتٍ بدائيةٍ ويحدثونهم عن ظُلم الروس فيُقبلون على الإسلام ، وإن كثيراً من المراقبين السياسيين ليقولون إن الجماعات البدائية كلها والتي تعيش في شمالي سيبيريا قد تحوّلت إلى الاسلام ولكن لا تستطيع أن تُعلن ذلك أو تظهر وبالتالي لا تستطيع أن تُؤدي شعائرها وإنما يُعرف ذلك من بداية امتناعهم عن تناول لحم الخنزير ، وعدم تعاطيهم الخمر ، وختان أطفالهم ، فإذا صحّ ذلك فإن أكثر سكان سيبيريا إنما هم من المسلمين الذين يخفون إيمانهم ولا يستطيعون الجهر به ، ولجهلهم وخوفهم من بطش المستعمرين فإنهم لا يُؤدّون شعائره .

ومن المعلوم أن المنفيين لا تخلو منهم تلك المجاهل وإذا كنا نعلم الآن وجود تتار القرم هناك من خمسة وأربعين عاماً ، ومن قبل كان الشاشان ، وكان البلكار ، وهؤلاء لهم صفة الشعب المنفي كاملاً ، أما المجموعات الصغيرة والأفراد فلا يخلو منها وقت ولا يدري بها أحد . ونحن نعلم أن الإنسان المشرّد المظلوم يكون أكثر جُرأةً في الحديث ، وأكثر تأثيراً على الآخرين لما يُبديه من وجهة نظره ، ولو كانت من طرفٍ واحدٍ ، وأكثر حُرقةً في كلامه ، وأن الذي يحسّ بالظلم الدائم يتجاوب معه الآخرون ويستجيبون له ، ويُستمع منه ، ويُسايره الناس عطفاً عليه وإنسانيةً فما يرى المستمعون أنفسهم إلاّ وقد غدوا مُسلمين .

وإذا كانت أكثر التجمعات الإسلامية تتجمع وتتركّز في الجنوب الغربي من سيبيريا إلاّ أنه لا تخلو منها مدينة ولا تفتقدها تلك المجاهل ، بل إن المجاهل قد تكون مقتصرةً على المسلمين الذين يقضون عقوباتٍ فرضها عليهم الروس ، وهناك يعيشون في شبه خلوةٍ بعيدين عن أعين السلطة الشيوعية المستعمرة فيُؤدّون عباداتهم ويعودون ـ إن قدر الله لهم العودة ـ إلى أماكنهم وقد ازدادوا حماسةً لدينهم ورغبةً في الدعوة إليه بعد أن استهانوا النفي وعاشوا في المجاهل يقومون بالأشغال الشاقة .

ويعيش عدة ملايين من المسلمين في سيبيريا الغربية، ولعلّ أكبر تجمعاتهم في:

تشيليابينسك	وفيها	٢٢٠,٠٠٠	نوفوسيبيرسك	٣٠,٠٠٠
سفردلوفسك	وفيها	١٨٠,٠٠٠	كورغان	٢٥,٠٠٠
تيومن	وفيها	١٤٠,٠٠٠	منطقة باريا	١٠٠,٠٠٠
أومسك	وفيها	٥٠,٠٠٠		

ويقطن سيبيريا عامة ما يزيد على اثني عشر مليوناً ويُقدّر عدد المسلمين بينهم بثلاثة ملايين أي يُشكّلون ما يعادل ٢٥ ٪ من عدد السكانّ، والغالبية من المستعمرين الروس.

ونتيجة تأسيس الإمبراطورية الروسية على هذا النحو، فإن أعداداً من المسلمين يُقيمون في المدن الروسية للعمل وغيره، كما يجب ألا ننسى أن التتار كانوا يحكمون الأجزاء الروسية الأصلية، ومنطقة بحر البلطيق ولهذين السببين نرى بعض التجمّعات الإسلامية في بلاد الروس منها:

يعيش في	موسكو	١٥٠,٠٠٠	مسلم.
	لينينغراد	٦٠,٠٠٠	مسلم.
	استراخان	١٠٠,٠٠٠	مسلم، والأصل فيها منطقة إسلامية وحاضرة إمارة تتارية مسلمة.
	كيروف	١٠٠,٠٠٠	مسلم.
	ساراتوف	٥٠,٠٠٠	مسلم. والأصل فيها منطقة إسلامية وحاضرة الدولة التتارية المسلمة.
	بنزا	٨٠,٠٠٠	مسلم.
	كويبيشيف	١٦٠,٠٠٠	مسلم. والأصل فيها أنها ضمن المنطقة الإسلامية في حوض نهر الڤولغا.

غوركي	٧٠,٠٠٠	مسلم.
اليانوفسك	١٣٥,٠٠٠	مسلم.
أركانجلسك	٦,٠٠٠	مسلم.
مولدافيا	٢٥٠,٠٠٠	مسلم.
في حوض الدونتز	٩٠,٠٠٠	مسلم.
ليتوانيا	٦,٠٠٠	مسلم.

وهذه الأرقام حسب الإحصاءات الروسية لعام ١٣٩٩ هـ، ولا يوثق بها فالأعداد أكبر من هذا - والله أعلم -.



الباب الخامس

اقتصاديات الأقاليم الإسلامية في الأمبراطورية الروسية

لا أريد هنا أن أبحث في اقتصاديات الأقاليم الإسلامية الخاضعة للاستعمار الروسي بشكلٍ مُفصّل فليس هنا موضع هذا البحث، وإنما أريد أن أبين أهمية هذه الأقاليم الاقتصادية إذ هي تُضيف عاملاً من عوامل تمسُّك الروس بها والعمل على إبقائها في حوزتهم وتحت سلطانهم، إذ تُعدّ شرياناً من شرايين حياتهم التي تمدّهم بالتغذية اللازمة لهم كي تسري فيهم الروح وتنبض فيهم الحيوية لإمكانية التطاول على بقية الأمم ومنافسة من يتصدّى لهم أو ينازعهم على زعامة العالم.

إن إمداد هذه الأقاليم الإسلامية للروس بعنصر الحياة لا يأتي من جانبٍ واحدٍ وإنما من جوانب الاقتصاد كافةً، للموقع دوره، وللرعي شأنه، وللزراعة أهميتها، وللطاقة أثرها الكبير، وللثروة المعدنية واستثمارها الخطر البيّن، وهذا أساس حياة الدول، ومنه تستمدّ قوتها، وبه تُصارع خصومها، وتتنافس الأمم لتأمينه والحصول عليه.

وقد وقعت هذه الأقاليم في قبضة الروس، فعدّوا ذلك فرصةً سانحةً للاحتفاظ بها، وعملوا جهدهم للإبقاء عليها فإلى جانب ممارسة الضغط واصطناع الرفاق قبضوا على شرايين الحياة بأيديهم ولم يسمحوا لها بإمداد سكان هذه الأقاليم بوسائل الحياة إلا بمقدار ما يحول بينهم وبين الموت ليبقوا

ساكتين، تُؤخذ خيرات بلادهم دون إمكانية الدفاع عنها، وتُسلب حرياتهم من غير سبيل للمطالبة بها، ويقومون بالأعمال النافعة لمغتصبيهم مُكرهين، وفي الوقت نفسه لا يُمكنهم الاستغاثة أو الاسترحام أو طلب يد الرحمة من أحدٍ من العالمين فهم بيد خُصومٍ مُجرمين والعالم بعد ذلك، إما طُغاة حاقدون يدعمون المجرمين وإما إخوة نائمون توزّعتهم أفكار الأعداء فهم بين مُشرق ومُغرّب ومن رحم الله يغطّ في نومه لم تُوقظه آهات البائسين ولا تمرّد الطغاة المستعمرين، وهو ينتظر تغيُّر ما في النفوس وإيقاظ الهمم ومجيء نصر الله بعدئذٍ.

الفَصْل الأوّل

المَوقـــع

تقع بلاد الروس الأصلية في المناطق الشمالية شمال خط العرض ٤٨ شمالاً أي في المنطقة الباردة فهي لا تُنتج إلا محصولات منطقةٍ معينةٍ هي الباردة، وتُحرم من منتجات كثيرٍ مما تُقدمه جهات ثانية وخاصة تلك الثمار والفواكه التي تأخذ حلاوة مذاقها من أشعة الشمس الدافئة وهذا ما لا تعرفه بلاد الروس.

ومما يزيد في برودتها أو بتعبيرٍ أدق في قاريتها موقعها في شرقي القارة بعيدة عن التيارات الدافئة التي تصل إلى سواحل غربي القارة وتُساير شواطئها فتنشر الدفء هناك أو تضفي الجو اللطيف على تلك الأجزاء، وتحول دون تجمّد المياه في الخلجان والسواحل التي تصل إليها حتى ولو كانت على عروض أعلى من العروض التي تقع عليها بعض الشواطئ، التي تشرف عليها الأرض الروسية مثل بحر البلطيق وخليج فنلندا. ولذا كانت بلاد الروس حبيسةً تُشرف على بحارٍ تتجمّد أكثر أيام العام فلا يُمكنها التحرّك في بحار العالم كبقية دول الأرض، ولا يستطيع أهلها التجوال عبر المحيطات كسائر الأمم، ولا تتمكّن أساطيلها الانتقال في المياه كغيرها من الأساطيل بل لا تملك أساساً أسطولاً. فأين المرافئ، الحرّة التي يُبنى فيها؟ وأين المياه الدافئة التي يمخرها؟ لذا فأول ما فكّر فيه الروس عندما قوي أمرهم التوجّه نحو الجنوب للوصول الى المياه الدافئة ليتحرّروا من الموقع الذي قيّدهم، وليتفلّتوا من البقعة التي حبستهم.

وليتخلّصوا من عقدة النقص التي أورثهم إياها مكان أرضهم، وليستعمروا
كما استعمر غيرهم، وفي الوقت نفسه يكونون قد حقّقوا هدفهم في السيطرة
على المضائق العثمانية ووضعوا يدهم على استانبول، وانتصروا على المسلمين،
وأفرغوا شيئاً من حقدهم الصليبي غير أن ذلك لم يتحقق لوقوف بقية
المستعمرين الصليبيين في وجههم حرصاً على مصالحهم وخوفاً على
مستعمراتهم، ولا يزال هذا هدفاً سامياً عندهم يسعون إليه، رغم انغلاقهم
من عدة جهاتٍ في المحيطات، وبناء الأساطيل والسفن الكبيرة وتحركها في
البحار كافةً لحرية التجارة والملاحة البحرية.

ولما حال المستعمرون الغربيون بين الروس وبين وصولهم إلى المياه الدافئة
عن طريق البحر الأسود اتّجه الروس نحو استعمار المناطق الشرقية فوقعت
سيبيريا في قبضتهم، وظفروا في تركستان، وأخذوا بلاد القفقاس، وإذا
كانوا قد حصلوا على زاويةٍ بحريةٍ في أقصى الجنوب الشرقي من سيبيريا
تُشرف على المياه الحرّة في بحر اليابان، وأقاموا لهم ميناء (فلاديفستوك) إلا
أن هذا لم يكن ليكفيهم لبُعد ذلك الميناء، وطول الطريق بينه وبين بلاد
الروس الأصلية أو المناطق ذات الإنتاج الصناعي، وذات الاستهلاك، ومع
أنهم قد مدّوا السكك الحديدية بين مناطق الإنتاج في الغرب وبين ذلك الميناء
في الشرق رغم طول المسافة وصعوبة العمل غير أن ذلك لم يكن ليعوّضهم عن
المياه الحرّة الدافئة في الغرب أو الجنوب لذا كانوا يُحاولون الوصول إليها في
الغرب عن طريق الالتفاف حول تركيا وشجّعهم على ذلك استعمارهم لبلاد
القفقاس، وهذا ما جعل للعراق وسوريا أهميةً خاصةً لتحقيق هذا الهدف
الذي ما فتئوا يسعون وراءه ويلهثون خلفه لتحقيقه، ويغتنمون كل فرصةٍ لمدّ
رأسهم في تلك الجهة أو للتقدّم ولو خطوةً صغيرةً في هذا الاتجاه.

وفي الوقت نفسه كان الروس يُحاولون التقدّم نحو الجنوب بعد أن
استعمروا تركستان وعن طريقها للوصول إلى مياه المحيط الهندي غير أنهم قد

اصطدموا بالاستعمار الانكليزي وتمّ الصدام بينهما أحياناً بالمناوشة وأحياناً
بالمناورة والمراوغة وقد تكون بالسياسة والمنافسة، وذلك عبر أراضي إيران أو
في بلاد أفغانستان وفشل الروس في تحقيق هدفهم عن هذا الطريق أو أن
كلاهما قد فشل، هذا في تقدّمه نحو الجنوب، وذاك في تحرّكه نحو الشمال
لوقوف كل منهما في وجه الآخر، غير أن الروس لم يتخلّوا عن وجهتهم هذا
واستمرّوا يسعون وراء تحقيق هدفهم عن هذه الجهة كلما بدت لهم بارقة أمل
في تنفيذ مآربهم، وما دخولهم أفغانستان عام ١٣٩٩ إلا محاولةً من هذه
المحاولات ولكن طرح فكرة الجهاد لدى شعب أفغانستان المسلم قد خيّب
آمالهم أو سيُخيّبها - إن شاء الله -.

ومما يزيد الأرض الروسية قارية بُعدها إلى الداخل الأمر الذي يحول
دون وصول الرياح الطيبة البحرية الغربية الدافئة التي تحمل معها الدفء
والغيث وهذا ما يزيد في بردها، ويُخفّف من غزارة مطرها، ويُقلّل من شأن
زراعتها الأمر الذي يجعلها بحاجة إلى الكثير غير أن الطرق مغلقة في وجهها،
وتُحاول أن تجد حاجتها في منتجاتها فلا تُسعفها الظروف المُناخية، وتجد في
الأقاليم الإسلامية الدافئة التي تُسيطر عليها ما يسدّ بعض احتياجاتها أو
أكثرها لذا فهي تتمسك بها وتحاول استنباتها أكثر الأنواع التي هي بحاجة
إليها أو ما يُشبهها.

الفصل الثاني
الرعي والثروة الحيوانية

إن الأرض الروسية الأصلية تضيق بسكانها لكثرتهم لذا فإن استثمار الأرض واستغلالها يكون حثيثاً حيث لا توجد مناطق شاسعة دون استثمار ترعى فيها الحيوانات أو مخصصة للرعي إلا في مساحاتٍ محدودةٍ، وإذا أضفنا إلى ذلك المناطق الشمالية الشديدة البرد التي لا تصلح أيضاً لتربية الحيوانات، لهذا كله كان الروس بحاجةٍ إلى ثروة حيوانيةٍ لاستهلاكهم على الأقلّ وهو غير متوفّر لهم، وبحاجةٍ قبل ذلك إلى مراعٍ لتربية تلك الحيوانات وهذا غير مؤمّن أيضاً، ولكنه متوفّر على نطاقٍ واسعٍ في الأقاليم الإسلامية التي تخضع لاستعمار الروس، وهذا بالاصل ما كان من عوامل اندفاع الروس نحو تلك الأقاليم وإخضاعها لسيطرتهم واستعمارها.

إن الأقاليم الإسلامية الخاضعة للاستعمار الروسي ذات مساحاتٍ واسعة تزيد على ثلث مساحة الإمبراطورية الروسية. وهي قليلة السكان الأمر الذي يُساعد على إمكانية وجود مراعٍ كافيةٍ، وهي ذات سهوبٍ واسعة صالحة للرعي، إذ أن قازاقستان أكثرها سهبية، وتقرب مساحتها من مساحة جزيرة العرب إذ تبلغ (٢,٧١٧,٣٠٠ كيلومتر مربع) كما أن أكبر مساحات كل من أوزبكستان (٤٠٨,٠٠٠ كيلومتر مربع) وتركمانستان (٤٤٥,٠٠٠ كيلومتر مربع) إنما هي سهوب، هذا بالإضافة إلى صحراء القفجاق (شمالي القفقاس)، وأطراف حوض نهر الفولغا تُعدّ كلها سهوبيةً، مع سهول سيبيريا

الغربية، وهذا ما يصلح لتربية الأغنام كما أن الواحات سواء أكانت المنفردة أم المستمرة المُشكّلة على طول مجاري الأنهار تصلح لتربية الأبقار.

وهناك الأراضي الجبلية في الأورال، وطاجيكستان، وقيرغيزيا، وضهرة قازاقستان، وبلاد القفقاس حيث نجد المراعي الصالحة لتربية الأغنام على السفوح إضافةً إلى الماعز، ومما يُلاحظ أن القيرغيز يُربّون الخيل على شكل قطعان وينتقلون وراءها، ويستفيدون من لحمها، كما أن المجموعات الشركسية تشتهر أيضاً بتربية الخيل ولكن من أجل الركوب وأعمال الفروسية.

لذا ليس غريباً إذا قلنا: إن معظم الثروة الحيوانية في الإمبراطورية إنما هو من الأقاليم الإسلامية فيها، وفي طليعتها قازاقستان التي تقدّم وحدها ثلاثين مليون رأس من الأغنام وهو ما يزيد على ربع أغنام الإمبراطورية ويُعادل ١/١٨ من الأغنام في العالم. كما تُربي قازاقستان ٦ ملايين رأس من الأبقار ويمكن ملاحظة الجدول الآتي:

قازاقستان	٣٠,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
أوزبكستان	٩,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
قيرغيزيا	٧,٠٠٠,٠٠٠	رأس غنم.
طاجيكستان	٢,٣٥٠,٠٠٠	رأس غنم.
تركمانستان	٢,١٠٠,٠٠٠	رأس غنم.

أما الأبقار فتُربّى في:

قازاقستان	٦,٠٠٠,٠٠٠	رأس بقر.
أوزبكستان	٢,٤٠٠,٠٠٠	رأس بقر.

وتشتهر تُركمانستان بتربية الماعز إذ نجد فيها ٤,٠٠٠,٠٠٠ رأس منه.

وتشتهر كل من باشكيريا وداغستان بتربية الأغنام والماعز والأبقار، كما لا تخلو بقية الأقاليم من العناية بالحيوانات عامةً.

ولكثرة الظلم الذي مارسه الروس ولشدّة الضغط التي عاملوا بها المسلمين قام المسلمون بحركاتٍ ضدّ المستعمرين، ووجد الروس صعوبةً في القضاء على هذه الحركات، كما لاقوا عناءً في مراقبة السكان بسبب انتقال القبائل فاقتنعوا أن أفضل طريقةٍ لمراقبة القبائل وتحرك رجالها إنما يكون بفرض الاستقرار عليها، فادّعوا أنهم سيتّبعون سياسة التحضير التي يُقصد منها خدمة الأهالي والأخذ بأيديهم نحو الحضارة غير أن الشعب كان يرفض كل ما يأتي عن طريق الروس لأنه قد خبرهم حيث أصبح يعرف أنهم لا يمكنهم ان يتّبعوا سياسة أو طريقاً إلا وفيه إذلال المسلمين والتمكّن منهم لذا فقد قابل السكان هذه السياسة الجديدة بالمقاومة فقرّرت السلطات الاستعمارية مصادرة حيوانات القبائل لتجبرهم على الاستقرار، فذبحت القبائل ما تملك من حيوانات وفضّلت ذلك على تسليمها للمستعمرين فكان أن قلّ عدد الحيوانات، وانخفض المستوى المعاشي للسكان الذين اعتادوا الارتحال. وبعد مدةٍ عادت تربية الحيوانات إلى سابق عهدها وبدأت تزداد أعدادها لأن السكان لا يمكنهم الاستغناء عنها.

الفصل الثالث

الموارد الزراعية

قلنا إن الأرض الروسية الأصلية باردة فهي لا تُنتج إلا أصنافاً محدودة فيحتاج أهلها أنواعاً كثيرةً مما تُنبته البلدان الدافئة والحارة والمعتدلة فلما استعمر الروس الأقاليم الإسلامية حاولوا استغلالها واستعباد أهلها بكل ما أوتوا من وسيلةٍ، وكانت هذه الوسائل تتطوّر مع الزمن، وقد بذل المستعمرون جهوداً كبيرةً من زراعة هذه الأقاليم وإنتاجها والحصول على خيراتها، وأقاموا مشروعاتٍ ضخمةٍ في سبيل الحصول على هذه الغاية أولاً.

لقد أقاموا كثيراً من السدود على الأنهار من أجل الريّ وتوسيع الرقعة الزراعية، ووصلوا الأنهار بعضها مع بعضٍ بقنواتٍ للغاية نفسها، ومدّوا شبكات الريّ، وأصلحوا الأرض إذ جفّفوا المستنقعات، ولعلّ من المشروعات البارزة: السدود التي أُقيمت على نهر الفولغا ورافده نهر كاما حيث تشكّلت بحيرات واسعة، والسدود التي أُقيمت على نهر سيحون. وقناة تركمانيا المعروفة بقناة «غلوخوفسكي» التي فُتحت عام ١٣٧٠، ويبلغ طولها ما يقرب من ألف كيلومتر (٩٦٥ كيلومتر) وتصل بين نهر جيحون الأدنى وبين بحر قزوين عند ميناء «كرازنوفودسك»، ويُستفاد منها في الريّ وفي توليد الطاقة الكهربائية، وقناة «قره قورم» في بلاد التركمان أيضاً، وتصل بين نهر جيحون ونهري «مورغاب» و«تادزهن»، ثم تستمر لتصل إلى نهاية النهيرات المنسابة على مرتفعات شمالي إيران والواقع أن هناك مشروعات

ضخمة كثيرة، ولسنا الآن في مجال بحثها وإنما إلى الإشارة إليها.

ويجب أن نعرف أن الفائدة من هذه المشروعات كلها لا تعود أبداً إلى السكان المسلمين أهل البلاد الأصليين وإنما إلى المستعمرين الروس، إذ مرّ معنا أن أحسن الأراضي قد استولى عليها الروس، وأن المشروعات قد قامت لخدمة هؤلاء، ولمصلحتهم وخاصة في حوض نهر الفولغا، وقازاقستان، ومنطقة طاشقند، وانه عندما يتم استصلاح الأرض إنما تُعطى بادىء ذي بدء إلى الروس، وعندما تُفتح القنوات أو قبل ذلك عندما تبدأ دراسة المشروع تأخذ أفواج المستعمرين بالتدفق نحو أرض المشروع لتأخذ نصيبها، فيأتي المشرفون والمسؤولون ويُوزعون قطع الأراضي المستصلحة والتي تستفيد من القنوات على الروس، وأبناء البلاد ينظرون وقلوبهم تتفطّر دون أن ينالهم شيء. ويُضاف إلى هذا أن جميع الذين يعملون بالمشروع من ناحية الإشراف والإدارة إنما هم من الروس، ولهم وظيفة أخرى هي مراقبة السكان، أما الذين يقومون بأعمال الحفر والجهد بل والأشغال الشاقة والحقيرة إنما هم من أبناء البلد الأصليين.

ونستطيع أن نقول: إن أكثر المحصولات الزراعية في الإمبراطورية الروسية إنما تأتي من الأقاليم الإسلامية الخاضعة لها، ولعلّه من المفيد ذكر بعض هذه المحصولات.

١ - **القمح**: وتُنتج الأقاليم الإسلامية ما يقرب من نصف الإنتاج في الإمبراطورية الروسية، وأهم مناطقه:

قازاقستان وتُعطي ١٢,٥٠٠,٠٠٠ طن
قيرغيزيا وتُعطي ٣٥٠,٠٠٠ طن
أوزبكستان وتُعطي ٣٠٠,٠٠٠ طن
طاجيكستان وتُعطي ١٤٦,٠٠٠ طن
تركمانستان وتُعطي ٧٠,٠٠٠ طن

أذربيجان وتُعطي ٥٠٠,٠٠٠ طن

١٣,٨٦٦,٠٠٠ طن

وهذا ما تُنتجه الجمهوريات الاتحادية، أما الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتي فيُعطى إنتاجها ضمن إنتاج الجمهورية الاتحادية التي تتبعها ولكن نعرف أن إنتاج سيبيريا الغربية يكاد يقترب من إنتاج قازاقستان هذا إضافةً إلى حوض نهر الفولغا وبلاد القفقاس، ويكون عموم إنتاج الأقاليم الإسلامية أكثر من ثلاثين مليون طن على حين أن إنتاج الإمبراطورية الروسية لا يزيد في هذه الأيام على ستين مليون طن.

إن إنتاج الإمبراطورية الروسية من القمح لا يسدّ إلاّ جزءاً من الاستهلاك لذا فهي تضطر إلى الاستيراد وتأخذ كمياتٍ من الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها، مع العلم أن الإمبراطورية الروسية كانت تُصدّر القمح أيام الحكم القيصري فماذا حدث؟ إن النظام الشيوعي ومصادرة الأرض وجعل أصحابها عمالاً فيها قد قلّل من الإنتاج لأن الذي يعمل لنفسه غير الذي يعمل إلى سواه في الجهد والعطاء لذا فقد انخفض الإنتاج رغم زيادة مساحات الأرض التي أصبحت تزرع قمحاً، وتطوّر وسائل وأساليب الإنتاج، وتطبيق العلم على العمل، واستعمال كل الأسمدة والمُخصّبات إلاّ أن ذلك لم يفد شيئاً، وحاول الروس التشجيع وتنازلوا عن بعض مبادئهم في السماح بتملّك مساحاتٍ صغيرةٍ فلم يغنهم ذلك فالقضية نفسية وليست عضلية.

٢ - **الذرة**: وتقدم الأقاليم الإسلامية كميات كبيرة من الذرة وأهم مناطقها:

قيرغيزيا وتعطي ٢٥٠,٠٠٠ طن
أذربيجان وتُعطي ١٢٠,٠٠٠ طن

طاجيكستان	وتُعطي	٥٠,٠٠٠ طن
تُركمانستان	وتُعطي	٣٠,٠٠٠ طن
أوزبكستان	وتُعطي	٢٥٠,٠٠٠ طن
		٧٠٠,٠٠٠ طن

وهو إنتاج الجمهوريات الاتحادية الإسلامية. ولا إحصاء لبقية الأقاليم إذ انها مُدمجة مع إنتاج الإمبراطورية الروسية الذي يُقدّر بعشرين مليون طن، وتحتلّ المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية التي تُقدّم تسعين مليون طن.

٣ - **الشوندر السكري:** وتحتلّ الامبراطورية الروسية المرتبة الأولى في العالم بهذا المحصول بإنتاج يُقدّر بخمسة وسبعين مليون طن، وتُقدّم الأقاليم الإسلامية كمياتٍ كبيرةً منها، وأشهر مناطق الإنتاج:

قازاقستان	وتعطي	٢,٠٠٠,٠٠٠ طن
قيرغيزيا	وتعطي	١,٩٥٠,٠٠٠ طن

٤ - **القطن:** وتحتلّ الامبراطورية الروسية المرتبة الأولى في العالم بإنتاج القطن، والذي يأتي كلّه تقريباً من الأقاليم الإسلامية، وأهم مناطقه:

أوزبكستان	٣,٠٠٠,٠٠٠ طن.
تُركمانستان	٥٤٠,٠٠٠ طن.
طاجيكستان	٥٠٠,٠٠٠ طن.
قيرغيزيا	٢٨٠,٠٠٠ طن.
أذربيجان	٢٨٠,٠٠٠ طن.
	٤,٦٠٠,٠٠٠ طن

وهو إنتاج الجمهوريات الاتحادية ذات الأكثرية المسلمة دون بقية الأقاليم. مع العلم أن إنتاج كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية والصين لا يزيد على

ثلاثة ملايين طن من القطن، أي ما يُعادل إنتاج أوزبكستان وحدها.

هذه نماذج من منتجات الأقاليم الإسلامية، ويمكن أن نضيف لها الفواكه في شبه جزيرة القرم، وبلاد القفقاس، وجنوبي تركستان، وقيرغيزيا، وباشكيريا.

ولما كانت منتجات البلاد الحارة لا تُنتج في كل أراضي الإمبراطورية الروسية لذا فإن المسؤولين يعملون لاستنبات بعضها في الأقاليم الإسلامية للاكتفاء المحلي على الأقلّ، وكمثال على ذلك، شجيرات الشاي التي أصبحت تزرع على سفوح جبال القفقاس المتجهة نحو البحر الأسود، ونبات الساغيز الذي يُستخرج منه بعض أنواع المطاط الذي يُزرع في جنوبي تركستان.

ولا بدّ أخيراً من التنبيه إلى أهمية الغابة المخروطية والمختلطة في سيبيريا وما تُقدّمه من كمياتٍ كبيرةٍ من الأخشاب.



الفصل الرابع

الطاقة

ليست الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية بأقلّ شأناً في الطاقة منها في الموارد الزراعية، إذ نُلاحظ أن معظم الإنتاج الروسي من النفط إنما يأتي من الأقاليم الإسلامية، وتُعدّ منطقة بحر قزوين ثاني منطقةٍ في العالم باحتياطي النفط بعد منطقة الخليج العربي، ولعلّ أشهر هذه المناطق:

أ - حوض باكو في شبه جزيرة أبشيرون في جمهورية أذربيجان الاتحادية، وقد حفر أول بئر هناك عام ١٢٨٨ هـ، وتُرسل كميات كبيرة من هذا الحوض إلى مدينة استراخان على نهر الفولغا قبيل مصبه في البحر وذلك عبر مياه بحر قزوين. كما يمتدّ خطّان من باكو إلى باطوم على البحر الأسود لنقل النفط.

٢ - حوض بنيت داغ في جمهورية تُركمانستان الاتحادية على الطرف الثاني من بحر قزوين.

٣ - حوض شمالي داغستان قرب مدينة محج قلعة عاصمة جمهورية داغستان ذات الاستقلال الذاتي.

٤ - حوض شمالي شاشان - أنغوشيا وأشهر مكامنه قرب غروزني عاصمة جمهورية شاشان - أنغوشيا ذات الاستقلال الذاتي، ويُعدّ هذا الحوض تتمةً لسابقه.

٥ - حوض مايكوب عاصمة مقاطعة الأديغة ذات الاستقلال الذاتي، وهو تتمة الحوضين السابقين إذ تقع كلها شمال جبال القفقاس، كما يتمم حوض مايكوب في الغرب حوض شبه جزيرة كيرتش في شبه جزيرة القرم.

٦ - حوض نهر (إمبا) في شمال شرقي بحر قزوين، ويصبّ هذا النهر في بحر قزوين، ويجري في أراضي جمهورية قازاقستان الاتحادية.

ويُضاف إلى هذه الأحواض حوض نهر كاما الذي يرفد نهر الفولغا، ويقع في جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي وتمتدّ هذه الأحواض التي تُعرف باسم أحواض الأورال - الفولغا من برم (مولوتوف) في الشمال حتى أورنبرغ (شكالوف) في الجنوب، ومن غرب نهر كاما حتى مدينة كويبشيف في الجنوب على نهر الفولغا، بل وتستمرّ نحو الجنوب على ضفة النهر اليمنى حتى مدينة فولغوغراد (ستالينغراد).

ولما كان أكثر إنتاج الإمبراطورية الروسية من النفط إنما يأتي من الأقاليم الإسلامية لذا فإن التنقيب عنه قد لعب دوره، ودُرست الأرض جيولوجياً بشكلٍ جيدٍ وأدّى ذلك إلى معرفة ثرواتها الدفينة، ولم تترك ضمن الاحتياطي، وبسبب هذا الإنتاج فقد ارتفعت مرتبة الإمبراطورية الروسية من إنتاج النفط واحتلّت المرتبة الأولى في العالم إذ تفوقت على الولايات المتحدة بإنتاج قدره ٥٧٠ مليون طن عام ١٩٧٨ م (١٣٩٨ هـ).

وإذا كان الفحم الحجري لم يبلغ المستوى الذي وصل إليه النفط في الأقاليم الإسلامية، إلا أنّ إنتاجها لا يُعدّ قليلاً، وتُقدّم هذه الأقاليم كمياتٍ لا بأس بها من عددٍ من المناطق ولعلّ أهمها:

١ - قازاقستان: وتنتج أربعين مليون طن، ويُعَدُّ حوض كاراغندة أهم أحواضها، وقد جُهّز بأحدث الآلات، ويبلغ عدد العروق الفحمية فيه الثلاثين عرقاً، ويتراوح سمك الطبقة الواحدة بين ٨ - ١٠ أمتار.

ويُعدّ فحم هذا الحوض أساس الصناعة في قازاقستان. ويُنقل الفحم منه إلى جنوبي الأورال. كما توجد بعض الأحواض الصغيرة على بحيرة «بالخاش».

٢ - أوزبكستان: وتوجد أحواض الفحم بالقرب من العاصمة طاشقند، ويُقدّر الإنتاج بسبعة ملايين طن.

٣ - قيرغيزيا: وتُقدّم ما يزيد على ستة ملايين طن، وربما تطوّر الإنتاج بشكلٍ سريع.

٤ - طاجيكستان: وتُقدّم ما يزيد على مليوني طن.

٥ - باشكيريا: وتشتهر مناطق الأورال بالفحم كما تشتهر بالثروة المعدنية الهائلة وبالنفط، وتُعطي جمهورية باشكيريا ذات الاستقلال الذاتي ما يربو على أربعة ملايين طن.

٦ - سيبيريا: ونُلاحظ أن الجزء الغربي منها إنما هو من بلاد المسلمين، ويقع حوض الكوزباس الشهير على أطرافها الشرقية، وهو معروف بضخامة احتياطيه وتنوّع خاماته وجودتها، ويُقدم ما يزيد على ١٥٠ مليون طن من الفحم سنوياً غير أن ذخره يُمكن أن يُعطي أرقاماً كبيرة إذا ما وُجّهت العناية إليه.

وتولّد الطاقة الكهربائية من النفط ومن الفحم، كما تُؤخذ من المياه حيث نجد سدوداً ضخمة مثل:

١ - سد منجيشار: في أذربيجان على نهر كورا، ويبلغ ارتفاعه سبعين متراً، ويُزوّد منطقة باكو بالكهرباء، وتبلغ طاقة المحطة الكهربائية ٣٦٠ مليون كيلوواط، وقد تحوّلت المنطقة إلى منطقة صناعية لوجود هذه الطاقة.

٢ - سد كيرام كوم: في طاجيكستان على نهر سيحون، ويقع إلى الشرق من مدينة لينيناباد، وقد بُدىء بالعمل به عام ١٣٧٧ هـ، ويُشكل

السد خلفه بحيرة واسعة، ويُستفاد من هذا المشروع في جمهوريتي طاجيكستان وأوزبكستان.

٣ ـ سد نوريك: في طاجيكستان أيضاً على نهر الأحمر (فخش) جنوب شرقي العاصمة (دوشنبة) ويحجز السد خلفه بحيرة تستوعب كمية عشرة ملايين كيلومتر مكعب من الماء، وتقدر طاقة المحطة الكهربائية ٣,٧ مليون كيلوواط، ويستفاد من هذا المشروع في كل من جمهوريتي طاجيكستان وأوزبكستان.

٤ ـ وهناك مشروعات فرغانة في أوزبكستان.

٥ ـ وبُنيت محطات كبيرة للكهرباء في جبال تيان شان الوسطى، وعلى شواطىء بحيرة (إيزيك كول) في جمهورية قيرغيزيا.

٦ ـ وهناك سدود ضخمة على نهر الفولغا وفي بلاد القفقاس على نهر قوبان وغيره.

الفصل الخامس

الثروة المعدنية والصناعة

إن الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية غنية بالثروة المعدنية غناها في الطاقة، بل تُعدّ جبال الأورال من أول مناطق العالم الشهيرة بثروتها المعدنية. ومن أشهر المعادن في هذه الأقاليم هي:

الحديد: وتنتج الحديد كل من جمهورية
قازاقستان الاتحادية وتعطي ١٥,٠٠٠,٠٠٠ طن.
وجمهورية أوزبكستان الاتحادية وتعطي ١,٥٠٠,٠٠٠ طن.
وجمهورية أذربيجان الاتحادية وتعطي ١,٥٠٠,٠٠٠ طن.

كما يقدّم إقليم الأورال ـ الفولغا، وبلاد القفقاس، وشبه جزيرة القرم كمياتٍ وفيرةً من هذا المعدن.

النحاس: وتنتج الأقاليم الإسلامية كميات من النحاس وأهم مراكز الإنتاج:

١ ـ قازاقستان وتنتج وحدها ٥٠٠,٠٠٠ طن من النحاس، وأشهر المناجم فيها:

أ ـ كونراد: ويقع شمال بحيرة (باخاش)، وقد اكتشف عام ١٣٤٧ هـ.

ب - كارزاك باي: في سهل الجوع، وهو أهم مناجم هذه الجمهورية، ويُقدّر ذخره بستة ملايين طن.

حـ - جزكازغان: بين بحيرتي خُوارزم وبالخاش.

٢ - **أوزبكستان**: وأشهر المناجم في هذه الجمهورية مناجم (ألماليك) التي تقع جنوب العاصمة طاشقند بثمانين كيلومتر، ويُقدّر إنتاجها بمائة ألف طن.

٣ - كما يُستخرج النحاس من **أذربيجان** قرب حدود أرمينيا.

المنغنيز: يُؤخذ المنغنيز من قفقاسيا بكميات كبيرة تزيد على المليون طن، كما يستخرج من شرقي جمهورية قازاقستان، ومن جبال الأورال.

الكروم: وتنتج الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية كثيراً من معدن الكروم وأهم هذه الأقاليم:

١ - **قازاقستان**: وتنتج ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ طن سنوياً، ويُؤخذ من مناجم (كوستاناي) شمالي البلاد، وتقع إلى الشرق من مدينة (ماغنيتوكورسك)، ومن مناجم (سيمبالاتنسك) الواقعة على مجرى نهر (أريتش) الأعلى.

٢ - **باشكيريا**: وتنتج ٢٠٠,٠٠٠ طن سنوياً حيث تعدّ جبال الأورال ذات ذخرٍ كبير بالمعادن.

الألمنيوم: وأهم الأقاليم المنتجة له:

١ - **أذربيجان**: ويُقدّر انتاجها بأربعة ملايين طن من فلزات البوكسيت (أوكسيد الألمنيوم) فهي بذلك تأتي في المرتبة الثانية في العالم بإنتاج الألمنيوم بعد الصين، وتؤخذ الفلزات من مناجم (زاغليك) قرب الحدود الأرمينية.

٢ - **قازاقستان**: وتُنتج ما يقرب من مليون طن، وأهم مناجها (أكمولينسك) في القسم الشمالي من هذه الجمهورية. وأخيراً لا بد من القول: إن جميع المعادن تتوفر بكمياتٍ ضخمةٍ في الأقاليم الإسلامية الخاضعة للسيطرة الروسية، وإن ما ذكرته لم يكن إلاّ كأمثلةٍ على ذلك.

الصناعة: إن توفّر الطاقة والمواد الخام يُؤدّي إلى قيام صناعةٍ، غير أن المستعمرين الروس قد حرصوا على نقل كل إنتاج إلى بلادهم لتعمر أراضيهم، ولتتطوّر منشآتهم، وتتحسّن أوضاعهم ولتبقى مستعمراتهم وأهلها في إهمالٍ وتخلّفٍ وبحاجة إلى الروس الذين يُمكّنهم بالتالي السيطرة على السكان والاحتفاظ بالأراضي المستعمرة. غير أنه لا بُدّ من قيام مراكز صناعيةٍ بسيطةٍ في أماكن إنتاج الطاقة وقرب مراكز استثمار الثروات المعدنية أو بجانب تجمّع القوى العاملة الرخيصة لهذا نشأت بعض المناطق الصناعية حول مدينة باكو، ومدينة طاشقند، وكاراغندا، وغروزني، ومايكوب إلاّ أن أكثر المُشرفين على الصناعة، والمُدبّرين أمرها والعمال الرئيسين فيها إنما هم من الروس المستعمرين، وبذا فإن فائدة السكان الأصليين من هذه الصناعة محدودة ولا تُشكّل إلا نسبةً ضئيلةً منها هذا رغم قلّتها ونقل معظم الإنتاج إلى بلاد الروس.

وفي الحرب العالمية الثانية ظهر خطأ هذه السياسة الروسية إذ أن تجمّع الصناعة في بلاد روسيا، وحشد العمال فيها، وتركّز المنشآت الضخمة هناك قد جعلها عُرضةً لخطر الحرب، وأُصيبت الصناعة بصدمةٍ عنيفةٍ فاقت الصدمة العسكرية بمراحل واسعةٍ الأمر الذي جعل الروس يُفكّرون بنقل كثيرٍ من المعامل إلى الأقاليم الإسلامية وسيبيريا اتقاءً لخطر الحرب بإبعادها عن منطقة الجبهة وميدان المعارك، في الوقت الذي هم بأشدّ الحاجة للوقت لمواجهة الأعداء وبأشدّ الحاجة من الوقاية، وكان النقل تحت قصف الطيران

وضرب المدفعية واشتداد الخوف، وبقيت هذه المعامل بعد الحرب في أماكنها الجديدة التي نُقلت إليها، وغيّرت روسيا سياستها الأولى التي ظهر خطؤها بتجميع المؤسسات الصناعية في مكانٍ واحدٍ وعلى مقربةٍ من الأماكن التي يُحتمل أن يحدث فيها قتال.

وإن السياسة الصناعية الجديدة التي خطتها روسيا في بناء معامل في مستعمراتها - وإن كان بنسبةٍ محدودةٍ - كانت حكيمةً، بل هي ما يجب أن تُتبع من البداية فإن قرب منابع الطاقة ومراكز استثمار الثروات يُوفّر الكثير من عمليات النقل في الوقت وفي الكلفة إضافةً إلى توفّر اليد العاملة وإن كان لا يُفكّر في موضوع اليد العاملة الرخيصة لأن النظام الشيوعي لا يُعير هذا الجانب اهتماماً إذ أن العمال جميعهم ملك للدولة يعملون لحسابها مقابل الطعام وتأمين الخدمات التي تُقدّمها عادةً الدول.

كما أفادت روسيا من هذه السياسة من جانب آخر إذ سمحت لها هذه السياسة بنقل أعدادٍ كبيرةٍ من الروس المستعمرين لإدارة هذه المعامل والمؤسسات الجديدة منهم إضافةً إلى عملهم الرسمي بالإشراف على المعامل يقومون بمراقبة السكان، ويُقللون نسبتهم، وبالتالي يحكمون البلد مباشرة دون أهلها.

هذا إضافةً إلى ما دخل الأقاليم الإسلامية من لاجئين روس اثناء الحرب حيث تعرّضت بلادهم للخطر الألماني، حيث دخل جمهورية أوزبكستان كمثال على ذلك أكثر من مليوني لاجيء روسي.

ومن المعلوم أن نظام الحكم سوفيتي أي عُمّالي، والقادمون من روسيا كلهم يعملون تحت هذا الاسم «عُمّال» أو «مُزارعون»، لذا فجميعهم لهم حقّ الانتخاب وحقّ التمثيل وهذا الذي نجده أن أكثر الممثلين للأقاليم الإسلامية إنما هم من الروس رغم غربتهم. عن هذه الأقاليم، وهذا أشدّ

أنواع الاستعمار وأكرهه، ولنأخذ بعض الأمثلة التي تُعدّ أقلّ الأقاليم في تدني نسبة الروس فيها:

أوزبكستان: كان مجلس الشعب يضمّ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

٢٤٩ نائباً من الأوزبك.
٨٣ نائباً من الروس.
٣٢ نائباً من التُركمان.
٣٦ نائباً من القازاق والطاجيك وقره قالبق.

٤٠٠ نائب.

تُركمانستان: كان مجلس الشعب يضمّ عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م)

٦٦٪ من النواب تُركماناً.
٣٤٪ من النواب رُوساً (روس وأوكرانيون)

١٠٠٪

وإن أكثر الوافدين الروس يعيشون في المدن لإضفاء الصفة الروسية عليها، ولتقليل خطر السكان على الحكم، ولإضعاف نسبة المسلمين فيها فالمدن عادةً مركز الثقافة والفكر ومُنطلق الحركات، ولنعطي مثالاً على ذلك مدينة طاشقند أوسع المدن الإسلامية وأكبرها وأشهرها. لقد كان مجلس المدينة عام ١٣٧٠ هـ. (١٩٥٠ م) يتألف من:

٥١,٣٪ من الأوزبك.
٣٧,٢٪ من الروس.
١١,٥٪ من جنسيات أخرى أهمها الأوكرانيون وهم أيضاً من الروس، ولكن للإيهام.

١٠٠,٠٪

وفي الوقت نفسه يعمل الروس لتقليل نسبة المسلمين في الأقاليم الإسلامية بنقل العمال المسلمين للعمل في روسيا حيث يضيعون هناك في خضمّ المجتمع الروسي الكثير العدد، ويحلّ محلّهم في الأقاليم الإسلامية عمال في الروس يحكمون البلد، ويرفعون نسبة المستعمرين ويُقلّلون نسبة المسلمين، وإن هذه السياسة أيضاً ستُشجّع الكثير من الضعاف وأصحاب الأطماع والمصالح إلى الانضمام إلى جانب الروس وحملهم أفكارهم وقبولهم بالدنيّة في سبيل وصولهم إلى مراكز أعلى، فإنهم مهما تبنّوا الأفكار الروسية لن يكونوا إلاّ تبعاً للروس وأداةً طيعةً بأيديهم لأنه لا يُوثق بهم ما داموا ينتمون إلى الإسلام أو إلى أصولٍ إسلاميةٍ إذا عددنا أنهم انتهوا من الإسلام، ولو تنكّروا إلى أصولهم فلن يُقبل هذا منهم، فقد سبق لهم أن مُسحت عنهم المغفرة الروسية.

ومن المعلوم أن مجلس العمال (السوفييت) أو ما يُسمّى بمجلس الشعب إنما يضمّ أكثريةً عماليةً وفلاحيةً أي يُساقون، وتُفرض عليهم الأفكار فيتبنّونها، وتُعرض عليهم الآراء فيُصادقون عليها، إذ لا يعرفون الردّ عليها لأنهم لا يحملون أفكاراً، ولا يجرؤون المخالفة لأنهم مُستعمَرون، ولا يملكون حرية التصرّف لأنهم قد سُلبت منهم الحرية، منهم عبيد أذلاء للفكر الشيوعي الذي يمنع الحرية وللاستعمار الروسي الذي يكبت الحرية.

الخاتمة

لا بدّ قبل أن نختم البحث من أن نلقي ضوءاً على السياسة الروسية الشيوعية في الوقت الحاضر، وأن نعرف أوضاع المسلمين في الإمبراطورية الروسية ومدى تجاوبهم مع سياسة مستعمريهم، وتفكيرهم في انفصالهم، وفي إسلامهم، وفي نظرتهم إلى الروس وإلى الشيوعية..

أما الروس فقد اتخذوا بعد الحرب العالمية الثانية سياسة ازدواجية إذ تختلف السياسة ضدّ الإسلام في داخل الإمبراطورية عما هي عليه في خارجها. إذ كان المسؤولون الروس قد أعلنوا عن تساهلهم في الحرية الدينية إبان الحرب فما أن انتهت حتى شُنّت على الإسلام، فاتّهم ستالين من اتّهم من الشعوب الإسلامية، ونفى شعوباً كاملة إلى مجاهل سيبيريا منها تتار القرم، والشاشان، والبلكار و... وأبيدت جماعات، وزالت قبائل، وانتهى زعماء، وقُضي على أفرادٍ، وغاب أناس في السجون و... هذا إضافة إلى الدعاية ضدّ الإسلام، والحرب النفسية، والإبعاد عن المراكز.

ومات ستالين عام ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م)، وتغيّرت السياسة بعده، وشُنّ الهجوم على حكمه، وعلى تسلّطه وعلى مركزيته، وزاد الهجوم على الإسلام بعد ركودٍ طفيفٍ رغم أنه كان فيما انتُقد به ستالين تصرّفاته الرعناء ضدّ المسلمين فأُعيدت بعض الشعوب إلى أوطانها من منفاها وهي الشاشان، والبلكار، وبقي تتار القرم حتى الآن يهيمون على وجوههم في غابات سيبيريا

وصحاريها الباردة، وكان الهجوم على الإسلام من أعلى السلطة من خروتشوف ومروراً بمن تولّوا السلطة بعده حتى غورباتشوف الذي شنّ هجوماً كاسحاً على الإسلام في خطابه الأخير (ربيع الثاني ١٤٠٧) في طاشقند.

أما بالنسبة إلى السياسة الخارجية فقد رغبت الحكومة السوفيتية أن تدخل إلى الأوساط الشعبية في الأمصار الإسلامية لكسب الأعوان لها ونشر المبادىء، وحتى يتمّ لها ذلك لا بدّ من إزالة الفكرة التي يعرفها المسلمون بحقّ وهي معاداة الشيوعية للإسلام، لذا فقد بدأت الحكومة الشيوعية تدعو بعض العناصر البسطاء من المشايخ وغيرهم لزيارة الأقاليم الإسلامية وبعض أجزاء من بلادها، وكانت تذهب بهم إلى ما قد هيئته لهم من آثار المساجد، ويحضر بعض الذين لهم الصفة الدينية وبعض عناصرها المختصّين لمثل هذه الغاية، وعندما يعود هؤلاء يذكرون في بلدانهم أنهم لم يروا إلا خيراً، فكان هذا بدء الدعاية لها ثم عملت على دعوة أعضاء من مجالس نيابية، ومنظمات وأخيراً أصبحت تعقد المؤتمرات وتدعو لها بعض الشخصيات الإسلامية والمؤسسات، ولا يستطيع أيّ وفدٍ أن يتحرّك إلا بما رُسم لأعضائه. لقد عُقد مؤتمر في سمرقند عام ١٣٩٤ بمناسبة مرور ألف ومائتي عام على ولادة الإمام البخاري - رحمه الله - بإشراف الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وكان رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الشيخ ضياء الدين خان ايشان باباخان مفتي المسلمين في الإمبراطورية الروسية، وقد دُعيت إليه رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ولبّت الدعوة، كما حضرها ممثلون عن كلٍ من: أفغانستان، وأندونيسيا، والأردن، وباكستان، وبنغلاديش، وبلغاريا، وتانزانيا، وتونس، والتوغو، وتشاد، وسريلانكا، والسودان، والصومال، والعراق، والكويت، ولبنان، وليبيا، وماليزيا، ومصر، والمغرب، ونيجيريا، واليمن الشمالية، وكان الحضور يُمثّلون مؤسساتٍ دينيةٍ وعلميةٍ كالإفتاء عادةً وكليات الشريعة.

وعُقد مؤتمر في طاشقند في شهر شعبان من عام ١٣٩٩ هـ (تموز ١٩٧٩ م) بمناسبة مرور عشر سنوات على إصدار مجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي»، وقد حضره مندوبون من الأردن، وبلغاريا، وتركيا، وتونس، والحبشة، ولبنان، واليابان.

ولم تفد الشيوعية من هذه المؤتمرات ما كانت تبغيه إذ أن ما يحدث في الداخل كان يصل إلى الخارج وإن كان المسؤولون يظنّون أن ما يتم وراء الستار الحديدي لا يتعدّاه، إضافةً إلى الظنّ بأن الشعوب الإسلامية أغلبها لا يقرأ، وأن من يقرأ هو بعيد عن الإسلام. كما أن أكثر المسلمين قد أصبحوا على وعي، ويعلمون أن الشيوعية ضدّ الأديان عامة وتحقد على الإسلام بشكلٍ خاص، لهذا لم تُثمر هذه المؤتمرات حسبما أراد لها مُنظّموها.

أما الشيوعيون فقد غدا تعصّبهم للروس أكثر من تعصبهم لأفكارهم ومبادئهم التي يُنادون بها ومن هذا المنطلق فإنهم قد أصبحوا يُدافعون عن تصرّفات الحكم القيصري ويُمجّدون الأعمال التي قام بها ضدّ المسلمين الذين يُسمّونهم أنصار الأفكار الدينية البالية.

وأمّا المسلمون فبعد أن هُزموا، واشتدّ الضغط عليهم، ولاحقهم الظلم في كل مكانٍ اظهروا الخنوع والاستسلام، وسارت جموع منهم في ركب الشيوعية، واتبعت مبدأ الإلحاد، وأهملت العقيدة نهائياً، ولكن هل كان هذا عن إيمانٍ كاملٍ وعقيدةٍ راسخةٍ أم خوفاً من السيف أو حرصاً على المصلحة بل ومن أجل لقمة العيش؟، والواقع أن الحكم على هذا أو ذاك أمر صعب لكن يكفي أن نُعطي بعض الخطوط العريضة وربما كان في ذلك مصلحة ألا نخوض في أكثر مما نطرحه.

إن النظرة العامة تدلّ على أن الناس جميعاً في الإمبراطورية الروسية قد أهملوا العقيدة نهائياً وتخلّوا عنها تماماً، ولم يبق من يتمسك بها سوى قلة ممن بلغوا من العمر عتياً يرتادون المساجد الباقية للدعاية، يرتادونها إما إيماناً وإما

وظيفة ينتظرون ضيوف دعاية الحكومة، وكذا الأمر بالنسبة إلى المراكز الإسلامية القائمة في طاشقند، وباكو، ومحج قلعة، وأوفا.

غير أن هذه النظرة تمحي عندما نُلاحظ أن الاندماج بين المسلمين والروس لم يحدث، ويكاد يكون الزواج بين الطرفين نادراً، وأن الختان عام بين المسلمين لا يكاد يتخلّى عنه فرد واحد، وكذلك طريقة عقد الزواج، والطلاق، وعملية الدفن كلها تأخذ الصفة الشرعية.

وإذا انتقلنا إلى جانب اللغة نُلاحظ أن اللغة الروسية قد أصبحت رسميةً، ويعرفها المثقفون جميعاً، إلا أن الحديث خارج العمل لا يكون إلاّ باللغة الأصلية للإقليم، وتأخذ القصص الشعبية والملاحم التي تعتزّ بالأمجاد وتفخر بالانتصارات التي أحرزها الآباء دورها بين المواطنين وكلها مدونة باللغة المحلية للإقليم ولهذا قام الروس بحملةٍ واسعةٍ وهجومٍ عنيفٍ ضدّ هذه الملاحم في أذربيجان، وتركمانستان، وبلاد القيرغيز، وعدّوا هذه الملاحم دعوةً للوحدة الدينية، وحرباً على لغة الروس غير أن هذه الحملة وهذا الهجوم لم ينجم عنه سوى ردّ فعلٍ ضدّ الروس، وربما نُلاحظ ما حدث في بلاد القيرغيز إثر تلك الحملة المسعورة ضدّ الملاحم الشعبية والتي كانت (١٣٧١ - ١٣٧٤ هـ)، فقد هاجت صحيفة سوفيتسكايا التي تصدر في فرنزوي عاصمة قيرغيزيا باللغة الروسية وتنطق باسم الحزب هذه الملاحم فتصدّت لها صحيفة (قيزيل قيرغيزستان) التي تصدر باللغة القيرغيزية في العاصمة نفسها، وحدث خلاف عنيف بين الصحيفتين حتى تدخّلت السلطات، ولكن حدث ردّ فعلٍ بالنسبة إلى السكان ووقفوا بجانب (قيزيل قيرغيزستان).

كما حاول الداغستان إحياء أمجاد الشيخ محمد شامل وحروبه ضدّ القيصرية الروسية غير أن الشيوعيين قد تعصّبوا للروس وعدّوا هذا الإحياء ليس إلا إثارةً للعصبية الدينية لذا فقد وقفوا ضدّها، وأمام هذا التعصّب الروسي

فقد نما الشعور برابط الإسلام رغم اللامبالاة بالعقيدة حسبما يظهر - والله أعلم -.

بل إن التفسير التاريخي لكثير من الأحداث لا يزال مختلفاً بين الروس الشيوعيين وبين المسلمين حتى الشيوعيين منهم إذ يرى المسلمون أن الغزوات القيصرية لبلاد المسلمين هي غزوات استعمارية وأن مُقاومة أجدادهم لهذه الغزوات هي صفحات وضّاءة في تاريخ الوطنية على حين يرى الروس أن هذه الغزوات إنما كانت لإنقاذ أصحاب الأقاليم الإسلامية من الوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ومن هذه المقاومة حركة الشيخ محمد شامل حتى اضطر الروس لدعوة عددٍ من الشيوعيين من كلا الطرفين للنظر في هذه الحركة هل كانت حركةً رجعيةً أم تقدميةً؟ ويبدو من هذه التعريفات الأساسية أنه لا تزال نقاط الخلافِ قائمةً فيها رغم المنطلق الشيوعي الواحد، وبذا يظهر التفاوت واضحاً بين الفريقين.

ويبدو أن المسلمين يُخفون شيئاً وينتظرون الوقت المناسب، وهذا يظهر من استقبالهم للضيوف المسلمين، والإعلان أمامهم بقوةٍ وإصرارٍ أنهم مسلمون، وطلب نسخٍ من كتاب الله «القرآن الكريم» بصورةٍ سريةٍ، والتعاطف فيما بينهم أمام الروس، ومحاولة التقرّب من المسلمين الذين يدرسون هناك؟ وانضمام بعض الذين كانوا في الجيش الذي غزا أفغانستان إلى جانب إخوانهم المسلمين، واللقاءات السرية التي تتم لدراسة الأوضاع أو للقراءة في كتاب الله، ويحسّ الروس ببعض هذا. فقد روت صحيفة «كومسومولسكايا برافدا»، إن وفاة طالبٍ ثانوي في الصف التاسع كشف النقاب عن وجود مدارس دينيةٍ إسلاميةٍ سريةٍ في آسيا الوسطى. فقد تُوفي «دوليه أصلانوف» أخيراً بمرض في جمهورية طاجيكستان، بعد أن رفض مساعدة الطبيب قائلاً: (لا أريد مساعدةً من مُلحدٍ، فكل شيءٍ بيد الله) ثم تُوفي وهو يشتم غير المؤمنين. ومضت الصحيفة تقول: إن الشيوعيين صُدموا أمام هذا الموقف خصوصاً أن الشاب عضو في «الكومسومول» أي رابطة الطلاب

الشيوعي. ثم قالت الصحيفة: ثم تبيّن أن أصلانوف العضو في الكومسومول منذ بضع سنواتٍ كان يحضر الدروس في المدرس الثانوية الحكومية، ثم يحضر دروساً أخرى في مدرسة دينية إسلاميةٍ حيث كان يُعدّ من أفضل الطلاب. وقد توجه أحد المُحققين لجلاء قضية المدرسة السرية، فانتهى إلى مقهى لتقديم الشاي في مزرعة «جدانوف» التعاونية حيث تُوجد أربعة صفوفٍ من المراهقين، يتعلّمون هناك اللغة العربية والآيات القرآنية، ولكن حين اقترب المُحقق من المكان سمع صفيراً خفيفاً، فلما دخل المحقق وجد الطلاب يشربون الشاي، وقد اختفت من بين أيديهم الكتب الدينية وأجزاء القرآن. وقالت الصحيفة: إن أولاد المزرعة التي معظم سكانها من المسلمين كانوا يقضون عدة ساعاتٍ يومياً في تعلّم القرآن. وختمت الصحيفة مقالها بما يلي: وهكذا فإن الأيدي القذرة لهؤلاء المشايخ تتولّى تكوين طباع الأطفال[1].

فالمسلمون ينتظرون ساعة الخلاص رغم كل ما يظهر عليهم من موافقةٍ للفكر الشيوعي أو خضوعٍ للسلطة الروسية حتى كبار الشيوعيين منهم يرون تعصّباً من الروس يُخرجهم عن مبادىء الحزب والفكرة فيُضمرون ما لا يُظهرون. وأما الروس فلا يمكنهم التخلّي عن الأقاليم الإسلامية إلاّ بالقوة وذلك صليبية، واستعماراً، ولغنى الأقاليم، ولأنهم أصبحوا يعدّونها جزءاً من أملاكهم، كما يرون في التخلّي عنها إضعافاً لدولة روسيا العظمى، وذهاباً لهيبتها، وما غزوهم أفغانستان إلا خوفاً من ذهاب الهيبة الذي يُؤدّي إلى تمرُّد المسلمين حسب رأيهم وانفصالهم، ومع ذلك فقد وجدت في أفغانستان ما كانت تخشاه والذي غزت من أجله، وتخشى من الانسحاب أيضاً بعد أن ذلّت قوتها خوفاً من نتائج وخيمةٍ تترقّبها.

ويتطلّب الأمر الاهتمام بالمسلمين الذين يخضعون للسيطرة الاستعمارية

(١) جريدة الحياة العدد ٥٦٧٦ تاريخ السبت ١٠ تشرين أول سنة ١٩٦٤ م.

الروسية، ومحاولة الاتصال بهم، ونشر الوعي بينهم عن طريق توجيه إذاعاتٍ لهم بلغاتهم المحلية، والتذكير بما فعله الروس من غزو بلادهم وإبادة جماعاتٍ كاملةٍ، وقتل الأجداد، وأخذ الخيرات، واستعباد الناس، وبقاء هذا مُستمراً، والتمييز بين الروس النصارى الارثوذكس وبين المسلمين رغم المناداة بعكس ذلك مما يدلّ على كذب الأفكار الشيوعية والمبادىء التي يحملونها. هذا إضافة إلى إبراز ازدراء الروس لحركات المقاومة الإسلامية التي قامت دفاعاً عن العقيدة، وسيكون لهذا نتائجه بإذن الله، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَجاءَتِ النَتائج وَكانَ الإنفِجَار

إن طبيعة النظام الذي يقوم على إذابة الفرد في المجتمع، وفقدان الحافز الشخصي بربط الفرد بالسلطة، وتقديم كل شيء لها، واعتباره أجيراً عند الحكومة التي تملك كل شيء، وهو لا يملك شيئاً، كل ذلك قد أضعف الإنتاج الذي أخذ يتناقص تدريجياً، وأخذ المجتمع يشعر بالضائقة الاقتصادية، لذا حاولت السلطة تفادي هذا العجز بالضغط على السكان لزيادة الإنتاج وتلافي ما حدث من نقص، غير أن الضغط لا يمكن أن يُقدّم عطاءً، وخاصة أن الضغط قائم وقد وصل إلى الذروة ولم يبق سوى الانفجار. والقضية نفسية، ولا يمكن للإنسان أن يعمل كالآلة فإن هناك شعوراً ودوافع وحوافز تلعب دورها، وتُحرّك جوارحه، وإن كان الضغط في بداية الأمر قد أعطى شيئاً من الإيجابيات كتغيير للخط السابق، ثم لم يلبث أن عاد النقص يظهر، وبشكلٍ أكثر فداحةً من السابق، وهذا ما دعا المسؤولين إلى تغيير شيء في النظام إذ سُمح بتملّك ألف مترٍ مربعٍ كحديقةٍ بجانب المنزل، غير أن هذا لم يكن كافياً، وإن أعطى بعض التقدّم في ارتفاع الإنتاج.

ولما جاء خروتشوف إلى السلطة عاد إلى سياسة القهر، وطريقة الضغط، وزيادة محاربة الأديان أو بالأحرى صبّ العدوان على الإسلام فرجع الإنتاج إلى التقهقر، والمجتمع إلى الشعور بالضائقة، والأفراد إلى الإحساس

بالاختناق، بل ليس هناك من داعٍ لزيادة إعلان الحرب على الدين إذ لا يوجد من يفكر ـ حسب الظاهر ـ بهذا الجانب، فكان أن أدّى الأمر إلى ردّ فعلٍ واضحٍ، فإن إعلان الحرب على الإسلام قد حرّك كوامن النفس فبدت رغبة للتدين، وأبرزت بعض ما كان كامناً، وهذا ما زاد من الحرب، وزيادة الحرب لا تزيد إلا التحدّي، وإن كان لا يمكن إظهاره إلا أن النفوس قد شُحنت به، فالعقيدة لا تحارب بالضغط وإنما بالمحاورة والإقناع، وإظهار السلبيات وإيجاد البدائل. وكل هذا قد أوجد شعوراً بخرقٍ واسعٍ بين الشعوب المسحوقة والحكومة المتسلّطة، وهذا الخرق يصعب رتقه، وهذا يُؤجج الضائقة النفسية من كبت الحريات، وخنق الفكر، والحرب على العقيدة، والضائقة الاقتصادية من نقص المواد، ورداءة النوعية، مع إلزام على العمل دون جدوى.

سباق التسلّح: وكان السباق إلى التسلّح بين الشرق والغرب، وكلّ يلقي بطاقاته ويسخّر إمكاناته ليسبق الآخر، ويحصل على التفوّق، ويخيف خصمه، ووضع المعسكر الشرقي موارده كافةً لخدمة التسلّح، وألزم شعوبه على العمل في هذه السبيل. فذهب كل شيء في طريق التسلّح، وحُرم الناس من كل شيء في سبيل التفوّق، واستمرّ التسابق، وازدادت الضائقة على الرعية، ولم يعد الأمر يحتمل أكثر من وخزةٍ حتى ينفجر.

وأخذ التقدّم العلمي يُسرع الخطا. التلفزيون الغربي يبثّ برامجه خلال الأقمار الصناعية، والشعب في الامبراطورية الروسية متقوقع على نفسه لا يدري شيئاً عن الآخرين. الهاتف: يُكلّم الناس بعضهم بعضاً من أول المعمورة إلى آخرها باستثناء السكان في الامبراطورية الروسية. (الفاكس) يراسل الأفراد بعضهم بعضاً، والمؤسسات يُعامل بعضها بعضاً خلاله، ويطلع بعضهم على آراء بعض بثوانٍ، وينقلون صفحات بخط الكاتب، غير أن البائسين في الامبراطورية الروسية لا يعرفون شيئاً من هذا، ولا يتصوّرونه، ويرتحل

السواح من بلدٍ إلى بلدٍ في أرض الله الواسعة، ويطلع الواحد منهم على ما في الدنيا كلها إلا الذين يعيشون في الامبراطورية الروسية إذ يصعب عليهم الارتحال حيث يُحرم عليهم الخروج، كما يُحرم على غيرهم الدخول إلى بلادهم اللهم إلا من اشتراه حكامهم لمصلحتهم فيأتي للتدريب والتلقين، أو من ينتمي إلى دولةٍ ارتبطت مع أصحاب السلطة عندهم فيأتي بعض أبنائها ليدرسوا، أو ليُغرّر بهم، وقد تأتي وفود رسمية تتحرّك بمخططٍ، وتنتقل حسب توجيه، فلا ترى إلا ما يُراد لها أن تراه، ولا تعرف إلا ما يعطى لها لتعرفه، ولكن يخرج من ذلك السجن الكبير أصحاب النفوذ باسم السياسة، وشعار خدمة الحركة الشيوعية، وعنوان مصلحة الحزب فيمرحون على حساب التعساء، ويرتعون ليزداد الفقراء شقاوةً. وأخذت الشائعات تصل إلى الآذان أن الأموال التي يجنيها البؤساء في الامبراطورية الروسية يسطو عليها الكبار باسم مصلحة المجتمع، ويضعونها في مصارف أوربا الغربية التي هي محرمة في بلادهم، كما هو محرم عليهم تملك المال، وبدأت هذه الشائعات تضرب على الأوتار حتى غدت شبه مؤكّدة لدى الشعب، فازداد الورم الخبيث، وزاد الانتفاخ إلى درجةٍ لا يمكن معه إلا الانفجار.

الخيارات المطروحة: وصل غورباتشوف إلى السلطة، وكان قد سبق له أن شغل منصب المسؤول عن المخابرات، ويعرف ماذا يجري داخل المجتمع، وما يُفكّر به الناس في أرجاء الامبراطورية الروسية، وكان أمام خيارين، إما أن يسير على نهج سلفه، وينفجر الوضع في البلاد عامةً، ولا يعرف النتيجة التي تؤول إليها الامبراطورية، وسيُعزى إليه سبب هذا الانفجار، ويُنعت بالفاشل، ويُوصف بالضعيف، وإما أن يسعى إلى التغيير، واختار الموقف الثاني.

كان على غورباتشوف أن يُفكّر من أين يبدأ بالتغيير ما دام قد اختار الموقف الثاني، حيث كان يخشى إن بدأ بإعطاء شيءٍ من الحرية أن يفلت زمام الأمر من يده، ويبدأ المعسكر الغربي بالتدخّل، ودعم الثائرين، وانقلاب الوضع رأساً على عقب، حيث يعرف تماماً الحال التي تعيشها الشعوب في بلاده إذ لا تحتاج إلى أكثر من وخزةٍ بسيطةٍ حتى يحدث الانفجار.

رأى أن يبدأ بالاتصال بالغرب تحت مظلة الحدّ من استخدام الأسلحة النووية والتخفيف من التسابق إلى التسلّح، وتمّ اللقاء، وأحسّ الغربيون المفاوضون بما يجيش في أفكار القادة الروس، فعرض الغربيون إعطاء دول أوربا الشرقية حرية اختيار النظام الذي تراه أو حسب الاصطلاح الأوربي ـ الحرية الديمقراطية ـ وهم يعلمون أن هذا وحده كفيل بتفتيت المعسكر الشرقي. وتساءل غورباتشوف من الذي يستطيع أن يتحمّل تبعات هذا التحوّل ونفقاته، وأبدى بصراحةٍ أن الامبراطورية الروسية عاجزة عن تقديم أي شيءٍ إذ أنها في وضع من الارتباك لا تُحسد عليه، ولا يختلف وضعها كثيراً عما تُعانيه دول أوربا الشرقية، وكانت هذه العبارة وحدها كافية لكشف أوراق غورباتشوف، وما يجول في خاطره.

الدول البالطية: بقي وضع الدول البالطية نقطة غامضة لدى الطرفين، وكل جانبٍ يضعها في إطار تفكيره، إذ أن الغرب يعدّها دولاً من مجموعة دول أوربا الشرقية حيث ضمّتها روسيا إليها بعد الحرب العالمية الثانية، على حين أن القادة الروس يعدّونها جزءاً من امبراطوريتهم لا يتجزأ، ولهذا أخذت المشكلة الليتوانية شيئاً من الإطالة مع المرونة عندما طرح كل طرفٍ وجهة نظره، ولم يكن غورباتشوف قد طرحها أثناء اللقاء، وعدّها أمراً طبيعياً حسب وجهة نظره.

وأخذت الدول البالطية تنفصل عن جسم الامبراطورية الروسية البالي.

انتشار اللهب: وتساءل غورباتشوف ثانيةً وإذا امتدّ لهيب الحريات إلى باقي جمهورية الامبراطورية الروسية وسط آسيا، وأجاب على نفسه: إننا بصراحةٍ تامةٍ لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي عن أية حركةٍ مهما كان

نوعها، وفي أي مكانٍ وقعت لأننا بأشدّ الحاجة إلى أية بقعةٍ، وفي الوقت نفسه لا نريد أن يحدث أي احتكاكٍ بين الشرق والغرب، لأن العاقبة ستكون وخيمة، وسينال الطرفان من جراء ذلك مصائب عنيفةً، وإن كنت على يقينٍ أن ما ينال الغرب أضعاف ما يصيب الشرق، ويعرف الغرب هذا تماماً - أراد غورباتشوف أن يستعمل أسلوب إبراز العضلات ليغطي السقطات التي وقع فيها ليعيد إلى نفسه شيئاً من المعنوية -.

أعلن الغربيون أنهم لن يتدخلوا في هذا الأمر أبداً، وعلى الروس أن يحسموا الأمر بمنتهى القسوة، كما أعلنوا أنهم لا يريدون إنشاء خلافةٍ إسلاميةٍ من جديدٍ، بل علينا أن نتعاون معاً وبكل صدقٍ في خنق كل فكرةٍ تحمل هذا المعنى، وسحق كل حركةٍ تعمل لهذه الدعوة.

وتساءل غورباتشوف مرةً أخرى، وهل كان سكان أفغانستان من غير المسلمين؟ وهل يتصرّف معنا الأصدقاء الأمريكان في جمهوريات وسط آسيا السوفيتية مثل تصرفهم في أفغانستان؟ أجاب الرئيس الأمريكي جورج بوش: إن الأمريكان لم يتدخلوا في شؤون أفغانستان أبداً، ولم يعملوا على ضمّها إلى أي حلفٍ تدعمه الولايات المتحدة، وهم قادرون على ذلك، وقد تركوا الأمر لأصدقائهم الروس الذين توانوا بالأمر فلما أقدموا تراخوا وتهاونوا، ولم يحسموا الأمر بسرعةٍ فتعالت صيحات الاحتجاج والمطالبة بالعمل الإنساني فاضطررنا إلى التدخل. فعلّق الروس على ذلك: لتظهروا أمام العالم بالمنقذين. وفهم الروس أنه من المفروض حسم الموضوع بشكل سريع ولو كان فيه العنف والوحشية.

وقامت حركة في أذربيجان تريد الحرية أو أن ضغط التحمّل قد زاد فانفجر الوضع فأسرع الروس ودخلوا أذربيجان بسرعةٍ وقوةٍ، وحسموا الأمر بعنفٍ.

وارتأى المفاوضون أن أفضل طريقٍ لإضعاف المسلمين وإذلالهم هو تقوية

اليهود وتسليطهم عليهم واغتصاب منطقةٍ بعد أخرى من أراضيهم، ولا يكون هذا إلا بجمع أكبر عددٍ من اليهود في فلسطين، وعندها تزداد الكثافة فيها، ويضطرون إلى التوسعة في الأرض المجاورة لفلسطين، وهي أرض للمسلمين، فيقع الصراع بين الفريقين، ويدعم الأصدقاء اليهود فينتصرون ويتوسّعون، ويُذلّ المسلمون، ويتجهون إلى المنطقة التي هي فلسطين وما حولها دون سواها، وينسون قضية المسلمين في الامبراطورية الروسية الذين لا يجدون أي دعمٍ، بل ولا أي تفكيرٍ بهم فيخنعون، ويضطرون إلى الانصياع والبقاء على أوضاعهم الراهنة. وتم قبول الرأي، ولذا كان من باكورة الأحداث التي تمّت بعد لقاء العملاقين هجرة اليهود من الامبراطورية الروسية إلى فلسطين.

كما اقترح المتفاوضون إجراء صلح بين المسلمين واليهود ليتمكن اليهود من التوسّع بصورة سلمية نتيجة التفوق العلمي والمادي، ونتيجة الدعم والمد بالسلاح لإمكانية نجاح الاتفاق، وتنفيذ المخطط الذي تمّ رسمه. وكانت النتائج:

١ - تفتيت المعسكر الشرقي، وانتهاء المنافسة بين المعسكرين.

٢ - إرضاء اليهود في الولايات المتحدة لما تمّ من نتائج لصالح إخوانهم.

٣ - العمل ضدّ المسلمين، وإشغالهم بقضايا كبيرة في مناطقهم، وخوفاً من القيام بردود فعل منهم يجب تشتيت آراء الشعب.

٤ - حماية الامبراطورية الروسية من الانفجار - ظاهرياً وحسب ظنّ الروس -.

الانفجار: إن ما حدث لا يمكن أن يستمرّ طويلاً.

فاليهود الذين يُثيرون الحروب، ويمتصون الدماء بالمتاجرة بالسلاح قد انتهى دورهم بانتهاء المنافسة بين العملاقين، وخروج المعسكر الشرقي من الساحة. فلا بدّ لهم إذن من إيجاد بديل للحصول على المال، والطريق الأفضل هو إقامة النظام الرأسمالي مكان النظام الشيوعي للإفادة من الربا، والاحتكار،

والمتاجرة بالجنس، والأمر لديهم سهل فهم سدنة النظامين، والشيوعية من صنع أيديهم، ومن رسم أفكارهم، فتحرك أعوانهم في هذا الخط.

والصليبية تريد إنهاء المنافسة تماماً للسيطرة الكلية على العالم، وإقامة نظام دولي واحد فيه، والتحكّم به، وتنفيذ ما كانت تحلم به سابقاً ما دامت قد أصبحت سيدة العالم، وهذا كله يقضي الانتهاء من عملاقية الامبراطورية الروسية، وتحرّك أعوانها في هذا الاتجاه.

والقادة الروس الذين باتوا يتوقّعون انهيار امبراطوريتهم، وزوال نظامهم غدا من الأفضل لهم التقرّب من المعسكر الغربي ليبقوا في قيادتهم، وليرتقوا في مناصبهم خوفاً من محوهم فيما إذا استمروا على ما كانوا عليه فاتجهوا نحو الغرب يعملون ضمن مخططه وحسب التوجيه لحماية أنفسهم.

وهكذا تضافرت الجهود، واتّحد الهدف، وسار الجمع في هذه الطريق.

وإن النفس لم تعد تتحمّل الظلم أكثر مما تحمّلت.

وإن الفقر والحاجة ليدعوان إلى الوثوب.

وإن التسلّط لم يعد يطاق.

وإن ما حدث في أوربا الشرقية قد أعطى الأمل ومهّد الطريق.

توثّبت النفوس، وزاد الضغط قليلاً، فتمّ الانفجار، وتجزّأت الامبراطورية، وتناثرت الشظايا، وأخذت كل مجموعة، واتجه كل شعب يفتش عن الماضي، وينظر إلى المستقبل، ويطلب مدّ اليد إليه ليعرف الطريق، وامتدّت الأيدي المغرضة، وليس للمسلمين راعٍ ولا موجه، ولا إمكانات ليُدلوا بدلوهم، فالبلاد مُجزّأة، والأمصار مُوزّعة، والأفكار مشتتة، والآراء مبلبلة.

نرجو من الله أن تتجمع الجداول بعضها مع بعض لتشكّل نهراً غزيراً يستطيع أن يُزيل العقبات التي تعترض سيره.

المراجع

- اقتصاديات العالم الإسلامي — محمود شاكر — مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٤٠٤
- التاريخ الإسلامي — محمود شاكر — المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الأجزاء السادس والسابع والثامن.
- تاريخ القرن العشرين — بييرورنوفن ـ تعريب نور الدين حاطوم — دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ.
- الدعوة إلى الإسلام — توماس أرنولد ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ـ وعبد المجيد عابدين ـ واسماعيل النحراوي — مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٠ هـ.
- رحلة ابن بطوطة — محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة — مؤسسة الرسالة تحقيق علي المنتصر الكتاني الطبعة الرابعة عام ١٤٠٥ هـ.
- رسالة ابن فضلان — أحمد بن فضلان بن العباس — مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق تحقيق سامي الدهان عام ١٣٧٩ هـ.
- حاضر العالم الإسلامي — لوثروب ستودارد ـ ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان — دار الفكر ـ بيروت

- صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات — الشيخ طه الولي — دار الفكر الجديد ـ بيروت ١٤٠٠ هـ
- المسلمون في الاتحاد السوفيتي — محمد علي البار — دار الشروق ـ جدة ١٤٠٣ هـ الطبعة الأولى
- المسلمون في الاتحاد السوفيتي — محمد صفوت السقا — رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠
- المسلمون في الاتحاد السوفيتي — تعريب: إحسان حقي — مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ
- المسلمون تحت السيطرة الشيوعية — محمود شاكر — المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ
- المسلمون في المعسكر الشيوعي — علي المنتصر الكتاني — رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة. عام ١٣٩٣
- المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي — بنغسين لومرسييه — ترجمة مجلة الأسبوع العربي في أعدادها ١١٦٥ ـ ١١٩٤
- معجم البلدان — ياقوت بن عبدالله الحموي — دار بيروت للطباعة والنشر

فهرست الموضوعات

الموضوع الصفحة

